



السلامة

من الأثر

الكتوب بخط الرحمن الشهبندر

كتبة الملك فهد الوطنية

٩٠٢,٥٥٦٥
٧٥٤

منكر لارث

الكتور عبد الرحمن الشهبندر

كتاب الأرشاد

للطبا عنة والنشر والتوزيع

مب ١٣٤٧ - بيروت

مكتبة المالح فهد الوطنية

الطبعة الاولى

١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م

جميع الحقوق محفوظة

عبد الرحمن الشهبندر

١٢٩٩ - ١٣٥٩ هـ

١٨٨٢ - ١٩٤٠ م

عبد الرحمن بن صالح شهبندر : طبيب ، خطيب ، من أهل دمشق ، مات والده وعمه بعد ست سنوات ، فربته أمه ، وتخرج من الجامعة الأميركية ببيروت ، طبياً ، سنة ١٩٠٤ م . وكان ممن دخل في جمعية ((الاتحاد والترقي)) بعد الدستور العثماني ، فلما اتجهت سياستها إلى ((ترك)) العرب ناوآها .

ونشبت الحرب العامة (١٩١٤) فتواري ، منتقلا إلى العراق فمصر ، وأقام في القاهرة إلى ما بعد الحرب ، وعاد إلى سورية سنة ١٩١٩ م . وعيّن وزيرا للخارجية فيها سنة ١٩٢٠ . واحتلتها الفرنسيون بعد وفاة ميسلون (في العجزة نفسها) فعادها إلى مصر فأقام نحو عام ، ورجع إلى الشام ، فاشتترك في حملة للمصريين كراين (Charles Crane) الأميركي ، فاعتقله الفرنسيون وسجن في قلعة دمشق وبست الدين ثم في جزيرة أرواد سنتين وبقيته أشهر وأطلق سراحه ، فشارك في إنشاء حزب ((الشعب)) بدمشق ، وثارّت سورية سنة (سنة ١٩٢٥ م) وهم الفرنسيون بالقبض عليه ، ففر إلى جبل الدروز معقل الثورة ومنه

بسم الله الرحمن الرحيم

٧٩٨١٥
١٧٨٦٤١

يشتمل هذا الكتاب على الاقسام التالية :

القسم الاول : مذكرات الشهيد في السجن عام ١٩٢٢ وهي تتعلق
بقدوم لجنة كراين الى سوريا والاحداث التي جرت
عقب ذلك في البلاد .

القسم الثاني : مذكرات الشهيد عن الثورة السورية عام ١٩٢٥
عواملها ، وقائعها ، ونتائجها

الملحق : مذكرة الدكتور شهيد التي قدمها الى وزارة
الخارجية الفرنسية يسط فيها اسباب الثورة
واقراضها .

الى شرقي الأردن ثم الى القاهرة سنة ١٩٢٧ واختلف فيها مع
اكثر العاملين لاستقلال سورية من اصداقائه الاقدمين ، فتناولت
المصحف موقفه ، له وعليه ، وانصرف الى الاشتغال بالطب زمنا ،
ثم اراد الاستقرار في دمشق ، فعاد اليها سنة ١٩٢٨ ، فبينما كان
في « عيادته » دخل عليه ثلاثة اشخاص فقتلوه ، واعتقلوا واعدموا .
وكان يحسن الترجمة عن الانكليزية ، ونقل عنها الى العربية
كتاب « السياسة الدولية » طبع لديزل يورنس ، وكتب مقالات
في مجلتي المقتطف والهلال ، جمع بعضها في كتاب سماه : القضيايا
العربية الكبرى - طبع - وكان قد حاول فرض التمر في صباه
فنش له المستشرق الالمانى « كهمفير » في مجهوعته بعض ما نظم ،
وليس بشاعر .

★ ★ ★

الاعلام لخير الدين الرزكلي ج ٤ ص ٨٠ . ط - ٢ -
تقلا عن : مذكرات المؤلف وجريدة الفيحاء المشرقية ١١ شوال سنة ١٣٤٢
وجريدة الوفد المصري ١ جمادى الثانية ١٣٥٩ والاعلام المشرقية ١ : ١٤٥ .
واقرا ما كتبه عنه محمد كرد علي في « المذكرات » ٢ : ٤٤٤ - ٤٥٠

القسَم الأول

مذكرات الدكتور عبد الرحمن الشهبندر
في السجن عام ١٩٢٢

مقدمة

انتهت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) بانتصار الحلفاء على المحور فكان الفرح العظيم في البلاد المنتصرة بمقدار لا يوصف ، على انه كان بالنسبة للعرب الذين ساهموا مع الحلفاء في تلك الحرب يوما مشهودا طافحا بكمال الآمال ، ذلك لانهم كانوا لا يزالون مؤمنين بالعهود والوعود التي قطعها لهم حلفائهم ، ولا يفتأون يؤملون ادراك الاستقلال والوحدة .

ولكن فرحهم يوم النصر لم يلبث الا قليلا حتى انقلب الى خيبة ووجوم ، فما ان كشفت روسيا السوفياتية عن الاتفاقات الدولية السرية حول البلاد المنفصلة عن السلطنة العثمانية ، وفي مقدمتها اتفاقية ساكس - بيكو ، وعلما بوعده بالفور حتى ساوورهم القلق واصابهم الالام ، ولا سيما عندما اخذ حلفائهم يطبقون تلك الاتفاقات على اساس تقسيم البلاد وتوزيع الانتدابات عليها .

وابان ما اجتمعت الدول المنتصرة منذ حزيران ١٩١٩ في مؤتمر الصلح بباريس اوفد الدكتور وودرو ويلسن رئيس الولايات المتحدة الاميركية الى سوريا لجنة كينج - كراين لاستفتاء اهلهما قصد تنوير افكار المؤتمرين في باريس . فطافت هذه اللجنة في لبنان وسوريا وفلسطين ووضعت تقريرا لم يابه به الطغاة ، وانما وضع

سميل جيدر ١٥ سنة بكثرة الاصوات

منير شيخ الارض ١٠ سنوات باتفاق الاصوات

عبد الوهاب العفيفي ٢٠ سنة بكثرة الاصوات وهو مصري

الدكتور خالد الخطيب ١٠ سنوات باتفاق الاصوات

توفيق الحلبي ٥ سنوات بكثرة الاصوات

هذا وما ان صدر حكم المحكمة العسكرية بدمشق على السادة المشار اليهم وسيقوا الى سجن القلعة حتى انتفض الشعب ، واقفلت المدينة في ٢٠ نيسان ١٩٢٢ ، واستمر الاقبال اسبوعا كاملا .

وقد ساقوا هؤلاء السادة المحكومين الكرام الى سجن بيت الدين . وهناك كان الدكتور شهبندر يختلس الفرص لتدوين القسم الاول من مذكراته هذه التي هي من اثنى ما دون هذا الزعيم وكانت بلاغته في وصف الاحداث تأتي احيانا على سجيته ووصفا عاليا في بعض الاحيان ، وتتدنى احيانا اخرى بتأثير الوضع ، وخوف المراقبة .

وقد وقعت هذه المذكرات الثمينة بين ايدينا فرائنا من الواجب نشرها لانها جزء من سجل النضال الوطني من اجل الاستقلال .

واضعنا اليها مذكراته عن الثورة السورية كتبها تلبية لطلب الجمعيات العربية في الولايات المتحدة الاميركية ونشرت تباعا في بعض الصحف العربية آنذاك وافردنا لها القسم الثاني من هذا الكتاب ، وادرجنا بعد ذلك ملحقا يتضمن المذكرة الهامة التي قدمها الدكتور شهبندر الى وزارة الخارجية الفرنسية يسط فيها اسباب الثورة السورية واغراضها .

الناشر

بين المحفوظات في واشنطن لان كثرة السوريين اعلنت رفضها لكل انتداب وتقسيم . ثم اسفرت تلك المفاوضات الدولية في مؤتمر سان ريمو بمنح عصبة الامم في ٢٠ نيسان ١٩٢٠ الجمهورية الفرنسية الانتداب على سوريا ولبنان ، ثم عهدت اليها في ٩ ايلول ١٩٢٣ القيام بهذا الانتداب . وكانت الفترة التي تخللت هذين التاريخين تعرف بعهد الاحتلال العسكري . وخلال هذا العهد وقعت احداث كبرى في انحاء سوريا داخليا وساحلها رافقتها احتجاجات ومظاهرات وثورات وقيام دولة فيصل بن الحسين الذي يبيع ملكا على سوريا . ولكن الدولة المتنبذة استطاعت ان تذلها بالمال والحسام بيد انها لم تستطع ان تستأصل الروح القومية ، والاماني الاستقلالية ، ولا ان تنتزع الالام المبرحة التي كانت تكمن في النفوس .

وفي هذه الفترة من الزمن شاء المستر كراين الذي كان رئيسا للجنة كينج - كراين ان يزور سوريا وكان يعطف عليها ، فجاءها في غرة نيسان ١٩٢٢ بصورة خاصة لتفقد اصحابه فيها ، فكانت هذه الزيارة لدمشق مشجعة اهلها لاستئناف المظاهرات ، والاعراب عن شكواهم من الوضع ، وللمطالبة بالاستقلال وذلك بعد ان كان الركود قد سيطر عليهم مذ دخل الفرنسيون بلادهم بالقوة فاتحين ، وازاحوا عنها الدولة العربية الشريفة ، وعلى هذا الاعتبار تعد هذه الانتفاضة اولى الانتفاضات السورية بعد الاحتلال .

وما ان غادر المستر كراين دمشق حتى اقبلت السلطة على معاينة رؤساء هذه الحركة فالقت القبض عليهم ، وساقتهم في ٦ نيسان ١٩٢٢ الى المحاكم امام المحكمة العسكرية . وقد صدر الحكم عليهم . وهو يقضي بالسجن على مدد متفاوتة على الوجه التالي : السادة :

الدكتور عبد الرحمن شهبندر ٢٠ سنة بكثرة اصوات اعضاء المحكمة حسن الحكيم ١٠ سنوات بكثرة الاصوات .

كراسين في سورية

الحالة العامة قبل وصوله :

كانت البلاد السورية تتمخض بالحوادث ، بالنظر للخبية التي اصابته الناس من جميع الطبقات والمذاهب ، من جراء سوء الادارة الداخلية ، وزوال القومية ، واتساع الضائقة المالية والاقتصادية ، وانتقال عدوى الوطنية في عامة انحاء المشرق . وكان اكثر الناس تنتظر التطورات والحوادث بين عشية وضحاها خصوصا والحالة الدولية لم تستقر بعد على شكل ، الا ان الخاصة الذين كانوا يدرسون الامر درسا دقيقا لم يكونوا يتوقعون حصول هذه التطورات والحوادث الا بعد اشهر ، ومن كان منهم يتوقع حصولها كان يؤد تأخيرها كي يكون الشعب اكثر استعدادا بالروح القومية ، فاذا تحرك انما يتحرك بنظام لغاية محدودة وهدف معين .

كانت الاحوال على هذا النوال من الاضطراب وتبيل الببال ، ولكنها في الظاهر كانت هادئة ساكنة بحيث كان الاستعماريون يظنون الامور جارية مجراها ، ولم يخطر في بالهم قط ان هذا السكون انما هو السكون الذي يسبق العاصفة . كنت في مكنتي في صباح السبت الواقع في ١٦ نيسان سنة ١٩٢٢ اذ تناولت رسالة عليها طابع بريد يدل الختم عليه انه صادر من مدينة دمشق فقصصته فوجدته من الاستاذ نيكولي رئيس الجامعة الاميركية وتاريخه ٢٩ مارس ١٩٢٢ وفيه يقول لي :

وإذا بالمستر كراين واقف يأكل شيئاً من السكاكر الاجنبية فدعاني فاكلت معه ثم باداني الحديث بالطريقة الانكليزية السائدة المتروية التي تكاد تكون همسا كما ياتي :

انتي قدمت الى هنا بقضية التحقيق ، وذلك ان مجرى السياسة يتطلب اظهار تقريرنا المشترك الذي كتبناه مع اخواننا اعضاء اللجنة الاميركية التي استفتت بلادكم عام ١٩١٩ فهل كانت استخباراتنا صحيحة يا ترى ؟

اريد منك ان تجمعي مع اهل هذه البلاد ولا سيما العلماء « المشايخ » منهم ، لارى هل حصل شيء من التبدل في آرائهم ، وهل كنا مصيبين في اخبارنا التي جمعناها في تقريرنا ، فوعده بأن اجمعه في اليوم التالي بنخبة من الاهلين بالساعة الثالثة زواية ، ثم سألته هل هو بحاجة الى من يلازمه في الصباح فقال كلا لانه عازم على صلاة الاحد في الكنيسة الساعة العاشرة حيث يجتمع بعض المسيحيين ممن يود استطلاع رأيهم واستكشاف فكرهم . وقد كنت في جميع اسئلتي حرصا على الالتقاط من فمه كل ما يهمني امره من الجريات المتعلقة بتقريره الذي (وضع) في وزارة الخارجية الاميركية ، وعلى ان اعلم ماذا فعل الله بمساعيئه التي تحاول السياسة العاشمة اخفاؤها ، وكأني رأيت على وجهه من امارات النعيب من وعد الطريق ما حدى بي الى مفارقتة على امل اللقاء في اليوم التالي واستيعاب سائر اخباره . وعلى كل حال قنعت من مجرى الحديث بحدوث بعض الطوارئ المهمة في مجاري السياسة المشمية المتعقدة التي لا تستقر على حال . ودعته وانصرفنا وما حطت رجلي في المركبة الا وَاخذت انظم جداول الاعمال ، وافكر في مواجهة الاتقياء من رجال الكنيسة قبل ان يلتقي بهم وتهيئة الاجتماع المعين والتفتيب عن رجال فيهم الكفاءة لقرع الطبول الخفية على الاذان الحساسة بحيث يتسنى لنا اجتماع الكفافية وزيادة .

انه تناول برقية من المستر كراين يقول فيها انه قادم في اول نيسان سنة ١٩٢٣ الى دمشق لرؤية اصحابه الذين عرفهم فيها عام ١٩١٩ ، وهو يرجو من الدكتور شهنشدر مقابلة المستر كراين ومساعدته على تحقيق غايته بالاجتماع الى هؤلاء الاصحاب وانه سيحل في فندق داماسكوس بالاس .

فقرات من بين السطور ما سمحنت لي مخيلتي ان اقرا ، وعجبت من صدور الرسالة عن دمشق في حين ان كاتبها موجود في بيروت ، وقلت في نفسي على كل حال هذه فرصة لا يسمح الزمان بمثلها ، وان الحكيم لا يتحين الفرص فقط بل يخلقها ، وان سلاحا تعلق به الولايات المتحدة ولو من طرف بعيد ، هو سلاح قاطع ومشجع .

وصول كراين الى محطة الحجاز :

ركبت سيارتي في المساء الى نزل داماسكوس بالاس ، فسالت عن المستر كراين فقبل لي انه قادم في قطار حيفا وان الحجرة رقم ٢٣ والحجرة التي بجانبها محجوزتان لامره ، ولما رأيت ان مجيء القطار قد ذهب الى المحطة ، وما كدت اضع رجلي على سلمها حتى سمعت صفير القطار فدخلت فوجدت المستر كراين نازلا ومعه المستر برودي كأنهم سره ، فتقدمت اليه وحمقت في وجهه فوجدت نفس الرجل الذي كنت رأيتة في يونيو سنة ١٩١٩ ولكني رأيت وجهه اكثر تجمدا وقامته اشد اعوجاجا ، وتقدمت اليه وناولته بطاقتي وقلت له ان الاستاذ نيكولي كفني ان اقابلكم ، فلما نظر الى المسيو برودي التفت اليه وذكره في اجتماعنا الماضية فهش كثيرا وقال لي مبتسما هل تستطيع ان تقابلني بهذا المساء الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين فأجبتة بالايجاب .

لقاء في الفندق :

نقرت باب الحجرة الثالثة والعشرين في الوقت المعين فسمعت صوتا هادئا يقول تفضل فدخلت

نيكولي اخذ يتسهم واطهر انه عرف كل شيء من الاسرار واخذ يأتي بالحجج الدامغة (القانونية) على تصنع تلك الرسالة بداعي انه كان قد تناول رسالة مثلها وانها كذبة نيسان ، منها ان التوقيع لا يشبه توقيع الاستاذ ، وان لفنها الانكليزية فيها من العبارات ما لا يقوله الانكليز ، وان الطابع البريدي مدموغ في الشام فقط مع ان الرسالة صادرة من بيروت (هذا بالعكس مما يدعو الى النظر بشدة والاهتمام) . اجبت ان اكتب ملاقني للمستر كراين في المحطة حتى نهاية الحديث لارى نتيجة البحث مع النظريات المجردة التي لا يحتاج تحقيقها الا الى جهد قليل او ذهاب الى المحطة او زيارة في المنزل . ولما اعيتني العجلة قلت يا سيدي انني رايت المستر كراين بعيني في المحطة وان الرجل مقيم في الصخرة ٢٣ من نزل داماسكوس بالاس ، وما عليك اذا كنت لا تزال على نظرية كذبة اول نيسان الا ان تذهب معي الى النزل لتحقق بنفسك ، فظهر بعد العناء الشديد شيئاً من الايمان على قواعد الشك ، وهكذا ودعته وانصرفت وانا اقول بنفسي (حتى انهم يستبعدون زيارة المستر كراين لبروبك في هذه الايام المصيبة !) .

خلاصة المطالب الوطنية :

عدنا في نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل الى الصالحية حيث اوصلت السيد رشيد بقدوننس الى داره . وفي صباح اليوم الثاني جاءني محمد بك اسماعيل فقصمت عليه ما جرى ، وطلبت اليه ان يواجه حسن بك الحكيم مدير البريد والبرق في الحكومة الوطنية ومعي الدين بك صادق قائد الوقع ويطلب موافقتهما في العمل والحياء الى الاجتماع في المنزل في الوقت المين ، وبعد نحو ساعة جاءني محي الدين بك صادق وهو يخشى ان تكون لعبة نيسان ايضا . فطلبت منه ان يذهب الى النزل ويرى المستر كراين بعينه ، فذهب وبعد هنيهة عاد ومعه السيد حسن الحكيم فذكرت لهما اني افضل ان يكون الاجتماع في حديقة الشرباتي في زقاق الحيات على

انصالي بالوطنيين :

لم ارجع الى داري بل سرت توا الى دار محمد بك اسماعيل الطباخ قائد فرقة حلب ايام الحكومة السورية فلم اجدته ، فذهبت منها الى دار ياسين باشا الهاشمي فلم اجدته ايضا ، فطلبت دار السيد عثمان الشرباتي الناجر الوطني المعروف المتحرك فقبل لي انه في دار البسام ، طرقت باب دار البسام فخرج لي الخادم فقلت له بلغ السيد عثمان ان بشيرا ينتظره في الباب ، فحالما رايت السيد عثمان عرف عن امر ذي بال جرى في تلك الليلة ، فاخذني الى دار عثمان (زوج) اخته السيد رشيد بقدوننس حيث قضيت ساعة شرحت لهما فيها حديث المستر كراين وبينت لهما الواجب المحتم عليهما بتلك الليلة ، بحيث كلقت السيد عثمان ان لا ينام حتى يهيء خطة لمواجهة احد الذين يذهبون الى الكنائس في الاحاد عادة فقام ، واذ كنت في المركبة خطر في بالي ثلاثة اسماء : عبده الاحيل والسيد انيس سلوم والسيد فارس الخوري على قلة صلواته الا للضرورات .

مع فارس الخوري في منزله :

وصلت الى دار الاخير منهم فطرقتها فوجدت الجميع نائمين ، ولكن ما زلت اترع الباب حتى انتهت الخادمة فأخبرتني انه مع اخيه فائز بك يقضي السهرة في النادي ، فكلفتها ان توصل اليه الرسالة الاتية : « اخي العزيز فارس بك ايتيك للمشاركة بشأن احدي المسائل المهمة المتعلقة بمهنتك السياسية بالطبع فلا تؤاخذني على اقلاق وراحتك وانا انتظرك في البيت سيدي » . وبعد بضع دقائق عادت الخادمة وقالت الان يأتي ، ولكن الذي اني هو فائز بك فسألناه عن فارس بك فقال انه نائم في حجرته ثم دخل عليه فأيقظه ، ودخل علينا بقميص نوم وعليه عباءة بنية ولم يخف تعجبه من هذه الزيارة الغير منتظرة ، فلما فأنحته بحديث رسالة الاستاذ

من الحجيرة الضيقة فقبل مع السور فزلنا الى المركبة وصلنا الى الحديقة بسحان الحيات بعد الساعة الثالثة حيث وجدنا لفيفا كبيرا من العلماء والادباء والتجار والاعيان وارباب الاموال والمرارعين فلما راونا استقبلونا بالتصفيق والتهاتف فقمنا بينهم وكان مع المستر كراين كاتم اسراره المستر برودي .

سال المستر كراين المجتمعين عن صحتهم وهل هم لا يزالون على الاراء التي اطلعوها عليها يوم اتى مع اخوانه عام ١٩١٩ لاستفتائهم فاجابوه كلهم بصوت واحد ، لانهم لا يستحون ان يعترفوا بأنه حدث تعديل مهم فيها بعد هذه الاختبارات العظيمة التي عاوها منذ بدء الاحتلال ، وهذا التعديل والتطورات تجمعه جملة واحدة مختصرة وهي التشدد بكل الوسائل بالمطالبة بتلك الرغائب .

الشيخ احمد المصاحب يتكلم عن مقبرة البرامكة :

ومما يحسن قوله ان الذي فتش باب الحديث شيخ مشهور في دمشق التمام له اداور في السياسة معروفه منذ الايام الحميدة ، واعظم دور لعبه في اواخر الحكومة العربية اذ وضع يده بيد الفرنسيين فخدمهم اجل الخدمات واظهر من التماسح معهم على مركزه الديني والارشادي ما صار مثلاً مشهوراً في انكار الذات وهذا التماسح هو الشيخ احمد افندي المصاحب شيخ طريقة النقشبندية .

اخرج من جيبه اوراقاً فقرأها فاذا هي وثائق رسمية مرت على الحكومة وفيها التشكي من امر فطيع حدث في مقبرة البرامكة المشهورة ، حيث دفن كلب لضابط افرنسي بقبر احسد ائمة المسلمين ، وبنيت مراحيض للجنود السنغالية قبل ان اخرجتهم فتاثر المستر كراين تأثراً كبيراً . ثم امر كاتم اسراره ان يدون هذه الملاحظة في مذكرته فدونها ، وانا تناولت الوثيقة وحفظتها له في جيبى الى يوم سفره فقدمتها له ثم قلت ان الجبانة ليست بعيدة

طريق الصالحية بدلا من ان يكون باليزل خشية مفسد الجواسبس ورسائس الحكومة ، فاستحسننا هذا الرأي . واخيرا اتفقنا على ان ندعو افاضل البلدة على اختلاف المذاهب والمشارب ولا سيما رجال العلم منهم ، فودعاني وانصرفت وعلمت بعدئذ انهما ذهبا توا الى دار السيد تاج الدين الحسيني فواجهناه بعد عشاء ، ومن ثم اجتمعنا بكثير غيره من الرجال المعروفين بوطنيتهم ، فوصلدوا جميعا ان يحضروا بالوقت المعين . اما انا فقد ذهبت الى حديقة لارى تهيئة الاجتماع بنفسى فاجتمعت هناك بالشيخ كمال يحيى والشيخ عبد الحميد العطار والشيخ عبد الله الكزبري وصاحب الحديقة السيد عثمان الشرباتي ، فتذاكرنا بالمطالب التي يجب عرضها على المستر كراين واظهار رغائبنا بصورة جلية ، فاتفقنا على انلقط الثلاثة الآتية : الاستقلال التام - والوحدة السورية العربية - وترك الخلافة في بني عثمان .

هذه الرغائب كانت ولا شك ضالة الجميع ولم يختلوا الا قليلا في مسألة الخلافة لانهم يريدون ان تكون في حوز من اخطار الغرب ، وهم يعلمون حق العلم ان البلاد التي يكون رئيسها آلة بيد دولة غريبة تتصرف به كما تشاء وان مملكة مؤلفة من قرى لا تتجاوز عدد الاصابع لا تستطيع ان تمثل الاسلام وان يكون خليفة لثلاثمائة مليون من المسلمين . والمسألة من اولها الى آخرها مسألة قوة وعظمة واستقلال ، فحيثما وجدت دولة اسلامية قوية عظيمة مستقلة عربية كانت ام اجمعية ، فسان انظار الدول الاسلامية التي هي اضعف منها توجه نحوها ويكون الرئيس عليها بطبيعة الحال موضع آمال الاسلام ومحط ثقته .

اجتماع كراين بالوطنيين في منزل عثمان الشرباتي :

عدت الى بيتي وفي الوقت المعين ذهبت الى المنزل فينت للرائر الكريم فكرة الاجتماع في الحديقة بدلا

الانتقال من البلاد الى الجنوب حيث سيجدون لمصنوعاتهم سوقا لا يراحمهم فيها احد بسبب تلك الحواجز .

انور البكري يتحدث عن الزراعة :

وقال انور افندي البكري من كبار المزارعين :

ان ايرادنا لا يكفي لتأدية الضرائب الموضوعه علينا ، وهذا حال سائر المزارعين ايضا في هذه البلاد . وانا نخشى اذا سارت الامور على هذه الحال واضطرنا لبيع املاكنا لا يبقى معنا بعد حسم الاموال الاميرية منها ما يكفي لتؤسس عملا جديدا لنا في البلاد التي تأمل فيها الراحة . فرغبتنا اليك ايها الزائر الكريم والسيد الجليل بصفتك من اهل المكانة السياسية في بلادك ان ترجو لنا بلساننا من حكومة الولايات المتحدة ان تسهل لنا منذ الان سبل الهجرة وتفتح لنا بابها كي نفعل في الجلاء ونصل الى العالم الجديد وفيما رفق .

حسن الحكيم يشح سوء الاوضاع المالية والاقتصادية :

ثم تناول الحديث السيد حسن الحكيم من الوجهة المالية وافاضوا بدع ولم يترك زيادة لمستزيد . ومما قاله : تكلم كثير من اخواني الحاضرين بشأن الضرائب التي اثقلت كاهل الاهلين وانوا بالامثلة الكثيرة على سابقتها وحاضرها وبالنظير لما تيسر لي من الوقوف على ميزان حكومة دمشق عام ١٩٢٢ فسأعرض على مسامح المستر كراين الدواعي التي سببت تلك الزيادة الفاحشة في الضرائب :

من القواعد المقررة في العلم ان تراعى انشاء تنظيم الميزانية الاحوال المالية والاقتصادية والسياسية خصوصاً متى كانت في دور التأسيس اما الميزانية التي نظمها المستشار المالي وقدمها الى مجلس المديرين فصادق عليها والتي ارسلت بواسطة البعثة الى المفوضية العليا لاجل التصديق ايضا فانها لم تنظم على الاسس المذكورة بل

كثيرا واقترحت عليه ان يذهب اليها بعد انفضاض المجلس ليرى بعينه صحة الخبر المؤلم فقبل مع الشكر .

حسام العمري يشكو من الضرائب :

ثم جرى ذكر الضرائب فانبرى حسام الدين افندي العمري احد التجار المعروفين فذكر ان والده كان تاجرا منذ عشرات السنين في دمشق ، وانه في مدة ثلاثين سنة لم يؤد للحكومة من ضريبة التمتع ما تجاوزت قيمته كل سنة خمسمائة قرش ولكن ابنه (اي هو) ادى هذه السنة سبعة عشر الف قرش باسم هذه الضريبة . وقال : اذا دام الحال كذلك ، على هذا المنوال من استيفاء الضرائب الباهظة مع وقوف دولاب التجارة والعمل ، فان البلاد سائرة الى الخراب لا محالة .

واردف قائلا :

« اذا رايت ايها الزائر الكريم بعضنا لابسا اردية هذه السنة فان الزمن الذي نبيع فيه هذه الاردية ليس بعيدا واضاف الى ذلك قوله : ومما اقصه عليكم الان ، ما جرى معي وانا قادم الى هذا الاجتماع ، اذ بينما كنت ماشيا على الرصيف مع اخي حسني تسترا من الرذاذ المنهم ، اذ شعرت بصفعة على ام رأسي من ورأيي ، فالتفت ، فاذا بضابط فرنسي يقول لي :

« لماذا لا تتول الى قارعة الطريق كي امس انا على الرصيف ؟
الم تعلم اننا ما ايننا هذه البلاد الا لنعلمكم الادب » .

فصمت هنيهة وانا انظر اليه برفع ، واخيرا قلت له :

« بورك لكم هذا الادب ، وانصرفت في طريق » .

قام بعده السيد عثمان الشرباتي وبين الاضرار البليغة التي اصابت البلاد من وضع الحواجز الجمركية ، وذكر ان هذه الحواجز ستحمل قسما كبيرا من اصحاب الحرف كالحياكة والصباغة على

بعد والوارد ما لا ينضب ، وخصصت للموظفين الرواتب الباهظة التي لا يتيسر لهم الحصول عليها في اي عمل آخر ، ومما ساعد التجاء الناس الى الوظائف مع كرههم للادارة وقوف الحال وكساد التجارة ووار الزراعة بسبب تمزيق وحدة البلاد واقامة الحواجز الجمركية والسنوية بينها

ثالثا - لم تكف الحكومة بتعيين الرواتب الباهظة للحاكم والمديرين فحسب ، بل خصصت لكل واحد منهم وللمتصرفين في الولاية ايضا سيارة تبلغ نفقاتها السنوية نحو الفيرة سورية كما يتضح من الارقام الاتية :

ل.س.

- ثمن سيارة ونفقات تصليح ٨٠٠
- ثمن بائرين ٤٠٠
- راتب المسائق السنوي ٧٢٠

١٩٢٠ ليرة سورية في السنة .

هذا عدا نفقات الكاراج ، ورئيس الكساراج وحده يتناول ١٢٠٠ ليرة ، وقد خصصت الى الحاكم علاوة على ما تقدم ٨٥٠ ليرة باسم نفقات السفر والانتقال و ٤٠٠ باسم نفقات الاشتراك بالجراند مع انه لا توجد حكومة في العالم تقدم على مثل هذا الاسراف الغريب من تقديم سيارات ، دع عنك بدلات الاشتراك في الصحف . وحسبنا ان تقول في هذا الصدد ان نفقات السيارات بلغت نصف وثلاثين الفا من الجنيهات السورية ، على ان الانصاف يقضي علينا بالاعتراف بان هذه السيارات وان كانت في المظهر هي للمديرين والمتصرفين الا انها في الواقع وقفا للمستشاريين يستعملونها ان شاؤا وحيشا ارادوا .

رابعا - وضعت كمية كبيرة من المال باسم اعمال عمومية مثل

بنيت على غايات الحكومة المتعسبة واغراضها ومصالحها ، لذلك تضمنت ارقام الخرج فيها فكانت سببا لتريد منابع الدخل بزيادة الضرائب سدا لتلك النفقات التي تنمو ليجملها اليوم هذا الشعب الفقير وعلينا الان ان نورد الامثلة المثبتة بالارقام التقطية الدالة على ما ذكر من الاسراف والتبذير وهي كما يأتي :

اولا - رأت الحكومة الفاصبة ان تحول دون فكرة الجامعة العربية فبرقت وحدة البلاد التي هي من عرف واحد ولفتة واحدة ولها اخلاق وعادات واحدة وعددت الادارات المركزية والمصالح الخاصة في المقاطعات ، ومثلها الفروع التي تتألف منها الحكومة المذكورة فكان ذلك سببا كبيرا في زيادة النفقات في كل منها ، وحسبنا ان نقول في هذا المقام على سبيل المثل ان راتب الحاكم في دمشق ٣٩٠ ليرة سورية مشاهرة وزائب كل من مديري الداخية والمالية والعلمية والاشغال والمصارف ٢٦٠ ليرة وكل من مديري الصحة والشرطة ١٦٠ و ١٤٠ ليرة سورية على ان هذه الحكومة سمعتها في الاراضي اليوم لا تكاد تبلغ نصف ولاية سورية ايام الحكومة العثمانية وهي تلك الولاية التي كان يديرها وال لا يتجاوز راتبه الشهري ١٥٠ جنيها عثمانية ، معه رقيم (دفتر دار) راتبه من ٤٠ الى ٥٠ جنيها ومديرو دوائر تتراوح رواتب الواحد منهم بين عشرين وثلاثين جنيها فقط .

ثانيا - عرفت الحكومة الفاصبة ان العظيمة الثورة التي تستطيع الدفاع عن حقوق البلاد والاهلين بالطرق القانونية واحداث

الفضيحة الضرورية لدى الاسم المتعددة هي الفسدة المتعلمة اجمالا ، والموظفون بطبيعة الحال ، فسمعت لكم افواه هؤلاء بالشهوة المستورة والتجيب اليهم بطريقة الكرم الكاذب ، لذلك فتحت لهم باب الحكومة على مضراميه فاحدثت للادارات والمصالح المتقدمة ما شاءت من دواوين وفروع ومجالس ، وهكذا الفت حكومة تقرب في مظاهرها من الحكومات الكبرى التي لها من الاراضي ما لا يحصى والنزوس ما لا

الجزائري وقد لهذه الاهانة واحتج على الحكومة لسوء تصرفها ، وذكرها ان اوروبا التي أصبحت نورا في هذا العصر ما اهتمت قبور رجالها . بل كثيرا ما جعلت هذه القبور اثرا تستهض به همهم الاحياء وتستحثهم بالكافاة كمثلته بعد المات . وبعد اخذ ورد جاءت الاوامر من الاستانة بضيانة تلك الجبانة ، فقام بهذا العمل ناظم باشا الوالي فبنى لها حائطا من الحجر الابيض الصلب وحدث بجانبها المستشفى المذكور وجعلها حديقة من اجمل الحدائق .

زيارة ضريح ابن تيمية :

دخلنا الجبانة والحديقة من غير ان يشعر بنا احد ، وسرنا بالمستر كراين الى جهة ضريح ابن تيمية ، فرأيت ولدا صغيرا يعرف الحديقة ، فقلت له : اين القبر ؟ فقال من نفسه : قبر الكلب ؟ فقلت : نعم ، فإشار بيده وقال : هناك ، فترجعت للمستر كراين ما ذكره الولد وقلنا له سر معنا للتفرج عليه فسار ولما صرنا بجانب القبر شعرت بهزة تمشت في جسمي ، وقرأت على الشاهدة هذه الكلمات : (شيخ الاسلام تقي الدين احمد بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨) . هنا يرقد النابغة الذي تقلبت عليه السياسة والحسد والجمود فزجت به في سجن قلعة دمشق حيث مات بعد بضعة اشهر . وعلى قيد شبر في ضريح آخر لعالم كبير اسمه ابن كثير دفن الافرنسيون كلهم بعد ان نبشوا قبر المؤمن وبشروا عظامه فاصبحت كالهشيم تذروه الريح . هل ضاقت دمشق على رجبها حتى اضطرت المفتضون الى اغتصاب قبور الائمة لتكون مثوى الكلاب ؟! رأى المستر كراين تلك المناظر المؤلة وسمع بأذنه شرح الطفل وكيف دفنوه في القبر المنبوش واطهر اشمئززا عظيما وطلب من المستر برودي ان يقيد جميع تلك الملاحظات . ومن ثم خرجنا واجبين صامتين ، فودعته وانصرفت بعدما تواعدنا للقاء في التزل في الساعة الثامنة من اليوم الثاني .

تعبيد الطرق وبناء ثكنات للدرك وإنشاء تلافيف لاسلكي في تدمر وغير ذلك من الاعمال التي ظاهرها الثمرة للحكومة والشعب وباطنها نفع الحكومة المفتصبة واملاء جيوب ممثليها وجيوب الوطنيين الذين لا يعرفون الوطن الا ببقية ما يدخل في الجيوب .

وبخلاصة ان البلاد اليوم سائرة نحو الخراب والدمار لان ثروة الامة تذهب خسارة استهلاكا في سبيل الضرائب لا محالة .

وقام السيد عثمان الثرباني وتكلم عن الاضرار التي اصابست البلاد من الوجهة التجارية ، وقام السيد انور البكري وبين احوال الزراعة المتأخرة فقام بعد ذلك المستر كراين وقمنا معه والناس بين صامت من شدة تأثيره من الاحاديث التي جرت وبين مشيع ومودع ، ولما خرجنا الى الجادة وجدنا على الرصيف ثلاثة من الجواسيس فروا عند رؤيتنا بعدمساعرفوا وجوهنا .

اخبرت الحوذي ان يسير الى البرامكة لزيارة مقبرتها ، وعند بلوغنا تكية السلطان سليم طلب المستر كراين ان يزور هذا الاثر النفيس فنزلنا ، وبعدما متع نظره برؤية الصحن والرواق المعمد الذي يحيط به وحرما ومنارتها الرفيعة القائمتين على جانب قبتها والمائتين من تصرفات الزمن بعض الليل ، رجعنا الى المستشفى الوطني حيث دخلنا الحديقة التي كانت في الاصل جبانة البرامكة : وحديث هذه الجبانة انها كانت مأوى لاشهر رجائنا في القرون الوسطى فمن دفن فيها من اهل العلم ابن عساكر صاحب التاريخ الكبير وابن الصلاح والعز بن عبد السلام وابن تيمية وغيرهم ممن كانوا نورا للهدى ايام كان الغرب يتخبط في داج من الظلم . فلما باشرت السكة الحديدية بين بيروت والشام اعمالها في اواخر القرن الماضي أصبحت هذه الضيانة طريقا عاما ، والقبور التي فيها عرضة للمركبات والنقلات فقام استاذنا العلامة الشيخ طاهر

دعوة غداء في بستان القمصاع في حي الرينينة فلم يقبل ، فقلت له : انظر قليلا حتى ادعوه انا ، فلما دعوته سألني هل هذا الوجبة من المعروفين في دمشق ؟ فشهدت له الشهادة الالفة به فقبل وتواعدنا على أن آتيه في اليوم التالي الساعة الثانية عشر للذهاب معا . وقد اقترحت أن يكون الاكل وطنيا اما الاجتماع في حي الميدان فقد جرى كما يلي :

وهو انني ذهبت ويايه في الساعة الثالثة الى بوابة مصر حيث كان بانتظارنا على الجادة حسن بك الحكيم وغيره من اخواننا ، فدخلنا في طريق ضيقة حتى وصلنا الى بستان الاخ المذكور فوجدنا بانتظارنا نحو مائة من الاعيان والادباء ورجال الفضل وقيسلا من عامة الشعب على الحالة النظرية الساذجة وجل الوجودين هم من أهل الميدان ، فلما رأوا المستر كراين استقبلونا استقبالا شائقا جدا بالاهلزيج القومية والاناشيد الوطنية والتصفيق المتواصل ولما استقر بنا المقام اخذ الجلوس يقصون عليه طرفا مما يعانون ، وابتدا الكلام سعيد بك حيدر بحديث ممتع قانوني مستندا الى الوثائق وخلاصة قوله : « لانني محام فسأبدا كلامي بما يتعلق بمهمتي من الامور الحقلية . ان من اهم دعائم الحكومات هي الادارة العدلية اذ عليها يتوقف توزيع العدل بين الناس ولقد حدث بهذه الادارة بعهد الافرنسيين امور يحذرهما القانون » . واتى بأمثلة كثيرة منها مسألة القتل عمدا في حمص وتبرئة القتال من قبل البعثة ومسألة الجامعة وتخليصه من الاوقاف بأمر من المستشار في حمص ومسألة ثالثة تتعلق بالبدوي والحضري في لواء حماه وذلك لصالح الحكومة الافرنسية فقط لتقترب من مشايخ وأمرء العرب منهم امير السمود . ولما اخبرناه أن سعيد بك من بعلبك قال : « أنت بنيت حيطان القلعة ؟ ووضعت ذلك الحجر الكبير ؟ » ثم تكلم بعده السيد عبد الفني افندي الحسن احد تجار الطحين فأظهر الخطر الذي يهدد أهل حرقة وذكر انه يوجد في دمشق الشام

زيارة الميتم السوري :

لم يحدث يوم الاثنين ٢١ نيسان ما يستحق الذكر سوى اننا ذهبنا الى الميتم السوري ، الذي كانت مديرته السر فيشر وهي سيدة اميركية اهتمت بالمسألة السورية كثيرا ، وكانت تعطف على الامير فيصل واخيه الامير زيد عطفا صميميا ، وبعد الاحتلال الافرنسي اشار عليها الفنصل الاميركي بمغادرة البلاد لما قد يضمه عليها الفرنسيون من البغضاء . ومما يسجل لها انها شوقت الناس الى لبس الالبسة المزرعية والمريئة على الطريقة الوطنية . وبعد سفرها تسلمت الانسة اليس قندلفت وظيفتها فقامت بخدمة الميتم احسن قيام . وقد شاهدت مع المستر كراين عملها فشكرنا لها اهتمامها ونشاطها والنظافة البادية على تلميذاتها . ويضم الميتم السوري البنات اليتيمات اللاتي تترواح اعمارهن بين الخامسة والثانية عشرة ومن يصرفن جل اوقاتهم في تعلم القراءة والكتابة والتطريز وعمل السجاد على الطريقة العجمية . وقد وجدنا بينهن بعض بنات كن في مدرسة بنات الشهداء فأظهرن لنا عطفا عظيما على تلك المدرسة ورؤيتها نازك العابد ثم قمنا امامنا يعملن الرياضة البدنية على ايدي طبيب روسي اني دمشق هو وزوجته الطيبية ايضا فرارا من البولشيافك ، فكانت المدرسة مع ما تحدته بانفس من بهجة النجاح تعيد الى الذاكرة الحوادث المؤلمة التي جرتها الحرب الفاصلة على البلاد . وقد تواعدنا بعد ذلك والمستر كراين على اللقاء في اليوم التالي الساعة الثالثة وهو موعد اجتماع الميدان .

كراين يزور حي الميدان :

في ٤ نيسان سنة ١٩٢٢ وفي صباح الثلاثاء اتاني بعض اهالي الميدان وكلفوني أن ادعو لهم المستر كراين للاجتماع به ، ومحادثته ، فكلفته في الصباح ، فقبل ان يذهب الساعة الثالثة بعد الظهر ، وكان عنده السيد ابو الخير الموقع فقال : انه مكلف المستر كراين الى

الشهداء للاجتماع بالمستر كراين في بيت المرحوم السيد شمكري العملي . فاجتمع بهن وطيب خاطرهن وسمع منهن مرة ثانية تلك الرغائب الوطنية والآمال القومية التي بذل الشهداء انفسهم على احواد الشانق في سبيلها ، فكان اجتماعا مهما تجلت فيه تلك النهضة الشريفة المباركة في نساءنا ، وقد تقدمت زوجة المرحوم رشدي بك التهمة شهيد القضية العربية الى الزائر الكريم بوجه وشفتين مرتجفتين من فرط التأثر وهي تقول : لم يمت رشدي بك الا لاجل سلامة الوطن وان هذه المحن التي تش منها توجهه في جدهم فان لم تترفقوا بالاحياء ياسيدي بالله ترفقوا بالأموات ولا توجعهم في مضاجعهم . تأثر المستر كراين من هذه الجمل جدا ، وزادني تأثره السكوت العميق الذي اعقب ذلك بحيث كان يقرأ على الوجوه الصامتة ما تعانيه الانفس من الآلام . ومن قرأ اخبار الاستفتاء عام ١٩١٩ يوم سمع المستر كراين نفسه ما جاءت به عواطف الامة السورية يذكر ولا شك تلك الجلسة الرنانة التي عقدها حـسـرـم الشهداء وكان لعقليتي الشرف ان تكون بينهن ، فأبدى من الوطنية الصادقة ما بقي مسجلا بتاريخ سورية بمداد من الفخر . قالت احداهن يومئذ : « لاتخرجونا من صوت الحرية وتلقونا في مهاوي الاستبعاد ، ان حياتنا تكون عبثا ثقيلنا اذا كان رجالنا ارقاء ، لان زوجة الرق لا يحق لها ان تكون سيدة في بيتها . »

زيارة مصطفى باشا العابد وابنته نازك :

خرجنا من بيت المسلي وكنا على موعد مع الأنسنة نازك العابد في بيت والدها فذهبتا إليه توا حيث وجدنا والدها وأخاها وابن عمها بانتظارنا . وقد سألهما المستر كرايين عن مدرسة بنات الشهداء التي كانت رئيستها ما فعل الله بها . فقصت عليه طرفا مما أجراه مدير المعارف محمد افندي كرد علي يوم اغلقها قالت : باغت رجال المعارف في العشرين من شباط سنة

أحد عشر معمل للطليحين مع نحو مائتي مطحنة حجر وطنية . والان اذنت الحكومة الافرنسية لشركتها فرنسية ان تؤسس معملا (فابريك) فمتى انتهى بناءه ماذا يكون مصير أهل حرفة الطليحين والابوابك والعمال وغيرهم ؟ ثم تكلم بعده أبو راشد حافظ من بني الحكيم بخصوص الوعود التي قطعت للعرب ، ثم الخيانة الكبرى بعد ان تم الحلفاء النصر فتنى على كلامه السيد صادق الرجال أحد التجار النبهاء . ثم نهض الدكتور خالد الخطيب أحد الأطباء النابهين وابن الروحوم محمد بك الخطيب المعروف بوطنيته الصادقة فالتقى بعض الكلمات بين فيها مطلب الامة وهي تختصر في السواد الثلاثة الاتية :

١ - الاستقلال

٢ - وحده سورته في حلف عربي .

٣ - ترك البت في الخلافة للمسلمين .

فهي من شؤونهم الخاصة . وبعدده قام السيد عبد الله النجار أحد اعضاء الرابطة الادبية في دمشق فألقى بعض كلمات بالانكليزية لا تخرج عما تقدم . وهنا انفض المجلس بين تصفيق المصفيين وهتاف الهافيين الذين حملوا المستر كراين على الاكشاف وطافوا به في الحديقة . ولما خرج ودعوه الى الطريق حيث وجدوا زمرة من الجواسيس فروا عند تعارف الوجوه . ولكن السيد حسن الحكيم تقدم اليهم وقرعهم على هذا العمل المشين . وقال لهم لماذا لم تدخلوا لتروا بأعينكم وتسمعوا بأذانكم الاحاديث التي جرت وبذلك تتمكنون من القيام بوظيفكم الجاسوسية بصورة صادقة لا غبار عليها ؟ فانهم موا من وجهه متظاهرين بالحياء والخجل ولكن بواطنهم لا يعلمها الا الله .

اجتماع کراچی بنسواء الشہداء :

خرجنا من الميدان توا الى المهاجرين حيث خرجت نساء

ولكن بلغها من بعض القناصل انها مضطت . وجرى في اليوم السابق ان المستر كراين بعد زيارته الميتم السوري فاتحني في عزمه على انتقاء آنستين من أوانس سورية للذهاب الى امريكا للتعلم على حسابه ، فاستحسننت هذا الرأي وشكرت له عواطفه الشريفة وذكرت له اسم الانسة آيس قندلفت واسم الانسة نازك العباد ليكون حظ المسلمين والمسيحيين من معونة أهل الفضل واحد . قبل اقتراحي وفي المساء فاتح الانسة نازك بالأمر فظهرت رغبة شديدة ولكن والدها اظهر شيئاً من التردد واستمهلها في اعطاء الجواب القاطعي بضعه ايام . ربما كان للتقاليد الاسلامية الشرقية الشئان الاكبر في التردد . واما السيدة آيس فانها قبلت الاقتراح هي ووالدها مع الشكر ، وقد قال المستر كراين انه يصعب عليه ان لا يرى بين العرب من تضارع تلميذته التركية خالدة اديب خانم ، ثم ودعت المستر كراين .

كراين في بستان القمصاع :

وفي ظهيرة اليوم التالي وهو يوم الاربعاء في ٥ نيسان صحبته الى بستان القمصاع لحضور دعوة الغداء فكان البستان روعة غناء تغلب الانظار . وبعد هنيهة قال ليس شيء في الدنيا يشبه حدائق بخاري مثل هذا البستان والدكوك الترابية من حوله . انه يعيدني طرا الى ذكرى الماضي وعهد الصبا يوم زرت تلك المدينة منذ ٤٥ سنة وتعرفت على علمائها واطلعت على فضائلهم الفريدة ثم انحنى فاقطف زهرة من بين رجليه وشمها وقال أريج زكي وتربة صالحة . دخلنا الدار . فاستقبلنا ليف من افاضل القوم وعليتهم يتجاوز عددهم الخمسين منهم المحافظ المشهور ، الشيخ محمد الطواني ، والشيخ عيسد القادر الاسكندراني ، الداعية المعروف ، ويحيى جاني ، قائد منطقة حمص (وكان اركان حرب في الجيش العثماني) وباسين باشا الهاشمي رئيس ديوان الشورى الحربي ، وعبد الحميد باشا

١٩٢١ الساعة التاسعة ليلا مدرستنا (نور الفيحاء) ومهمهم رجال الشرطة وطلبوا تسليم المدرسة بما فيها من اثاث وأدوات وذلك بتحريض محمد كرد علي وأمر الحاكم حقي العظم ، فتوسلت المديرية السيدة صبيحة النثير بجميع الوسائل لتأجيل هذا العمل الى الصباح فلم يمهولها وأخيرا ارسلت الى حقي العظم مسع احدى الملمات تقول له : ان عصابة الاشقياء الوجودية على طريق الصالحية عند عزنوس تسترحم من مكارمكم ان تمهولها الى الصباح ريثما تتمكن من جمع سلاحها وتسليمه قتال : واي عصابة تعني ؟ قالت : تلك العصابة التي قطعت السابابة واخذت بالامن العام عصابة بنات الشهداء ومعلمائهن ومديرتهن فنجعل حقي بك وارسل معها امرا يقضي بالامهال الى الصباح .

وقد اخبرتنني في صباح اليوم الثاني بما جرى ورفيت الي بالجيء الى المدرسة قبل وصول الشرطة فاقمت آسفنا وأمرتها بتسليم جميع ما يطلب منها وارسلت معها الكلمات الاتية الى التلميذات : (ان جمعية نصور الفيحاء قد بذلت منتهى جهدها زهاء سنتين حتى بلغت هذا المبلغ من العلم والتربية وهي ترجو من الله ان تكن خير مثال لبنات قومكن ، بيد ان الحكومة رغبت ان تنتزع روح الوطنية من نفوسكن وثرة العلم من ادمتكن ، ولنا وطيد الامل ان تحافظن على مبدئكن القومي ، فلربما يأتي يوم نجمع فيه شملنا) . خلاصة وثيقة اخذت من السيد توفيق الحلبي في ارواد ٢٢ تموز سنة ١٩٢٢ وهي توافق كلام السيدة نازك العباد .)

ولما انتهى الحديث أظهر المستر كراين من الاستياء ما لا يوصف وقال انه ارسل الى المدرسة بمعرفة المسر فيشر بعض الهدايا المدرسية اشتراها من باريس بقيمة عشرة الاف قرناك اخذا بناصرها وهو غريب عن البلاد ، فهل يعقل ان يقدم أحد لا سيما اذا كان من الوطنيين على اغلاقها ؟ . فقالت : ان الهدايا لم تصل

أن يعطيه هذا الخطاب اللطيف ، وتكلم الضيف بنهاية الامر بكلام لا يختلف كثيرا عن الكلام الذي فساه به في حفلة الميدان . ثم قمنا الى المائدة فوجدنا الطعام هو ما يقدم في دمشق عادة في فصل الربيع يعني الارز بالفلول مع اللبن المرائب والقطايف العصافيري . فقال المستر كراين طعام صحي جامع مانع فيه الخضرة واللحم فعلا منه طبقة مشني وثلاث ورباع ولكن لم يحفل كثيرا بالحلوى . أما المستر برودي فانه كان على العكس من ذلك اذ اكل من القطائف مع القشطة ماشاءت معدته ان تأكل وتتحمل ، وقد ترك المائدة ويوده لو يملأ جيبه منه ليأخذ معه هدية الى الولايات المتحدة . انتهينا من الاكل فشرينا القوة البدوية مع الهال ، فكان لها نشوة في النفس ، واخيرا ودعنا القوم وانصرفنا .

طلاب الحقوق يلتقون به :

بعدما سرنا في المركبة بضغ خطوطات التقينا بتلامذة معهد الحقوق فتقدموا الينا وعرضوا على المستر كراين مطالب البلاد وهي لا تخرج عن المطالب الثلاثة العامة التي تقدمت في الاجتماع الاول فطيب خاطرهم وانا قلت لهم حافظوا على العهود التي عاهدتم عليها بلاذكم وثقوا بانفسكم ومستقبلكم . والظاهر أن أحد الجواسيس وما اكثرهم بيننا شوه هذه العبارة ونقلها على صورة تذكار بيهود سرية سابقة لهم معي فانت في ورقة الاتهام في المحكمة بهذا المعنى .

ودعت المستر كراين وانصرفست الى اعماله بعد ان وعدته ان الاقيه في النزول في الساعة التاسعة والدقيقة ثلاثين . ولكنني لما رجعت الى بيتي في المساء علمت انه اتى الى زيارتي وطلب ان يكون مجيئي قبل الموعد بساعة فحضرت له جميع المذكرات والاوراق التي تهمة وقد اتاني بعضها من فلان و... و... وكلها تتعلق بالشكاوى التي ذكرها له الاهلون بيد انني

وزير الحرية السابق ، وعادل بك العظمة من المحامين المعروفين ، وزكي بك الحلبي قائمقام ومفتش الدرك في حوران ، وغيرهم من رجائنا المشهورين .

اقترحت ان تبدأ الحفلة بتلاوة عشر من القرآن الكريم فاخذ الحافظ الشيخ محمد الطواني يتلو علينا ونحن سكوت سورة مريم فترجمت للمستر كراين عباراتها الفصيحة ومعانيها البليغة ثم بينت له كيف ان المسلمين لم يحتفظوا فقط بكلمات القرآن واعرابها وعدد السور والآيات وترتيبها وبحيث لا يوجد اقل اختلاف بالمصاحف في عامة انحاء الدنيا بل قد احتفظوا بالالفاظ والتجويد والقليلة ايضا فترى الفاظ التالي في دمشق مثل الفاظ التالي في القاهرة او تونس على اختلاف الدار وبعد المزار واختلاف النطق بالكلام ، وهذه الالفاظ منقولة بطريق المنغسة عن عصر الصحابة فقد كتبه الخليفة الثالث وفرقه على الانحاء الاسلامية الاربعة وكان لدمشق الشام الحظ ان حصلت على نسخة من هذه المصاحف العثمانية ، ولكنها يا للأسف الفتتها النار في الحريق الذي اتهم الجامع الاموي منذ ثلاثين سنة .

ظهر المستر كراين لذة عظيمة بهذه الفزلة الجملة والحق علي ان انتقل له صحيفة من صحائف ما تلاه الشيخ فوعده . وذكر لي انه رأى شيئا من هذه المحافظة على هذه التلاوة عند الصينيين البوذيين وعنده صفائح مغولية اخذها في بكن ترجع الى الوف من الصين .

ثم انبرى بعد ذلك الاديب الخطيب السيد محمد الشريقي فالقى خطبا ممتعا بناه على ثلاثة احاديث احدثها : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فليذكره ، فان لم يستطع فليبلغه ، وذلك اضعف الايمان » . وقد كانت علائم الناشر بادية على وجهه ويديه ولكن صوته كان جهويا حسنا فتأثر المستر كراين من كلامه ورغب اليه

الحكومة العثمانية . فكان يخرج من الشام فيصل الى الكبيسة على ابواب بغداد في مدة اسبوع ، وذكرت له ما حدث معي وهو اني لما سافرت الى العراق في نوفمبر سنة ١٩١٥ او صلتني القافلة بطريق العراق الى الهيت بعد ثلاثة وثلاثين يوما حيث اجتمعت بنجابه خرجوا من الشام بعد سبزي بخمسة وعشرين يوما فسافروا بطريق الحماة هذه فالتقينا في الهيت بيوم واحد .

استحسن المستر كراين اقتراحي هذا ودعاني ان اكون رفيقه في هذه السفرة العجيبة فقبلت بمسدد تردد لاسباب سائيتها . ثم اخبرج من محفظته حوالاة فملاها باسمي على مصرف نيويورك بمبلغ ١٠٠٠ دولار (ريال امريكي) وقال اعط منها خمسمائة ريال الى الانسة قندلفت . واذا ما سافرت الانسة نازك (واطننها غير مسافرة) ارجو منك ان تشتري لي بالمبلغ الباقي الحاجات الضرورية لاسفار الصحراء . وفي اواخر سبتمبر القادم اوصي لنا على ثلاث سيارات فورد جديدة ساقدم لك قيمتها من نيويورك وستكون غايتنا العراق اولا اذ نبقى هناك اسبوعا كاملا للراحة ، ومنها نساقر الى نجد فاليمن لدرس القضية العربية في موضعها . ولكن ارجو منك ان تنبئه كثيرا الى ضرورة التكنم بشأن هذه السياحة التي ستكون لها من الرنة اضعاف ما لهذه .

عرفت غير المستر كراين على الامم المستعزة وبعده عن خدمة العسكريين على اختلافهم اذ تجلى لي ذلك في سنة ١٩١٩ ورايت امامي فرصة سانحة لزيارة بلادي ومهد الجنس العربي مرة ثانية فقبلت منه على كثرة مشاغلي الخاصة وما يتطلب مني في مهبط رأسي . وهكذا ودعته وانصرفت على امل اللقاء لوداعه في الصباح واذا كنت خارجا من حجرته التقيت بالمستر آل قنصل اميركا في دمشق وقد اتى لوداعه كانه اراد ان يشير بها الى ما في زيارة المستر كراين من الرامي السياسية .

في آخر الامر ففضلت ان لا اسلمه شيئا منها الا في الساعة الاخيرة لاني كنت اخشى ان يسرقها منه احد من التراجم الذين كانوا معه ، خصوصاً بعدما بلغني ان الجواسيس الذين كانوا يحيطون به من كل جانب حاولوا بالاغراء ان يأخذوا طرفا من اخباره فلم يفلحوا .

كراين يخبرني بعزمه على زيارة جزيرة العرب :

ذهبت اليه في المساء في الوقت المين فوجدت بانتظاره السيد متير شيخ الارض وابن عمه فؤاد افندي فعرفته بهمسا فذكر له مطلب الامة السورية واستماتتها في سبيل حريتها واستقلالها ، ثم ودعاه وانصرفا اما انا فبقيت لأذكره بالشؤون فقدم لي قدحا من الشاي الصيني الأصلي لم أذكر انني ذقت ما هو اللذ منه ، وبعد ذلك فاتحنني بالوضع الاتي الذي كان يذكره لي عرضا بالتميح في الاجتماعات الماضية : وهو انني عازم على زيارة جزيرة العرب من العسير فبلاد الامام فنجد فالعراق في الخريف الاتي ، وقد ذاكرت فتحي باشا وزير الاوقاف في مصر في هذا الامر فاستكتب احد اصحابه من اليمنيين في القاهرة كتابا الى حد اصحابه في عدن رغب فيه اليه ان ينتظرنني في تلك الجزيرة في نوفمبر القادم لنذهب معا الى جهبا مقر الادريسي وصنعاء مقر الامام يحيى بعد ان يهيا لنا حاجتنا جميعا فيما راك في هذا الطريق ؟ فقلت له : اذا كنت عازما على زيارة شمال الجزيرة فلم لا تعكس القضية فنسافر من هنا الى العراق فنجد اولا ، ثم من نجد الى اليمن فالعسير ثانيا ؟ خصوصا وقد بلغني منذ نحو اسبوعين ان السيد محمد البسام التاجر المعروف سافر على سيارته الخاصة مع سيارة اخرى استأجرها لوضع الذخيرة والراد الى بغداد بطريق الحجاز ، وانه ربما وصل اليها بعدة ثلاثة ايام . فاخرج المستر كراين من جيبه خريطة بلاد العرب ورغب الي ان ادله على طريق الحجاز فدلته عليه وقلت له انه يكاد يكون خطا مستقيما الى الشرق انجاهها مضبوطا ، وان هذا هو الطريق الذي كان يسلكه السامي اسام

الطريق الا ووجدت الشيخ اديب تقي الدين في الترمواي مع مجموعة من المشايخ فتركهم ونزل ففسار معي ولما بلغنا النزل وجدت كثيرين من الوطنيين يروحون ويفدون فأشرت الى الشيخ والسيد عثمان الشرباتي والى غيرهما ان يجمعوا الجموع ويهتئوا للساعة العظيمة. ثم صعدت الى حجرة المستر كراين فوجدت عنده سعيد بك جيد يذكره بعض الثوؤون؛ وفي نهاية الامر اخرج من جيبه وصلا ماليا من الحكومة لاحد الاعيان بالضريبة المالية على مركبة وقد دلت الارقام على ما يأتي :

على الاصل التركي	١٥٠
٤٥٠ الرقيم التحويلي للفروش السوري	
١٥٠ الضريبة المتحولة واصلها ٥٠ تركيا	
١٠٠	
٦٠٠ ضمائم عجز الميزانية مائة في المائة	
١٢٠٠	
١٢٠ حصة البلدية في الك ١٠/١٠٠	
١٩٠ تذكرة	
٥ ضبط كسور	
١٣٤٠	

وضع المستر كراين هذه الوثيقة الرسمية في حقيقته وعجب كثيرا من تزايد الضرائب بهذه السرعة النادرة ، خصوصاً بعدما علم ان اعظم دعوى كان بينها الجتزال هي تعهده للاهلين بمناشير القاها من الطيارات قبيل موقعة ميسلون انه سينزل نسبة الضرائب ويرفع شأن الحرية ٠٠٠٩. وهل أعظم من هذا التأثير في الضرائب الى اعلى واشد من هذا الرفع في الحرية الى اسفل (١٥٠ غرشا) ايام الحكومة العربية الفقيرة ضريبة على مركبة لاحد الاعيان اصيحت

تجميع الناس لوداع كراين :

اسرعت الى داري لان العمل امامي شاق تلك الليلة وهو اذاعة سفر المستر كراين بين الناس لكي يتجمع له في الصباح من الودعين عدد يستطاع تحويله الى مظاهرة سياسية تشجع بها الناس على حذو الامم الراقية الطامحة الى خلع نير الاستعباد ، ويتخذون منها حجة يهدمون بها كل الاعمال المأجورة التي كان يقوم بها المستعمرون بواسطة اذنانهم امثال بديع الزيد ومحمد كرد علي وحقي العظم من اذاعة رضاء السوريين عن الانتداب وما يتبعه من تلك الحكومات السورية المحلية التي هي آلة عبادة للتخريب ومحق الروح الوطنية ، مرت بطريقي على ثلاثة من انشط الشباب فاسرعت اليهم بقصد ، ومن ثم ذهبت الى داري فوجدت بانتظاري لفيما من العلماء والافاضل منهم الشيخ اديب تقي الدين والشيخ توفيق المنيني والسيد عبد الستار السندوسي ، ثم اتى بعدهم فوزي بك الفزري وعادل بك العظيمة فرجوت منهم جميعا ان يسرعوا حالا الى طرق الابواب المغلقة وامسلان سفر المستر كراين عند اصحابها . وقد كانت غايتي من هذا التأخير في اذاعة السفر مفاجأة الحكومة كي لا تستطيع ان تأخذ اهبتها وتحبط العمل . ودعني هؤلاء الاخوان وانصرفوا بالعمل الذي اودع اليهم ، اما انا فتناولت من الطعام ما سد الرمق واسرعت الى بيوت النشيطين من بقية الاخوان فاقظت اصحابها وبيت لهم شأن الوداع وعدت الى بيتي افكر في اتمام العمل ولكنني كنت على كل حال قانعا بان تشبثي سيأتي بالنتيجة القاطمة .

سعيد جيد يبين له نسبة ارتفاع الضرائب :

قمت باكرا صباح الخميس في ٦ نيسان سنة ١٩٢٢ فجمعت الوثائق المهمة التي اعطاهاها اصحابها باسم المستر كراين ، وبعد ان افطرت وضعتها في جيبتي وتدرجت نحو النزل . وما بلغت نصف

وتساقطت الدموع على الخدود من شدة التأثر فلفت نظره الى ذلك بالإشارة الى الشيخ ادب تقي الدين ، كان واقفا ورأيي وكانت خدوده ممثلة من كثرة البكاء ، ثم هتفنا للاستقلال السوري والاستقلال العربي والدكتور ويلسون والأمة الاميركية .

وداع كراين وانقلاب المسيرة الى مظاهرة :

وبعد ذلك انزل فنزلت الجموع ورائه واسرعتا الى الاحاطة بالسيارة ودعوت بالتلميح والاشارة الى مشاركتسي في هذا العمل فكان الاستعداد شاملا ولربما كان اكثر الواقفين يتوقعون مثل هذا الوداع . ركب المستر كراين السيارة بجانبه المستر برودي وامامهم التراجمة فصاح الناس من كل جانب بالسلامة وعلى الطائر الميمون ، فلم يبق احد داخل المنازل الا وخرج الى الشرفات لرؤية هذا الجمع الحافل وكانت دائرة حصر الدخان خاصة مكتظة بالناس من غريبين وشريفيين ، فأخذتهم الدهشة واعتراهم الدهول من هذا المنظر الغريب : عمائم وطرايش وجيب واردية تتعالى اصواتها فلا يكاد يفهم المستمع من تلك الضوضاء الا ما تشير به الانظار المتجهة من كل حذب وصوب نحو قبعسة في السيارة من علائم الاجلال والاحترام .

اراد السائق ان يسير على بركة الله ولكن الحماس عند المودعين اعتوره ووقف في سبيله فمنعه من السرعة اين كان يتوخاها ، والتي كان ربما يتوخاها المستر كراين ، وهكذا نفذ السهم وخرجت القنبلة من المدفع فلم يعد القياذ بأيدي احد بل الجميع استدارتهم العاصفة وحولت وجوههم نحو الشارع المؤدي الى ساحة الشهداء فساروا وسرنا معه وما كدنا نقطع بضغ خطوات الا وقد انتصب امامنا على مقدم السيارة رجل اسمر اللون بشباب سوداء تسدل ملامحه واهتزازات جسمه على الانفعال ، فأشار بيده اشارة سكوت فسكت الناس كان على رؤوسهم الطير ثم صاح بنبرة مصيرية فصيححة لا شائبة فيها :

١٣٤٠ غرشا ايام الحكومة الفرنسية لمساعدة ؟ . . . وحرية مطلقة في الكتابة والخطابة والاجتماع ايام الادارة البدوية الطائفة اصبحت عشرين سنة في اعماق السجن للهتاف للحرية امام الادارة الاوروبية ؟

مدير شيخ الارض يقدم مذكرة المعهد الطبي :

وبعدما انهي حديثه سعيد بك دخل منير افندي شيخ الارض ويده ملف ناو له للمستر كراين . وقال هذه مذكرة من تلاميذ المعهد الطبي فيها الرغائب القومية التي عرضتها على مسامعكم البارحة بحضور خالي الدكتور فتنوا لها منه شاكرا ووضعها في الحقيقة ثم ودعه وانصرف .

كراين يستعد لمغادرة البلاد :

ازفت الساعة التاسعة ولم يعد ل موعد السنز الا قليلا فقام المستر كراين ولبس ثيابه السفرية وانا ناولته جميع الوثائق التي جمعها له فوضعتها في حقيبته ثم دخل المستر برودي وقال كل شيء جاهز يا سيدني فنزل ونزلنا معه ولا اطلنا على بهو النزل وجدناه مملوفا بالودعين فذهب المستر كراين لوداعهم وهناك قال : « ما اشد سروري بزيارتكم واسفي لاضطراري الى مغادرة مدينتكم وسيكون الدكتور كننج مسرورا جدا من نتيجة تحقيقي » فهتفنا للدكتور ، ثم قال : وستكون عقيبتي مسرورة ايضا فهتفنا : فلتحيا المسر كراين . ثم علا الهتاف من كل جانب للمستر كراين . ثم قال « انيت لهذه البلاد في وقت لا يسمح لي سني بنظرها للسفر لكي ارى البلاد التي زرتها مع اصدقائي سنة ١٩١٩ ، ولا يمكنكم ان تقدروا السرور الذي بصيها من نتيجة هذه التحقيقات البدعية . . . تمسكوا بقبضتكم فانها عادلة وترسلوا اليها بالوسائل المعصرية لا بالطرق القديمة » .

فتعالت الاصوات ايضا ودوى النازل من كثرة الهتاف

من الاسر وراء تلك اليقظة ضرب من الاحلام لهذا الحد بلغ الشعور الوطني حتى صارت المسلمات المخدرات تشارك الرجال في حمل علم الثورة ؟ ام هل دار الزمان دورته فعادت خولة من مرقدها لتجاهد في سبيل الحق واعلاء كلمة الله ؟ واذا كان هناك علامة ثانية على ديب الحياة في اجسام اقوام الشرق فهسي اشترك المرأة المسلمة في اظهار العاطفة الوطنية بعدما كانت في خدرها لخدمة منزلها فقط فالاستانة والقاهرة وقازان ودمشق ايضا والحمد لله تساوى الجنسان فيها في طلاب العز وغلاب الضيم .

ثم ان المودعين رأوا ان لا يفوت المستر كراين شيء من تفاصيل هذا الوداع الحافل فأوقفوا السيارة واستأذنوا فكشفوها وانزلوا ستائرهما . لفنا لفنة المستعجلان ودخلنا في اول ساحة الشهداء فوجدنا ضابطا فرنسيا واظفنه الرئيس موبسان فصاح المودعون في وجهه بصوت واحد وعلى رأسهم منير افندي شيخ الارض لتجيا الحرية فأطرق ولم ينبث ببنت شفة ، ثم ما زلنا نسير حتى صرنا بجانب المجلس البلدي فأشرت الى عيقلتي ان تهتف للامة العربية فاستعملت على السيارة وزفعت يدها وما كادت تصيح « فلتحييا الامة العربية » حتى دوت الساحة بالهتاف من كل جانب ، فكننت نرى الناس على التسيابك والشرفات والبيوت والوكندات من هذا المنظر الغريب ما تماك بعض الموظفين على شرفة دائرة الحكومة وهم بجانب الحاكم العام من التصفيق والهتاف لهذه الحياة الجديدة التي تأخذ بمجامع القلوب . وكان من جملة هؤلاء الموظفين وفي مقدمة المتحمسين زكي بك الخطيب مدير رسائل ديوان الحاكم فكان جزاؤه ان الغيت وظيفته عقيب الحادث فورا . ومن الغريب ان احدهم صاح « هنا فليسقط الخائنون » فأجابه الناس من غير اختيار فليسقط الخائنون مشيرين بأيديهم الى دائرة الحاكم والى المتريعين فيها على مدافن الامة السورية ، وما زالوا يرددون هذا الهتاف

بين مصر وبنهاها والشام عهد صدق ووحدة ووثام وابن مصر وسورية اخوان رغم انك الاصادي العطفام فدوى الشارح من كل جانب بالهتاف لمصر ولاستقلال مصر ولسمد زغول فاجاب على ذلك بالهتاف لاستقلال سورية وصاح باعلى صوته : « فليسقط الانتداب الافرنسي » فكانما زادهم بذلك لهبا على لهب بحيث اخذ المنشدون بطبيعة الحال يعيدون الاناشيد الوطنية التي تعودنا على سماعها ايام حكومتنا الوطنية ، ولما وصلوا الى القطمة المروية :

نحن لا نرضى الوصاية لا ولا نرضى الحماية
نحن اولى بالرعاية لبني العرب الكرام

نشر الناس مناديلهم البيضاء في الهواء واخذوا يعيدون من هذا النغم طول طريقهم وانا كنت واقفا على رف السيارة اترجم للمسافر معنى النشيد ، ولفت نظره الى العدد العظيم من المودعين الذي كان يتزايد مع كل خطوة يخطوها اضعافا مضاعفة ، ولما صرنا على مقربة من دائرة الاوقاف خرج الى شرفاتها لفيك كبير من المشايخ تهتف وتصفق للاستقلال . وكان الباعة من الجانبين يرشون علينا ماء الزهر وينثرون على السيارة والحجيجين بالسيارة الزهور والرياحين . ولما صرنا امام الحمام الناصري سرت عدوى المظاهرة جماعة من التبرطين فرفعوا قبعاتهم اجلالا واحتراما وصاحوا مع الصائحين . ولا وصلنا الطريق التي تحاذي سوق علي باشا التحق بالسيارة ووقف على رفها سيدتان متفتحتان احدهما عيقلتي والثانية شقيقة شهيد العرب شكري بك العسلي حيثما المستر كراين وهتفا هتافا عاليا للاستقلال ، فأثر هذا الشهد في الناس تأثرا يعجز القلم عن وصفه بحيث كانت الدموع تنهمر على الخدود كالسواقي فكانت ترى الجموع تموج كالبحر وهي تنهادر في سيرها وتتمايل كالسكران من خمرة النصر وجيشان الصدر ، والخلاص

آلة التصوير يصور بها المناديل المنشورة والإيدي المتوجهة في الهواء.

★ ★ ★

العمل الشعبي بعد سفره :

سافر المستر كراين ولما عجزت الاجسام عن مجازاة سيارته سابقتها الامال واكتسبتها الاحلام وطوقتها القلوب وهي تنادي من اعمائها على الطائر الميمون ، ولا يعلم احد منا ما كتب للبلاد في اللوح المقدور اللهم الا ان هناك شعبا حيا وشاهدا عادلا والهالاه حكمة ستحققها الايام رغم انف الفجار . ولما اردنا العود من حيث اتينا النصف حوالي لفييف من الشبان الناهضين وحملوني على الاكتاف وهم يصيحون ليحيا الشهيد ، فكنت اقول لهم ليحيا الشعب الذي ما داخله القنوط وما خامره الريب . ودعت الجمهور وسرت في طريقي نحو بيتي في الصالحية فتبعني محمد بك اسماعيل وثروت بك الجعفري ، فصرنا نتحدث عن هذه الروح الشريفة في الشعب التي بدت للعيان وليس باستقامة المستعمرين سترها .

قضيت مصالحي في بيتي وكنت على موعد يتعلق بمصلحة اهلية وصالح بين اقرباء فصالت بينهم الدنيا حينما من الزمن كما هي عادتها ، فقمنا مجلس قصصت فيه ما حدث لنا في يومنا ووصفت ذلك الانفجار الطبيعي وصفا دقيقا ، فكانت دموع السيدات تسبح على الخدود وكان جميل بك الاشبي رئيس مجلس الوزراء في اول العهد الافرنسي حاضرا فاعتزته الدهشة ، ولولا ما راى في وجهي الجدل لظنني اهولا ، ثم التفت الي وقال : الان اتقضت ايام الحكومات الوطنية وربما اضطر الفرنسيون في القريب الماثل الي مذاكرتي واخذ رأيي في الشؤن الحاضرة فماذا ترى ؟ . فقلت له ان كل حكومة تتخذ على عاقبتها تبعه الاعتراف بالانذابات مستسقط لا محالة لان هذه الكلمة أصبحت بنظر الشعب ادنى من كلمة الاستعمار ، ولا

المسلمي . وهم كلما فقدوا خطية اردادوا حماسة وتضاعفوا عددا حتى صاروا على مقربة من دائرة الشرطة . هنالك اشتد الهيساج وتعالى الاصوات الى غنان السماء بالدعاء على الخائبين اعداء الوطن والشرف فانبرى للناس رفيقنا في الحكم والسجين الاستاذ العفيفي واعلى السيارة وهو يصيح باعلى صوته « لا يوجد في سورية خائن بل الكل وطنيون مخلصون » فأجبتنه ان الذي يشق عن الجماعة ولا ينزل على حكم الامة ولا يطلب ما تطلبه من الخير هو خليف بآن يسمى خائنا ، ثم انني لاحظت وانا انطق بهذه الكلمات ان مفوض المركز واسمه حسني افندي المامون من حمص وقف على رأس سلم الدائرة وصاح بالناس ان يتفرقوا ودل اصفرار وجهه وتلثم لسانه وارتجاج يديه واهتزاز بدنه على شدة خوفه وما تعانیه نفسه من الاضطراب ، ولكن اين من يسمع واين من يبصر واين من يلتفت الى كلام تنفجر منها الحمم ؟ . لفتنا لفتة الجسر على نهر بردى ومسا زلنا نسير بركاب المسافر حتى بلفنا نزل فكدوريا فأثرت الى السائق ان يقف لاجل الوداع فوقف وسكنت الناس وسكنت الحركة فقلت بالانكليزية للمستر كراين التفت الى ورائك يا سيدي واحفظ هذه الصورة بقلبك ، وستمر على اوربا واميركا فترى فيها وهي ما تعانیه من الطمع الاشعبي وجب المادة القتالة افرادا بضمائر حرة لا يزلون يحجون الانسانية ويفارون على الحرية فاذاكر لهم هذا المنظر الغريب واشرح لهم المعاني التي تقرأها ، ثم قلت له بالعربية فليحيا الاستقلال ولتحيا شجرة الحرية التامة والى الملتقى ايها الرسول الكريم « اشارة الى ما ذكره عن نفسه في بستان الحكيم من انه اتى رسولا امينا وسيعود رسولا امينا » ثم اشرت الى الناس ان يفيضوا من حوله فما ابتعدوا حتى رفع قبعته وانحنى للجمهور فصفقوا له جميعا وجيندل ارجى السواق للسيارة العنان فطار بطوي الطريق طيا وآخر ما كنا نراه فيها المستر برودي واقفا ويده

المفوض وقبل ان اراققه الى الدائرة اخذت القلم وكتبت الى الرئيس ولبس ما معناه :

رسالة الى الرئيس ولبس :

« لي الشرف ان اقض على مسامح حضرة الرئيس السابق للولايات المتحدة واذكره التي احد السبعة الذين وقعوا على المذكرة التي قدمت اليه بواسطة المتمد السياسي السابق لحكومته في القاهرة سنة ١٩١٧ ، وفيها رغائب الامة العربية . ومن دواعي اغتباطي وتعزيتي ان الايام قد دلت بأفصح دليل رغم انف الدسائس على ان تلك الرغائب هي رغائب امتنا المستضعفة ، ثم قلت له ان العهود الشريفة التي اقتطعها للناس على جبل فرنون والمبادئ السامية التي نشرها بجانب مرقد واشنطن ، لا تزال مصدر الهام المظلومين في الشرق والغرب . وان الكارثة التي سعيينا جهدنا لتجنبها فرت كالصاعقة على رؤوس امتنا فأخذت تسحقها تحست اقدامها ، ويكفي ان اقول ان هتفة واحسدة للحرية والاستقلال والمبادئ السامية التي انطلق الله بها الامة الاميركية على لسان رئيسها الكريم ادت بالحكومة المستعمرة الى اتخاذ قرار بتوقيفي وتوقيف بعض اخواني ، وربما نفينا جميعا بعد ذلك ، وسيقضى على حضرة المستر كراين صديقه الامين ما رأى بعينه وسمع بأذنه في سورية من المظالم والمفارم التي بلغت ضجتها عنان السماء » .

ولولا الشرطي المفوض الامور بالقبض علي ونقره على بابي يستبطني ويستحطني الى مفادرة دارى لكتبت له من تفاصيل امورنا ما يدله على ان البذور التي زرعها في العالم الجديد نبتت او كادت تنبت في العالم القديم ولا سيما في الشرق حيث المظالم على اتم مظاهرها .

رسالة الى المستر كراين في بيروت :

انهيت كتابي ورغبت للمفوض ان يدخل معي الى داخل دارى

توجد طريقة من الطرائق التي سلكها الفرنسيون في تونس والجزائر الا وهم آخذون في تطبيقها في سورية تحت سر هذه الكلمة البراقة التي تخدمنا بها اوربا ، فالشعب يفضل كثيرا انه اذا كان يقتل ويمثل فيه من ان يقال له انت بين برائن الوجود الكاسرة وتحت انياب الثعابين ، لا في احضان امك الحنونة ، واقل ما يقال في هذه الحالة انه لا يكف بتقديم الشكر منها ..

اجراءات الحكومة بشأن المظاهرة وبداية توقيفي :

ثم ودمت الحاضرين وانصرفت الى بعض اعمال الخاصة ، وحينما كنت عائدا الى بيتي قبيل العصر واجهني علي آغا العسلي عند الجسر الابيض ، فقال لي : ان الحكومة قررت اتخاذ الاجراءات بشأن المظاهرة التي حدثت اليوم ، فقلت له ان لا يكثر لاعمال المظالم والبلاد تن من الجور وتسمى اخلع نير الاستعباد ، ولا بد لها من البذل والمفاداة ، واننا ما اقدمنا على عملنا الا ونحن مستعدون لتحمل الكوارث . اتاني لريارتي الشباب . . . رابعا فكه الاسفل ومظاهرا بمرض اضطره لراجعتي فقال لي ان مأمور التحري واقف في الباب ينتظر وان الشرطة اخذت امرا بالقبض عليك وذلك بعد ان قررت البعثة اليوم ابعادك مع حسن بك الحكيم وسعيد بك حيدر ومنير افندي شيخ الارض والشباب المصري الذي هتف للاستقلال عند باب النزل مدة ثلاثة شهور ، وبعدها ودعني وانصرف اتالي زكي بك الخطيب فقال ان الحكومة اليوم بحثت بعد المظاهرة بحثا دقيقا في تطبيق قانون التجمع العثماني عما حدث ، ولكنها في آخر الامر لم تجد بابا تؤاخذكم به فاطمئنا . وعقبه اتاني ياسين باشا الهاشمي فذكر لي مثل ذلك فآخبرته بما كان من أمر الشرطة ومأمور التحري الوافق في الباب ، وقلت له ان الاضطهاد سيزيد في ايامنا ولا اعتقد ان احدا من اخواني المظلومين يحجم عن تحمل تبعه اعماله . وبعد ذلك دخل

جانب الفرنسيين - وهو من أبناء البلاد القادرين على خدمتها - الاغراب المستعمرين وقلت في نفسي ما اغنى هذا الشباب الذي دل في جميع اطواره على الذكاء وحدة ذهن ونشاط عن تلويث اسمه وتدنيس سمعته بتحملة تبعة وظيفسة يساق فيها سوق البهائم ، وما له وقد كان بالامس على عهد الحكومة التركية والحكومة الوطنية يشغل بالوظائف العالية يرضى ان يكون آلة صماء يد ضابط افرنسي لا يختلف كثيرا عن صفار ضباط الترك والعرب جهلا وحماقة ؟ هذا عدا ما ينزل به من الهبات يلصق به من جعله اعراض الناس سلما يمر عليه الى غاياته ، ولا اظن انني آسف على فقد شباب من الوطنيين في الحياة اسفي على هذا الشباب المفقود .

فانحني السيد عثمان الثربائي والسيد سعيد بك عبيد بحضوره فيما جرى حتى تلك الساعة من المذاكرة مع المدير بشأن الاجتماع المنتظر في المساء مع الكولونيل كاترو وعند عودته من جبل الدروز ، وبين الاجتماع الذي حضره لنيف من اعيان البلاد وشبانها الناهضين في هذا الصباح الذي عقد في قهوة التوتلي لتقديم احتجاج الى الحكومة الوطنية والحكومات الاجنبية ومن جماتها الحكومة المحتلة على توقيفنا والتعدي على حريتنا .

وقال ان الناس يتهيئون للخروج بمظاهرة من الجامع الاموي وهم ينتظرون الاشارة فما رأيي بها وكان المدير بجانبني يصغي لكل بنت شفة انبت بها ، وكل اشارة اشير بها ، فاتخذت حذري وقلت لا بأس من اتباع الراي الذي تتفقوا عليه ، ونحن في هذه القضية رهن اشارة اخواننا الوطنيين ، فالتفت المدير وقال الا ترى ان يتأجل كل عمل من هذا النوع الى ان يعود الكولونيل كاترو في هذا المساء فتباحث وياه بالمسألة من اساسها كما اتفقنا البارحة في بيت انور البكري مع السيد عثمان ؟ فلم اغر جوابي ، وما كدت انتهي من كلامي حتى دخل الرئيس تيريه معاونا آرلابوس والمسيو

لاخذ ما احتاج اليه ، فدخل فسلمت الرسالة الى ام محمد المرصمة وأوصيتها انه متى عادت سيدتها - ومن غرائب الصدف انها كانت مدعوة حينئذ عند زوج الحاكم للاحتفال بعقد قران احد ابناء عمها - ان تسلمها اياها لترسلها الى المستر كراين في بيروت بواسطة المستر آلن فهو قنصل الولايات المتحدة في الشام ، ثم دخلت الى غرفتي فتناولت من صندوقي بضع جنيهات ذهبا وورقا ، وحملت ردائي وخرجت الى صحن الدار فوجدت ولدي فيصل وسحاب قد عادا من المدرسة ، فانحنيت عليهما وضممتهما الى صدرتي وقبلتهما وكذلك قبلت اختيهن الطفلتين في سريرهما وقلت : اولادي انني مسافر ولا اعود اليكم قبل ستة اشهر ، فسلموا على امكم كثيرا ، فذعرت سحاب واخوها من هذا الخبر ، ولكنهما عادا فقلنا اني امازحهما فلما راي ام محمد تبكي تحققا الخبر ، فاخذا في المويل والنحيب وتبعاني الى اسفل السلم متعلقين بردائي وهما يصيحان : فين رايح يا بابا لا تتركنا وحدنا دخليك لا تتركنا وحدنا يا بابسا وانتظر حتى تجي ماما نحن كلنا نروح سواء » وقد وعدني المفوض ان يكتب كل الاكتمان مسألة الرسالة التي سلمتها الى المرصمة .

خرجت من الدار ودخلت غرفة المفوض ففشف جيوبتي .

القبض على الحكيم وجيدر وشيخ الارض :

بقيت نحو ساعة في هذه الغرفة علمت في غضوننا انه قبض في ذلك المساء على سائر الاخوان المشار اليهم سابقا ، وهم السادة حسن بك الحكيم وسعيد بك جيدر ومير افندي شيخ الارض ومن ثم ذهبت الى مخفر المهاجرين بالسيارة ، وثاني يوم ركبت السيارة حتى دائرة الشرطة ، وبعد هنيهة طلبت الى حجرة المدير فوجدته فيها ووجدت معه السيد عثمان الثربائي والسيد سعيد عبيد الناجر المعروف ، فسلمت عليهما سلاما صميميا ، وكذلك سلمت على المدير بشيء من البرودة والاشمئزاز والتأنيب على التزامه

امسى المساء ولم يواجهنى المدير علمت النية الحقيقية . وفي هذه الاثناء جاءني احد افراد الشرطة وطلب الي ان اخرج ما في جيوبى فابيت الا بحضور هيئة فجاء معي حلمي عزيز ، وعندها اخرجت كل ما معي ومن جعلتها احتجاج التجار على الحواجز الجمركية ما بين سورية وفلسطين بخط فارس بك الخوري ، فآخذته مع مفكرتي الخاصة واعاد لي سائر الاوراق وهنا علمت منه انه قبض ايضا على الدكتور شهنذر وسعيد بك حيدر ومنير افندي شبيخ الارض وقد وضع كل منهم في غرفة على حدة .

وفي الساعة التاسعة جاءني شرطي آخر فقال تفضل ياسيدي فقد حضرت السيارة ، فلم اشأ ان اسأله الجهة التي سأذهب اليها بل نزلت فركبت السيارة يرافقتني فيها مفوض وشرطيان باللبسة عريية وكانت مغطاة فمسارت بنا عن طريق الصالحية ثم عرجت نحو سوق ساروجة فمحلة السمانة وهناك نزلت الى المخفر لاقتني تلك الليلة فيه . وقد اوصى بي المفوض الذي اتى معي رئيس المنطقة السيد خضر الذي كان اذ ذاك حاضرا هناك ، وكلفه الاعتناء بأمره كما امره المدير ، فقتضيت تلك الليلة في المخفر المذكور بحراسة الشرطيين اللذين أتيا معي على طريق المناوبة . والحق يقال اني رايت من حسن المعاملة والاعتناء بخدمتي ما يقضي علي الواجب الاعتراف به .

وفي صباح اليوم الثاني ٧ نيسان سنة ١٩٢٢ في نحو الساعة العاشرة جاءت سيارة مستورة ايضا وفيها احد افراد التحري فأقلتني بطريق سوق ساروجة جوزة الحديداء - شارع قهوة الجينية فساحة الشهداء الى دائرة الشرطة . هناك ادخلت الى غرفة ديوان الرسائل فمكنت فيها الى الساعة الواحدة بعد الظهر وعندها سمح لي بالاجتماع برفقائي في الغرفة المجاورة « .

يجون مستشار الشرطة فاضطررنا الى الانتقال للغرفة الملاصقة فلم يفارقنا المدير لحظة واحدة ، كذلك ودعني السيد عثمان والسيد سعيد للاجتماع بالاخوان واتخاذ قرار نهائي في المسألة، ودخل المدير للمذاكرة مع اسياده .

هذا ما جرى لي ، واما ما جرى للاخوان السيد حسن بك الحكيم والسيد سعيد بك حيدر والسيد منير افندي شبيخ الارض فهو كما يأتي :

حسن الحكيم وما جرى معه :

قال حسن بك الحكيم : « بعدما تم وداع المستر كراين انصرفت مع من انصرف فابيت الى دار الحكومة كالتائد الظافر بعدما مروت امام دائرة الشرطة على مرأى من عشرات من زعانها . مكنت هنا نحو ساعة عند احد الاصدقاء ، ثم ذهبت في نهايتها لقتضاء بعض مصالحتي ، وفيما انا مار بشارع «رامي» في نحو الساعة الرابعة بعد الزوال صادفت امام قهوة النصر شبانا من موظفي التحري في دائرة الشرطة لم أعرفه قبلا ، وكان يتألمني كأنه يريد ان يتحقق شخصي ليفي بوظيفته فقلت له : من انت وما بالك تطيل النظر الي وماذا تريد : فقال الست حسن بك الحكيم ؟ فقلت : نعم قال : انني من موظفي التحري وها هي علامتي ، ان المدير حمدي الجلال يرجو منك ان تحضر الى الدائرة لقابله ، فلم اتردد وكنت عرفت السر فذهبت واباه ، وفي اثناء الطريق مروت على صديقي سعيد بك حيدر وعادل بك العظمة المحامين المعروفين في مكتبهما في بناية العابد واجبرت هما بما حدث كي يتدبرا الامر ويتخذوا الاحتياطات . وعندما بلغت الدائرة ادخلت الى غرفة رئيس القسم العدلي والاداري الملاصقة لغرفة المدير ، فاستقبلنا الرئيسان صادق المغربي وتقولا شاهين وجياني احسن تحية ، فسألتهما عن سبب الطلب متجاهلا ، فاجابني ان ليس لهما علم بشيء، ولا

سعيد جيدر وما جرى معه :

وقال سعيد بك جيدر : « توجهت بعد المظاهرة الى المدينة لمقابلة المدير بشأن قضية في حماه أنا وكيلها ، ولما لم أجده انتظرت في غرفة المفتش عارف بك نكد ومدير الرسائل سامي بك العظم ، وفي هذه الاثناء رايت رجال الشرطة يجيئون فيسألون عن الدستور باهتمام ، فلما سألت عن السبب اجابني عارف بك : انهم يبحثون عن قانون الاجتماعات يطبقونه على المتظاهرين ، ولكنهم لم يجدوا . فقلت له يوجد في الجزء الرابع من الدستور . وأنا كذلك اذ حضر الحاج صادق افندي رئيس القسم العدلي في دائرة الشرطة وهو متابط مجلد من الدستور ، ففهمت ان مجلس المديرين مجتمع وعنده مدير الشرطة لهذه الغاية . ولما لم يهتدوا في قانون الاجتماعات الى ما يشئني غلبهم فكروا في طريقة اخرى . ولكن على كل حال لا يتعدى الامر حدود السجن من اسبوع الى شهر . ولما خرج مدير القسم العدلي اتهمت حديثي مع المفتش الفاغل ثم نزلنا فوجدت مدير الشرطة خارجا من غرفة الحاكم وهو مهتم ومعه الدستور ، فلما رأيته حول وجهه عني وذهب نحو قلم الخارجية ، أما انسا فاني قابلت مدير رسائل المتصرف لأمور خاصة .

ثم ذهبت للغداء في بيتي ، وبعد الراحة نزلت الى اعمال ، وبينما كنت جالسا في مكتبي في نحو الساعة الرابعة مساء حضر الخادم ودفع لي تذكرة الطبيب وقال ان والدتك المريضة تريد هذا الدواء فقمنا حالا وذهبت الى صيدلية جميل افندي الكحالة فأخذت لها الدواء المطلوب واعطينة للخادم ، وعند خروجي من باب الصيدلية بادرنى شرطي في مقبيل العمر رقيق الحواس لطيف المعاملة اشترى الشعر لا اذكر اسمه ، ثم قال : ان مدير الشرطة يريد مقابلتك الان فعلمت من هذه الجملة كل شيء وسأله هل بإمكانني ان اذهب الى مكتبي قبل الذهاب الى دائرة الشرطة فلم يمانع

فمضى حذوي ، وفي اثناء الطريق قابل اثنين من زملائي الشرطيين فتبعاه ايضا بناء على اشارة منه ، فذهبت الى المكتب وأخبرت شرطي بما حدث ، وعدت مع احد الشرطيين الى دائرة الشرطة ، وصادفت في طريقي الموظفين مرفضين من اعمالهم ، فصارت ترمقي الانظار وتشير الي الايدي بالسلام ، وصادفت جيب افندي الكحالة صاحب جريدة سورية الجديدة وكان بيننا وعد لحل بعض المسائل الخاصة ، فسألني هل أنا على وعدي فأجبته انت ترى ما أنا به الآن ولا اعلم اذا كان بالإمكان عودتي ، ثم دخلت في الدائرة الى حجرة المفوض حلمي عزيز فسلمت عليه فاستقبلني ببشاشة واحترام ، ثم قدم لي مكانه امام النافذة المطلة على نهر بردى وقدم لي نقاعة تنبع ثم نهض ووقف أمامي وأدار ظهره الى شرطي آخر بجانب الباب بحيث لا يسمع كلامنا ولا يرى وجهينا ، فذكر عهد الودة بيننا منذ كنا في المدرسة الإعدادية في صف واحد معا ، وما يحمله من الحب والاحترام ، لذلك فهو يطلب ان اكلفه بما يحتاج اليه ، ثم قال أنا سأذهب بالشرطي الذي على الباب ليخلو بك المكان ففتش نفسك وألف جميع الاوراق التي تراها مضمرة ، ولما عاد طن جرس الهاتف فتناول السماعة وفهمت من مجرى الحديث ان مخاطبه يستأذنه بالدخول الى البيت لان الرجل الذي يريد توقيفه لم يخرج ، فاجابه بقوله : ادخل قبل ان يسمي المساء لان محل العيادة غير مسكون والحق عليه بالسرعة ، فسألته من الرجل المطلوب ؟ فقلت : الدكتور شهبندر ، فقلت : لا حاجة للتشدد لاني اظن ان الدكتور الفاغل لم يرتكب الفوار خصوصا وهو لم يأت أمرا فريا ، فhez رأسه وقال : ما جيلة الأمور ؟ ثم سأله : هل المطلوبون كثيرون ؟ قال انت والدكتور شهبندر وحسن بك الحكيم . وبعد برهة قال : منير افندي شيخ الارض الذي اسديت اليه من المعروف سابقا واحسنت به اليه يوم حادثته المدرسة الطبية وقف اليوم على ظهر السيارة امام الشرطة وصاح

اقرب مني شرطي وسألني ماذا تريد ان تفعل؟ فأجبت ان نفسي لا تطلب الاكل ولكن اين الدكتور شهبندر وحسن الحكيم ومينر افندي شيخ الارض؟ فأجابني ان الدكتور عبد الرحمن بك في القرية المجاورة عن اليسار وحسن بك عن اليمين وانهما قضيا بيلتهما خارج دائرة الشرطة وأتيا مثلي في الصباح وأنا كذلك اذ دخل عثمان افندي الشرطي وسعيد افندي عبيد فاستنسا عن صحتي وقال ان المسألة قريبا تنتهي ثم سألني عن الدكتور وحسن بك فدللتهم عليهما فخرجا .

مينر شيخ الارض وما جرى معه :

وقال مينر افندي شيخ الارض : «وبعد ان ارفض المودعون من الوداع الشاق الذي حصل للمستمر كراين، عدت الى المعهد الطبي وشرحت لاخواني ما جرى لي في المهمة التي اتدبرني اليها من تقديم رغائب التلاميذ الاستقلالية له ، فسروا من ذلك سرورا عظيما ، خصوصا لما وصفت لهم الطريقة العجيبة التي ودعناه بها وكيف احططنا بسيارته وهفتنا للاستقلال .

عدت الى منزلي وقت الظهر فوجدت شرطيا من معارفني ينتظرني في الباب ، فتقدم الي وقال : صدر امر بالقبض على اناس كثيرين من الوطنيين لم اعرف منهم سوى الدكتور شهبندر وحسن بك الحكيم وسعيد بك حيدر وانت منهم ايضا فخذ لنفسك الحيلة واعمل ما يقضي عمله . فشكرته على ذلك ثم اخذت افكر في الامر فتارة كان يخطر ببالي الحرب وهذا فيه ضياع الجهود ذات التي بذلت في سبيل القضية الوطنية ما فيه . وطورا الاستسلام فيمر في مخيلتي عندئذ تلك المظالم المروقة عن ارباب السلاطة مالا يحتاج الى بيان ، فعولت اخيرا على تسليم نفسي ، وفي المساء قصدت ادارة البريد والبرق لاعمال خاصة فصادفت حضرة الاديب السيد معروف الارناؤط أحد صاحبني جريدة فتى العرب فاجبرني انه قبض

بملء فيه مشيرا بكوننا والينا : « فليسقط الخونة فليسقط مدير الشرطة ومفوض التحري ورجالهم الاوياش » سرا ، اما والله لا نتقم منه انتقاما ان ينساه ابدا . فقلت له : اذا كان مينر افندي غير مطلوب من قبل الفرنسيين فانصحك ان تصرف النظر عنه ولا تنتقم يكون خير لك واكرم لنفسك . فوجم ولما اصررت عليه قال بصوت خافت : « مطلوب » .

ثم خرج وعاد ضاحكا لان مينر افندي قد حضر فسالته اين وضعته ؟ فقال : بمكان يليق به ، ومن ثم علمت انه في غرفة المعايينة فقلت : الا خوف عليه من الجرائم هناك ؟ فظمأني وذهب ، وبعد ساعة اتاني شرطي يدعي حسن افندي المغربي وقال لي : تفضل ، فخرجت وياه وركبنا سيارة كانت تنتظرنا في الباب وركب معنا شاب بالبسة ملكية فهمت منه انه من البقاع في مدرسة الشرطة وانه وكل اليه والى شاب آخر امر حراستي تلك الليلة .

وقفت بنا السيارة امام مخفر الشيخ حسن في اول طريق الميدان فاستقبلني مفوض المخفر محمود لطفي باحترام وبشاشة وصعدت الى الطابق الثاني حيث وجدته قد حضر لي سريرا لطيفا ولا انكر ان الغرفة نظيفة وجامعة لاسباب الراحة ، وبعد حين حضر طعمامي من البيت فأخذته وتعشيت وقد كان الشرطيون هنا باجمال على جانب من الملاطفة ولسان حالهم يقول :

ما حيلة المرء والاقدار جارية عليه في كل حال ايها الرائي
القاه في اليم مكتوفا وقال له اساك اياك ان تبسل بالاء

قضيت معهم ليأتي امارتهم واتهمكم على معاملة الافرنسيين التي لا تزلزل المبادئ ولا تضعف العزائم . وفي صباح الجمعة حضرت سيارة فائقني الى دائرة الشرطة فجلست في غرفة في طابقها العلوي كان ينام فيها رهط من الشرطة . وفي تلك الاثناء

له : لا علم لنا بشيء من ذلك ، فاستيقظ الشرطي على كلامنا فصرفه من امام النافذة ولكن اخي اجابه على عمله بقوله : وهل تظنون ان المسجون ترهبنا وتحول امانينا . ثم انقطع الحديث ولم اعد أسمع شيئا .

وبعد الظهر جاءني شرطيان اثنان وعادا بي الى دائرة الشرطة فلقيت على بابها حلمي عزيز الذي لقيته البارحة فاستقبلني بوجه بائن بخلاف استقباله السابق ، واخذ يلاطني وقدم الي كرسية وجعل يقص علي اخبار البلدة وانها هائجة بسبب توقيعنا وانه عقدت في الصباح اجتماعات عديدة والمظاهرات على وشك الانتشار ، وبعد هنيهة حدثت ضجة عظيمة في الدائرة وجلبة واختلط الحابل بالنابل باسباب المظاهرات التي ابتدأت .

هذه اخبار اخواننا الثلاثة الذين اوقفوا معي ذكرتها باختصار نقلا عن مذكراتهم وقد علمت يومئذ ان اخا رابعا وهذا السيد المعينقي نام ليلة في القسلة الحميدة ايضا ، وسأذكر ما جرى له في الوقت المناسب .

الاجتماع الشعبي بهوة القوتلي وتقديم الاحتجاج للقناصل :

ذكرت في آخر الكلام ان المدير اختلى بسيدية ييجون مستشار الشرطة والرئيس تيريه معاوين أرباوس ، بعدما ودعني السيد عثمان الشرباتي والسيد سعيد بك حيدر والسيد سعيد عبد بعد هنيهة عاد الي يقول ان ليفيا من الرجال اجتمعوا بهوة القوتلي منذ الصباح وهيوا صورة احتجاج للدول على توقيعكم وقد تعقدت فرقتهم الشرطة بعد ان ضبطن الاوراق التي بأيديهم ، وقد تعقدت الآن المسألة لان الفرنسيين قرروا استلامكم خوفا من تقصير شرطة الوطنيين وعجزها عن القيام بما اودع لديها ، وبلغني ان المحتجين قرروا الاجتماع في الجامع الاموي ليخرجوا منه بعد صلاة الجمعة بمظاهرة وانا انتظر التطورات على آخر من الجمر .

على حسن بك وسعيد بك فقلت له : انا قريبا يقبض علي ايضا . ومن ثم اخذت افكر في الذهاب بنفسي الى الشرطة والانضمام الى رفقاائي وانا كذلك اذ مر امامي مفوض التحري الشعبية الافرنسية ابو حاتم وتظاهر انه لم يراني ، وبعد مرور دقيقتين اذ الشرطي يدعوني لمقابلة مدير الشرطة ، فذهبت معه ووصلت الى الدائرة حيث لقيت على بابها المفوض حلمي عزيز فاستقبلني بوجه مؤدب الانتقام والفرد وسبب ذلك طعني عليه وعلى مديره ورجال الشرطة اجمالا ، واطهار ما يركبون من الدعارة والفسق في المدينة دون جياء ولا وجل ، فادخلني الى غرفة موبوءة بالجراثيم تعطي فيها الاجازات للخطاطات واخذ ينشئ بالبستي وينشها فلم يجد شيئا ، ولحسن الحظ انني كنت تركت مسدسي في البيت قبل ان اغادره ولولا ذلك لكان لضبطة شأن عظيم غير اثر المظاهرة . ومن ثم نقلت الى غرفة في الطابق العلوي من الدائرة تعال على شمسارح سليمان شفيق باشا فرأيت عن بعد جمعا غفيرا من الشبان هتفوا لي حالما تعارفت الوجوه واشاروا بمناديلهم ، فلما ابصرهم الشرطي المكلف بحراستي وأسمه عارف افندي كلفني ان انتقل الى جهة ثانية من الغرفة .

وبعد نحو ساعتين دعاني رئيس القسم العدلي صادق افندي المغربي بصحبه حلمي افندي عزيز الى سيارة كانت تنتظرني في الباب ، فركبت وسارت بنا الى جهة ساحة الشهداء فهمس في اذني الشرطي اننا ذاهبون الى المنزل (بناية العابد) . فلما وصلنا ادخلت الى مطبخ هذه البناية فرأيت فيها شابا يهوديا من التبعة الامريكية اسمه يوسف ، وآخر من اهالي صيدا فلافطاني وخفقا عني وحشة السجن .

وفي الصباح اطلت من النافذة فرأيت شقيقي صلاح الدين فقال : (هل انتم مسافرون لانه اتصل بنا انكم ستنتفون) فقلت

الى ابنة خالتي الانيسة نازك العابد قلت لها فيها : « ان دائسرة الشرطة قبضت على حضرة الدكتور شهبندر واخوانه وقد اعتبر الوطنيون ذلك فرصة لاطهار عواطفهم ورغائبهم ، وانت من اعظم الوطنيات اخلاصا للبلاد ، فأود منك مؤازرة عقيلة الدكتور والسعي الى عمل مشترك يظهر من السيدات يكون فيه تأييد للحركة الوطنية » . ثم ذهبت الى دار الحاج اديب خير فتحدثنا قليلا في هذا الموضوع وبينما كنا على طريق عرنوس اذ صادفنا عثمان افندي الشرياتي ، فعلمنا منه ان الوطنيين سيجتمعون في قهوة القوتلي ليجتمعوا على سجن من سجن من رجال البلاد ، وذلك اذا لم يطلق سراحهم في الساعة المعينة يعني في الساعة العاشرة . مشينا على مهل حتى وصلنا الى قرب ساحة الشهداء حيث اطل علينا حليم بك حروش من شرفة فندق فكتوريا ، فقصدا الى فوجنا في غرفته الامير فائز الشهابي وهما يتحادثان عن الحادثة الكرنية فاشترطنا معهم في الحديث ، وعلمنا من حليم بك ان مدير الشرطة قدم الى البعثة قائمة بأسماء جميع الرجال الذين اشتركوا في وداع المستر كراين ، حتى انه ذكر فيها اسم ابن شقيقه - يعني اسمي - مرتين ، قال السيد توفيق : ثم نظرنا الى مدخل دائرة الشرطة فرأينا السيارات تأتي بكل من اخواننا على حدة حتى اجتمعوا كلهم هناك .

الانتقال الى الجامع الاموي :

وقد مضى نصف ساعة على الموعد ولم يطلق سراح احد فعلمنا ان الحكومة لا تريد ان تغني بوعدها ، حينئذ ذهبت السي تهوة القوتلي فرأيت الوطنيين وجدت مغرض التحري ومفوض الشريطين يكتبون اسماءهم فيها . فجلست مع الوطنيين فكتبت اسمي مع اسماءهم ، ثم دخل علينا رئيس القسم العدلي يصحبه خمسة من رجال الشرطة فقال : « باسم القانون يجب ان تنفروا » وقام من بيننا محمد بك اسماعيل فنأدى الى الجامع الاموي اياها

وقد علمت من اخبار المجتَمعين ما يأتي : ان عددهم لا يعرف بالضبط ولكنهم ملأوا القهوة وكان بينهم محمد بك اسماعيل يحيى جياتي وعبد الستار بك السندروسي مدير رسائل النافعة ومحبي الدين بك صادق قائد الموقع في الشام سابقا وحسن افندي الحلواني (تاجر) وحسن افندي الطرايشي (تاجر) وصبري افندي البديوي (ضابط في الجيش التركي والعربي) ورشدي افندي (صحافي) واحمد افندي ابو رش (تاجر قوميونجي) وجميل افندي جمعة (صاحب محل طحين) وعادل افندي شيخ الارض (صحافي) ورشدي افندي الحكيم (مميز ديوان الرسائل في العدلية وصحافي سابقا) وعبد الهادي افندي دياب (تاجر) وعارف بك الادلبي (قائد اركان حرب في العهد التركي) وحسن بك الزنبركجي (قائد في الجيش) وتوفيق افندي القضماني (قائد في الجيش) .

توفيق الحلبي يتحدث عن الاجتماع :

ونرى للدلالة على ما حدث من التطورات ان نذكر الخلاصة الآتية من مذكرات احد الاخوان الذين لعبوا دورا مهما في هذه الحركات وهو السيد توفيق الحلبي :

« بعد ان ودع الناس المستر كراين قابلت الدكتور شهبندر تجاه فندق فيكتوريا وافقنا على ان لا نتغيب عن الحكومة فيما اذا رغبنا في طلبنا ، وذلك ادعى لانتشار الفكرة التي نشدها ، وهكذا كان فقد قبضت الشرطة على الدكتور شهبندر ورفقاه ، وفي مساء ذلك اليوم سمعت من السيد عثمان الشرياتي ان الحكومة وعدت باطلاق سراحهم في اليوم الثاني صباحا في الساعة العاشرة . ثم قال بت تلك الليلة قلق البال وذلك لا لسجن الدكتور واخوانه بل خشية اخلاء سبيلهم لان الفرصة لا تزال سانحة لتوسيع نطاق هذه الحركة وظهورها في العالم السياسي بأعلى المظاهر ، فصممت على هذه النظرية وتمسكت بها فكتبت بطاقة

قبضت الحكومة على السادة الاخوان فلان و . . .

اتعلمون لماذا قبضت الحكومة عليهم ؟ انها فعلت لهاتفهم للاستقلال فاننا متألم من الحالة الحاضرة وأهتف لاستقلال بلادي ايضا . فمن كان مثالا مثلي فليذهب الان الى البعثة نفسها والى قنصل الدول وليحتج على سجنهم ويضم صوته الى صوتهم . وهنا علا الضجيج والنداء (فليحيا الاستقلال التام) : نحتاج نحن متألمون . ثم قلت : ايها الاخوان ان المستر كراين قد اوصانا ان نعقب قضيتنا بالطرق المدنية لا بالطريقة القديمة يعني بالطرق السلمية لا بغيرها ، فأرجو منكم اتباع نصيحته واستعمال التؤدة والسكينة . ثم تكلم بعدي الدكتور خالد الخطيب فالسيد محمد الشريقي فكان لكلام الجميع اعظم تأثير في نفوس المستمعين الذين هاجوا وماجوا وخرجوا من الجامع وهم على اشد درجات التحمس ، يقصدون الحكومة للاحتجاج « . هذا ما ذكره توفيق افندي الحلبي .

خالد الخطيب ينظم العمل :

اما الزميل الدكتور خالد افندي الخطيب فانه قال ما يأتي :
« على اثر مظاهرة الوداع للمستر كراين عاد كل منا الى عمله وب نفسه ما بها من الفجطة والسرور من مظاهر تيقظ الشعب . وعلمت في المساء ان الحكومة قبضت على السادة الدكتور شهبندر واخوانه فدعيت على اثر ذلك لفيغا من الشباب الوطنيين المخلصين الى داري منهم السادة عبد الستار بك السندروسى ومحمد بك الشريقي معلم الاديات المريضة في مدرسة برلينز وسكرتيرها والاستاذ جميل افندي الحموي الصحافي وابراهيم افندي الحقوقي وعليه افندي الشواف من طلبة القسم الطبي والدكتور سيف الدين البستاني والدكتور ابراهيم ادهم والضابطان فائق افندي البرازي وعبد الرزاق افندي البكري وغيرهم فدام الاجتماع الى نحو الساعة

الاخوان . وهكذا تفرقنا .

وبينما كنا خارجين من القهوه قابلنا رئيس القسم الاداري نقولا افندي شاهين ومعه ١٢ شرطيا فلم ير حاجة للكلام ثم قال توفيق افندي : اما انا فاني سلكت الطريق الى سوق الحميدية حيث التقيت بالدكتور محمود بك حموده وسليم افندي عبيد وبعض التجار ورايتهم يتذكرون عن اخلاف الحكومة بوعدھا ، اذ جاء سميد افندي عبيد فقال : اننا اخذنا عهدا من مدير الشرطة انه اذا لم يحتج الاهلون في هذا اليوم ولم يحدث تظاهرات فقد تطلق الحكومة سراخ الموقوفين ، فقلت : ان الحكومة تكنت عهدھا في المرة الاولى وستكثفه في المرة الثانية ، وما القصد من هذا التسوية الا ربح الوقت والانتظار ريثما يمر هذا النهار ، فنقوتنا صلالة الجمعة . قال سميد افندي عبيد : ان عثمان افندي ذهب الى الجامع ليخبر المواطنين ان يعدلوا عن المظاهرة . قال السيد توفيق : فذهبت حينئذ انا والسيد سميد واجتمعنا في الجامع الاموي بشمان افندي ومحمد بك وغيرهما فاقنعتمهم وبينت لهم ضرورتها وان المصلحة تتطلب حركة واسعة ، ثم قلت لهم : اني صاعد الى السدة وربما تكلمت بما يخطر في بالي فلم يردوا جوابا .

توفيق الحلبي يخطب في الجامع :

صعدت الى السدة وبعد فراغ الامام من صلاة الجمعة خطبت في الناس قائلا : ايها الاخوان الكرام ، لقد زار دمشق منذ بضعة ايام المستر كراين رئيس اللجنة الامريكية عام ١٩١٩ ، فبلغ الناس انه جاء ليستطلع رأي السوريين في مستقبل بلادهم فاجتمع به منهم خلق عظيم من علماء وادباء وتجار وبنوا له شكاوهم وما هم عليه من الضيق والشدة وبينوا له رغبتهم في الاستقلال التام الناجز ، وصباح امس ودعه لفيغ من اهل الفضل واظهروا له في خلال الوداع شعورهم وهتفوا للحرية والاستقلال . ثم في المساء

بهم في اعماق السجون المظلمة ، وذلك لجرّد هتافهم للحرية والاستقلال وهما رائدا كل شعب حي فالامة السورية على اختلاف المذاهب والطبقات تحتاج بكل شدة على اعمال السلطة الفظيعة وتجاهر بطلبها الحرية والاستقلال ، فهما بغيتها المنشودة في كل آن واقبلوا يا سيدي خالص تحياتنا .

وقد وقع على النسخ الاربعة المسالفة الذكر عدد غير قليل من الاطباء والمحامين ومأموري الحكومة وارباب الحرف وطلاب المدارس العالية . اذ في وقت الصلاة فحملت القطع وصور الاحتجاج وقصدت الجامع الاموي . وفي اثناء المسير اثنائي شاب واخبرني عن لسان الشرياني ان الدكتور شهبندر واخوانه نفسأهموا او سيتأهمون مع الحكومة ويطلق سراهم في القرية وهم لا يرغبون في المظاهرة ، فلم امر لذلك سمعي بل بقيت انتظر انتهاء الصلاة . وما كادت تنتهي حتى سمعت السيد توفيق أفندي الحلبي يخطب من على السدة ويدعو الناس للامر الذي قرناه مع اخواننا ولم يكن بيننا وبينه سابق تفاهم على ذلك وما انهى كلماته حتى وثبت الى السدة . المقابلة للمنبر فقلت : ايها السادة ان الحكومة في اليوم الماضي قبضت على الدكتور شهبندر واخوانه وزجتهم في ظلمات السجن لهتافهم لحرية البلاد واستقلالها ساعة وداع المستر كراين الامريكي .

ايها السادة : ما سمعنا قط ان العدالة تقضي بسوق رجال الامة الى حيث يسجن قطاع الطرق والقتلة والسايقون وذلك لجرّد هتافهم لاستقلال بلادهم وحريةها وهما حقان من الحقوق التي منحها الله للشعوب واقرتها العدالة وقد لحق الامة السورية عار من ذلك لا يكفئه الا ان تذهبوا بجموعكم المتراصة متظاهرين بمظاهر سلمية تعرب عن شدة تمسككم بالسلام والمدينة فتحتجوا لدى قناصل الدول ومعتمديها على هذا العمل الفظيع وتطلبوا اليهم ان يبنلوا احتجاجكم هذا وارادكم للحرية والاستقلال

الحادية عشر ليلا وكانت الاحاديث تدور حول ما يجب عمله الآن بعد سجن السادة الاخوان فكان آخر ما عزمنا عليه القيام بمظاهرة كبرى بعد اداء صلاة الجمعة ، ثم قرر الحاضرون انتخاب لجنة لتنظيم شؤون المظاهرة فوقع الانتخاب علي وعلى السيد السندروسي والسيد الشريقي فضرنا موعدا لاتمام العمل في اليوم الثاني .

اجتمعنا في الصباح في الموعد المعين فقررنا ما يأتي :

أولا — ان اتكلم خطيبا في الناس حائا على المظاهرة والاحتجاج .
ثانيا — ان يخطب بعدي السيد الشريقي حائا على المظاهرة والاحتجاج ايضا .

ثالثا — ان نحضر قطعا من الورق كبيرة نكتب عليها ما يشير العواطف وتوزيعها على الفتيان لنشرها بين الناس عند ظهور الجماهير المتظاهرين .

رابعا — ان نكتب صورة احتجاج نسسخ منها اربع نسخ نقدم واحدة منها لكل من قناصل امريكا واكتلترا وايطاليا والبعثة الافرنسية .

خامسا — ان تتلى صورة الاحتجاج على مسامع المتظاهرين امام دار الحكومة المحلية .

وبعدما اتخذ هذا القرار كتبنا القطع المذكورة فكانت اربعا الواحدة : (الله والوطن والانسانية) والثانية : (باسم العرب نحيا وباسم العرب نموت) والثالثة (يحيا الاستقلال العربي التام) والرابعة : (الاستقلال حياة الشعوب) ثم نظمنا صورة الاحتجاج واليك هي ملخصة :

ان الشعب السوري الحر يرجو من حضركم تبليغ حكومتكم احتجاجه الانبي :

» ان السلطة في دمشق قبضت على خيرة رجال سورية ورمت

عباد الدراهم وخدمة المستعمرين بكلامي بل استمروا على مننع الناس من المظاهرة، وحاولوا الرجاعهم من حيث اتوا، فلم يفلحوا بل ان الشعب المتحمس اخترق صفوفهم .

ولي الفخر اني سرت في الظلمة فكان الضرب ينهال علينا من كل جانب ونحن نشهد الاناشيد الوطنية ونحبي الاستقلال حتى بلغنا باب البريد حيث اشتد الخصام والجدال بين المظاهرين وهم يعدون بالآلاف ، وبين رجال الشرطة وقد بلغ الجيش بهم انهم اشتهروا مسدساتهم وصوبوها الى صدور الامة ، وكان البادى في هذا العمل شرطي من حماه من بيت الشرباتي ، وضع هذا الشرطي فوهة مسدسه على صدغ السيد عبد المجيد الطباخ شقيق القائمقام محمد بك الطباخ وهدده باطلاق النار اذا لم يرجع ، فثارت الامة على هذا الشرطي وهجمت عليه فانزعت منه مسدسه ولولا المصاحبة لما اكففت منه بأخذ سلاحه . هنا سمعت رجلا ينادي مستفيشا يا دكتور خالد فالتفتت فرأيت عبد الستار بك السندروني بين ايدي جماعة من الشرطة يشعونه ضربا ويجرونه نحو المخفر ، فأقمضت عليهم وفرقتهم عنه ففر من بين ايديهم .

وما زلنا نواصل السير ونحن نشهد ونهزج والحماسة آخذة منا مأخذها حتى صرنا بمنتصف سوق الحميدية ، وكانت الحوانيت كلها مقفلة اللهم الا القليل منها وكان اصحابها يقفون لتحية المظاهرين بالتصفيق المتواصل ، بل ان اكثرهم لم يكتف بذلك ، بل كان يلقح حانوته وينضم الى صفوف المظاهرين . هنا ظهر الخيالة الشرطيون يتسابقون على ظهور خيولهم ويتحامسون للهجوم بواسطة بعض الكلمات التي تستعمل في بلادنا عادة لاجل التحميس مثل (عليهم عليهم) و (عندك عندك) فمزقوا صفوف المظاهرين وخيولهم فتدو بين الناس كالبرق الخاطف والمسدسات مشهورة بأيديهم وهم يحذرون الناس من التقدم باطلاق الرصاص اما أنا فالتقيت بنفسي بين السنة النار وحوافر الخيل وناديت

وتفانيكم في سبيلهما الى حكوماتهم، فتسمعون بذلك صوتكم مشارق الارض ومقاربها ، وترفعون عن أنفسكم عارا الحق بكم وبالامة العربية أجمع . ايها السادة : ان لكم خير قدوة واعظم مثال باخوانكم المصريين فانهم جعلوا الازهر مقر مظاهر انهم الوطنية فليكن مقر مظاهر انكم الجامع الاموي . وهنا انبرى من الجهة المقابلة السيد الشريقي فتكلم بضع كلمات لا تخرج عن المعنى السابق وانا عدت ثانية الى الكلام فقلت : وقد نجحت الامة المصرية ونالت معظم ما تريد وانتم ستنالون مثلها ان شاء الله . سيرا فان الامة المتكاثفة لن يضمضمها قوة ولا تقف في سبيلها عثرة . وهنا نشرنا القطع المكتوبة وفرقتها على الشبان .

انطلاق المظاهرة من الاموي :

سارت الجموع بالتهليل والتكبير واستولى الخشوع والحماس على قلوب الجماهير وانهاالت الدموع من الاماق واصفرت وجوه الجواسيس الذين كانوا يشاهدون كل ذلك بأعينهم ويسمعونه بأذانهم ، ثم خرج الناس من الباب الغربي للجامع وكان منظرهم اقبحه بالبركان المضطرب وكانت القطع الماثورة بينهم واصوات التهليل والتكبير والهتاف بالفة عنان السماء .

سرت مع من ساروا وما كدت اصل باب الجامع حتى رايت رجال الشرطة وعددهم زهاء الاربعين بين مفوض وشرطي وعلى راسهم حسني افندي الامون مفوض المركز منهاين على تلك الجموع بالضرب بالاسواط والقرع بالعصي من غير شفقة ولا رحمة، فطوحت بنفسي الى ما بينهم فأصبت بضربتين شديتين على كتفي وعلى ساق رجلي ، فصرخت في وجه الاشرار على رسلكم يا رجال الامن ، كفوا عن هذه الامة المسكينة ، فانها تتظاهر مظلومة سلمية لتمحي عن نفسها عارا الحق بها وتطلب استقلال بلادها وان ما تتقاضونه من الراتب الزهيد لا يغنيكم عن امتكم ووطنكم شيئا . فلم يكثر

الشرطة فرأيت مديرها حمدي بك الجلاذ واقفاً بالباب مصفراً الوجه يود لو يخفي اضطرابه ولكن هيهات ان يتم له ذلك . فنظرت له محفراً وقلت اتق الله في وطنك ايها الخائن . فلوى وجهه عني لا يحير جواباً . ثم ادخلوني الى غرفة هناك لها كوة تشرق على دار الحكومة وبعد هنيهة اتوا الى هذه الغرفة بنحو ثلاثين من الفتيان . وفي الساعة الرابعة مساءً جيء بي الى غرفة مفوض التحري حلمي عزيز حيث فتشست البستي واخذت مني بعض الاوراق ومنها صورة الاحتجاج المذكور .

* * *

اضطراب الشرطة وغياب الجمهور :

هذا ما قاله الاخ الدكتور خالد اما نحن الاربعة فكنا فسرنا بالنديق بما كان يجري وبما تخبئه الايام لنا وان كنا شاعرين بالاضطراب العام المستحوذ على اهل الوطن ، وكنت لا ازال في مكتب المدير وهي الغرفة المجاورة لغرفته فأتى الى جانبي واقتراب مني وقال وعلائم الاضطراب بادية على وجهه : انني انتظر بفارغ الصبر مجرى الحوادث ثم ذهب الى التلفون وطلب مخفر الحميدية بصوت مرتعف متقطع وقال : « اخبروني هل جد شيء ؟ » وبعد هنيهة عاد الي اشد اصفراراً وأكثر اضطراباً من الاول وهو يقول : (اشتغلت اشتغلت والان التعتت) ثم هورول على السلم وهو ينادي رجال الشرطة بأعلى صوتة ويخاطبهم بكلام معني من فهمه صرير الابواب المفقة وصوت وقع الاقدام المتراكضة والجلبة المظلمة الحاصلة من الارتباك ومن اختلاط الحابل بالنابل . وبعد قليل رأيت الناس من الغرفة التي كنت فيها متراكضين ثم تبعتهم العربات والسيارات والكل يصيحون بأعلى اصواتهم (ولك هربوا) ودلت حركاتهم على انهم كالمخاطط بعقلة لا يدري اين يلجأ ، وكانت حركاتهم هذه تؤثر في الرائحين والفادين من ابناء السبيل فيعملون

بالمنظرين بأعلى صوتي (اين الامة الحية لا يخفيها بنساق المستعمرين واجرائهم ؟)

فتقدمنا والصياح يعلو من كل جانب ونحن ندحر الخيالة حتى اول شارع السنجدار الذي كانت حوايته مفقة من اولها الى اخرها ، فلما شعر الشرطيون بفشلهم اطلقوا علينا العيارات النارية من مسدساتهم وبنادقهم فكنت تخال نفسك كاذك في ساحات الورقى من كثرة اطلاق النار ودوي الرصاص ، اما المتظاهرون فانهم استمروا على التقدم وكلهم حافظوا على التروي والنظام ، ولم يقابلوا هؤلاء الشرطيين بشيء من العنف والثورة . وقد بت آمن بتعمل الامة المئين كما ان ايماني باولئك الوطنيين الذين تستروا لباس رجال الامن وسميهم الخفي لاننشال الفوضى والاخلال بالامن زاد ايضا .

وصلنا الى قرب نزل اككرا حيث كان بانتظارنا ليف من الشباب على رأسهم عادل افندي شيخ الارض « احد محرري جريدة فتي العرب » فاستقبلونا بالتصفيق وتحية الاستقلال وانضموا الى مجموعنا وساروا معنا حتى بلغنا المود التذكاري المنصوب بساحة الشهداء . وهنا هجم علي شرطيان شهاهرين السلاح فقال الواحد منهما للاخر اقتله فانه هو الذي اوصلهم الى هنا ، فاطلق علي طلقة سمعت حفيف رصاصته قرب اذني ثم صوب الثاني مسدسه الى رأسي قائلاً أترجع أم أفرضه ؟ فأجبت بكل هدوء لو كنت رجلاً لفعلت قبل ان همدت ثم هجمت عليه فدفقته وقذفته الى الهواء .

خالد الخطيب يوبخ حمدي الجلاذ :

وما زلنا سائرين حتى بلغنا دائرة الحكومة ، هناك علوت جادة الرصيف وتلوت الاحتجاج المذكور آنفاً . وما وصلت الى نهايته حتى احساط بي عدد من الشرطيين فساقوني الى دائرة

يبقى في الغرفة غيري ، فلما أغار الخيالة واشتد إطلاق النار وعلا الضجيج ودب الرعب في القلوب واخذت المركبات والسيارات والمارة في الهرب دخل علي شرطي مضطرب أوكل أمر حراستي اليه على ما ظهر لي وهو من الشام فقلت له وكنت واقفا على الشباك والمارة يتطلعون نحوي « اظنك تريد مني ان انتقل من موقعي ؟ » قال ارجو منك ان تشرف الى هذه الغرفة ، وأشار الى الغرفة الثانية ، فانتقلت اليها فوجدت فيها رفيقي حسن بك وسعيد بك وكان قد نقل اليها الاول قبلي ببرهة فتصافحنا وتحدثنا عن هذه النتائج الباهرة بالهمس خفية ان يسمعا الشرطيون العدديون الذين كانوا معنا في تلك الغرفة ، ثم انتقلنا الى ذكر ليلتنا الماضية فقص كل منا قصته مختصرة وما جرى معه .

واخيرا سألنا رجال الشرطة هل نحن بحاجة الى شيء ؟ فطلب حسن بك طعامه من غرفته وكان لحما مشويا ولبنا خائرا فتفقدنا جميعا ، ثم طلب ان يفتح له الباب ليفسل يديه في الطابق الاسفل التي كان فيه قبل ان ينتقل الى غرفة سعيد بك فعارض بعض الشرطيين ، ولكنه لم يلتفت كثيرا الى اعتراضهم فنزل على السلم فوجد نحو ثلاثين شابا من المظاهرين يدخلون الى الغرفة الاولى على اليسار ومن بينهم السيد ياسين الخانجي الذي قال : اتوا بنا الى هنا لاننا نظاهرونا بالحق والمدالة والاستقلال . فأجابه حسن بك : « ليحيا الشباب الناهض » .

وضع الاغلال بايدينا :

عاد الينا حسن بك وبينما كان يقص علينا ما رأى من علائم الحياة وشيم النشاط آذ دخل علينا ضابط افرنسي برتبة رئيس في الساعة الثالثة فقال : تفضلوا فتحققنا ما كان ذكره لنا المدير من امر تسليمنا الى الدرك الافرنسي ، فخرجنا فرأينا في الباب اربعة دركيين فرنسيين ينتظرونا وكان خلق كثير يترقب سير

عملهم ، واخيرا سممت طلقسات نارية متعددة ومتوالية وبعده الخيالة الشرطيون يتساقطون امامي .

قال لي الاخ منير افندي شيخ الارض ، وكان لا يزال بعد في الحجرة السفلى ، قد رأى بعينه كل شيء : (بعد ما قص علي حلمي افندي عزيز اخبار الهياج الحاصل في البلدة فوجئت بصياح مدير الشرطة حمدي بك الجلال قائلا الى السلاح يا شرطيون خذوا بنادقكم بأيديكم اقفوا باب الدائرة اياكم تدعوهم يقتربون منها عليكم ان تقذفوا المرفقات وتطلقوا الرصاص على المظاهرين . وكان صوته يدوي بالدائرة (ذوي الصاعقة في ليلة عاصفة) فلما سمع المفوض حلمي افندي صياحه اسرع الى الخزائن فأخذ منها مفرقة (بومبا) واتجه نحو باب الغرفة فتبعته ، واذ رأيت الجلال بوجه شاحب لا يعي على شيء ، وبعد قليل سمعت دوي الرصاص في الفضاء وصوت الجمهور المظاهر يهجي الاستقلال وهو مقترب من الدائرة فذرفت دموعي لا خامرني من السرور ثم التفت الى المنافذة فرأيت السيارات المصفحة والمدببات والجنود تسرع نحو دائرة الحكومة . وبعد حين سكنت الضجة وخيم السكون .

توقيف ثلاثين متظاهرا :

دخل علي بعد ذلك احد رجال التحري فسالته عما جرى فقال : ان الحكومة قبضت على نحو ثلاثين شابا ، ثم فتح لي باب الغرفة قليلا فرأيتهم ورأيت في مقدمتهم أخي السيد عادل وبعد هنيهة دخل علي حلمي افندي وكلفني أن أصعد الى الطابق العلوي واخبرني على الطريق اننا سنسلم الى الدرك الافرنسي .

حديث مع الحكيم وحيدر :

اما انا فكنت لا ازال في مكتب الادارة وكان فيه ايضا رفيق افندي الجلال وجوحد شاوي من الموظفين المالكين في الشرطة ، فلما احسا بالاضطرابات انسلا من عندي ، وانسحبا بالنظام فلم

الاطباء والمحامين وكبار الموظفين ان اخوانهم يكبلون بالاغلال ويساقون الى اعماق السجون لهتافهم للحرية ، وفي المساء ستعلم سورية من اقاصها الى اقاصها ان الزهور التي اُنبثتها الجامعات والكليات ودور الفنون تسحق تحت أقدام (الملتاريزم) السيطرة العسكرية . وفي الليل ستضئ أنوار في دور لم يعد اليها اربابها وسيبيت الأطفال والمجانن والشيوخ وراء الباب ينتظرون بلهفة وخفقان القلب جزءا من الفرائس التي اختطفها الذئاب الكاسرة السى الاوكار المظلمة والكهوف الموحشة ، ولا شك أن العالم في بحر هذا الاسبوع سيأبىه خبر عما عملته الام الرووم والربية الحنون مع من رفع عقيدته ونادى من اعماق القلب بصوت تفجر من ينبوع النخس العلافحة يطلب الحياة وينشد الحرية — عجا لهذا الغربي الذي نعى على الشرقي تعصبه وسقم آرائه في تقسيم البشر الى ملل ونحل وقام يصيح في الكتب (وفي الكتب فقط) من الحرية القناطر المقنطرة لا الاصواع ويفس على أخيه الشرقي منها بالذرات لا بالابواع ابريك قل كي هل يوجد تعليل آخر لذلك الكرم الحائمي وهذا البخل الماردي الا التعصب الذي يرمى به الشرقي المسكين لانفاظ ينطق بها لا وزن لها ولا معنى أو لراسيم وعادات تناقلها بالتقليد من غير تبصر وأعمال رديّة ؟ في حين يتعصب عليه الغربي بجميع الوسائل العملية لاضداد انفاسه بالاستصراخ للحضارة والاستنجاد بمؤلفي الكتب الخيالية واهل النظريات الافلاطونية !

الدرك الافرنسي ينقلنا الى بناءة العابد :

قسمنا الدرك الافرنسي الى ذوجين فكان نصيبني أن اكبل مع الاخ حسن بك وكبل سعيد بك مع منير بك شيخ الارض ، فنزلنا على السلم يتقدمنا الضابط الرئيس ويحيط بنا العرفاء الاربعة ، فما خرجنا من الباب الا وسمعنا صياحادوت له الدائر ، فاذا هو صياح الشباب الوقوفين ينادون فليحيا الاستقلال ، فلتحيا الامة العربية ،

الحوادث في الدائرة منهم مصطفى وصفي بسك وحسن فهمي بك الزنبركجي وغيرهما ممن لا يحضرني اسمائهم وكان قد التحق بنا منير افندي شيخ الارض أثناء ذلك ايضا . ولكن ما اشد دهشتنا لما أمر الضابط فقال : مدوا أيديكم فمددناها فأخرج الدركيون من جيوبهم السلاسل والاغلال فطوقوا بها ايدينا واقتلوا عليها كما تفعل على أيدي القتلة وقطاع الطرق والصوص ، ولم يخطر ببالنا قط أن نعامل في عمر دارنا بين أهلنا وبعد خدمة عشرين سنة للمصلحة العامة هذه المعاملة العظائشة التي لا تصدر عن أصغر صفار الموظفين الترك في عهد المسلم . قد لا يختلف الفريقان بالكرامة لنا ولكن لهؤلاء من الاختبار والدوق بل ومن العقل المسلم أيضا ما يجرهم عن ركوب مثل هذا الشطط الفادح لانهم يعلمون ان الاقدام على احتقار الحياة الناهضة في الشعوب عمل يثر ويولد الضمائر التي لا يئثم صدعها . ولكن انى الآلأبوس واساندته الذين تعرونا بين الشعوب الافريقية على الهزء بالمشاركة والاستخفاف بأديانهم ومذاهبهم ان يثوبوا الى الرشيد فيعلموا انهم في سورية ملقون بالدينين وعلى باب الامة العربية التي ما قط خضعت واستسلمت في حريتها وشرها ؟!

دعي المارشال ليوتي من مراکش أثناء الحسرب الى باريس ليجلس على كرسي نظارة الحرية ، ولكن بعد ثلاثة ايام فقط من تهنتته والتبريك له اتاه المورون لانه نحي عن العمل وأعيد من حيث انى فقد قال مجلس النواب عنه انه رجل لا يليق بمعية فرنسنا الحرة بالنظر الى كثرة مكته في افريقية في الماضي وقصوره على معاملة أهلها فماذا ينتظر مدير ليوتي وأذئاب اذنايه ؟ قد تكون الشعوب الافريقية في الماضي أطعمت المستعمرين في شرف الشرق ولكن انا على مثل اليقين أن الحراسة العسكرية وضرب الازهاب والارهاق سيولد في أضعف الامم الافريقية نظرة تدعو الطائشين الى التفكير ومن يعش يرى . عصارى اليوم سيعمل في دمشق امام

او ترسيانو قادمًا في سيارة وهو رجل اشتهر من تقريه من الفرنسيين وخدمتهم وتغانيه في محبتهم فاريتيه لعان السلاسل في يدي لعله يشعر وهو ينظر الى زميل من زملائه بشيء من احتشام النفس ويقول هذه سبة تلحق بكل طبيب في سورية وعار يلتصق بكل حامل شهادة عالية لانه لا يسمع بتاريخ هذه البلاد على تغير دولها وتنويع حكائهما ان عومل أحد من درجتنا لهتافه للحرية بمثل ما عوملنا به .



فذكرت الدموع من الاماق ، واكتسب هذا المنظر جلالاته تعجز دون وصفه الاقلام ، ويدل بصورة قاطعة على غفلة الدين دبروه وحمقهم وجهلهم بالبيئة التي يقيمون بها . فما مشينا بضع خطوات الا ورايت أمامي في المركبة المستر الى قنصل اميركا ومعهم الترجمان المذكور فؤاد الاجيل واخذتهما الدهشة من هذا المنظر ، ولم يخطر ببالهما قط ان تقدم حكومة متقدمة على مثل هذا العمل الشائن الذي يراد به ارباب الامة بتحقيق رجالها واهانتها بمحط آمالها ، ولكن تحولت دهشتهم حالا الى ابتسامات يقرؤ فيها المتأمل ما تنوقع من الاعمال ونرجو من الحوادث . ثم ما زلنا نسير حتى بلغنا ساحة الشهداء فاذا كل شيء فيها ساكن كأن على رأسه الطير حتى خيول المركبات جمدت في مكانها والناس وقوف بوجوه الطير حتى خيول الدهشة والاشمئزاز والفضب وراء ذلك كله . حيرة تدل على جيشان في النفس لا يدري صاحبها متى ينفجر ، ثم سرنا في زقاق رايمي الى اول شارع النصر فراينا الناس مزدحمين في قهوة الشارع فانبرى من بينهم حدث يافع وصاح بأعلى صوته (لا تيأسوا ايها الاخوان) فاذا هو السيد صلاح الدين شيخ الارض اخو السيد منير وجانيه والده فاجابه اخوه باللغة الفرنسية فلتجيسا الحرية يا والذي فما كان من الرئيس الا وصاح في وجه السيد منير متوعدا وقال انه يمنع الاكل ويضعه في الجمرة أربعة ايام .

واصلنا السير في شارع النصر بين صنوف المزدحمين على الجانبين وكلهم يحول الدم في عروقهم . ولاحت مني التفاتة فرايت السيد حسن الطواني الوطني المتهب المعروف واقفا عند باب حديقة سورية ، فلما وقعت عيناه علينا ارتعش وارتجفت شفتاه واصفر وجهه ودلت حركانه كانه كان يريد ان يلقي نفسه بيننا فاما ان يخلصنا واما ان يساق معنا . وهنا رأيت الدكتور كوستي أيضا

ثياب التزويق مدى الدهر ولكننا عظامها على قارعة الطريق فصار يراها الصادي والفادي بشهادة أشرف الناس من الغربيين والشرقيين في العالم القديم والحديث ، حتى صار التزوير صنعة لازمة لدولة الاستعمار . سألني الضابط الرئيس بكل اهتمام ما شأن هذه الحوالة ؟ فقلت له : حوالة أعطيت لي لتصرف في سبيل البعثة العلمية ، فهز برأسه مستهزئاً وقال : ستعطي عنها الايضاح اللازم في الديوان العرفي ، ثم أخرج من جيبه مذكرة رسمية كتب فيها التهمة الموجهة إلينا وهي : « أننا نحن الاربعة متهمون باحداث مؤامرة لتغيير شكل الحكومة يتبعها عمل ارتكب أو بوشر بارتكابه لاجل تنفيذ ذلك » .

الدخول الى الحجرة المخصصة لنا وحالتها :

وبعد الانتهاء من تسجيل هويتنا وتفتيش البستنا ساروا بنا الى باب عليه الاقفال الضخمة والسلاسل الثخينة فقام البواب ففتحها ، وقبل أن نصل اليها صاح رجل مسن ورأنا مستهزئاً : (استقلال ؟ فليحيا الاستقلال . فلتحيا الحرية) فقلت في نفسي دياجة قبيحة ، ثم التفتنا فاذا شاب قصير مكترز أسمر اللون تدل هيئته على أنه من مستخدمي المستعمرين ، ولكن خفف ما بنفسي لما علمت أنه ولد عقوق لوالد عرفته في الماضي وهو الضابط الاربدي علي خلقي صاحب الحركات والسكنات في شرقي الاردن .

دخلنا من البوابة الى صحن كبير تطل عليه نوافذ صغيرة وأواب بالفرنجين من المسجونين الذين صاحوا من أعماق قلوبهم فليحيا الاستقلال وصاروا يشيرون الى كل واحد باسمه ، فسار بنا الدركيون الافرنسيون الى مدخل كبير يؤدي الى حجرتين متقابلتين إوابهما حديدية وعليهما السلاسل والاقفال ، فدخل أمامنا الى الحجرة اليسرى منهما وكان بها بعض السجناء من جنود الجيش المختلط ، فأمرهم بالانتقال، ثم قال لنا : هذه الحجرة لكم ، فدخلناها

السفينة في سجن القلعة

ساعة الوصول وتسجيل الاسماء :

وصلنا الى القلعة فضعنا سلماً قرب بابها من الداخل الى اليسار فدخلنا حجرة لتسجيل اسمائنا فقدمنا الى المسجل واحداً واحداً (فحل السلاسل من أيدينا) وأخذ يكتب الاسم واللقب والصنعة والعم والهوية بعد تفتيش محافظنا وجو بنسا فتفتشنا دقيقاً للاوراق . وفي النهاية كان يقيس قامتنا بعلامات مدونة على الحائط . وجرى أنهم لما كانوا يفتشون محفظة الاخ سعيد بك جيدر وجدوا فيها برقية بتوقيع ابراهيم بك هنانو الذي اقلق المستعمرين في بداية الاحتلال بعصيانته ووقف حسيكة في حلوقهم ، وهي جواب له على تهمة بالتبرئة والاخراج عنه ، فتمسك بها الرئيس الافرنسي في بادية الامر ، ولكن بعد ترجمتها نظر الى تاريخها فانقلب شأنها . ولا فتشوا محفظتي وجدوا فيها حوالة المستر كراين التي اشرت اليها سالفا فقام الرئيس لها وقعد وجعل يصوب فيها منظره ويقطب حاجبيه ويفتحهما كمن اهدى الى اكتشاف سر من الاسرار فظن فيها الفناء والكفافية ، وقال همسا لعريف بجانبه (تحول له شأن عظيم) فقلت في نفسي : نعم من أعظم الشؤون !!! . فهكذا ظن انه نال من سمعنا بالتخديش . ولكننا عرفنا دعائهم الباطلة من

كأنها الفيوم السوداء الملبدة فوق الأفق ، والسقف مؤلف من ثلاثة صفوف متوازية من أعمدة من الخشب غير لوئها الدخان والغبار حتى صارت بذية اللون كأنها مدهونة بدهان خاص ، وصار همي الوحيد من شدة الفراغ فيما بعد أن أستلقي على ظهري فأعدها فكانت تبلغ التسعة والعشرين عمودا في الصف الواحد ، وكنت كلما عدتها قلت في ضميري ما أشد تكيف النفس . بالأمس ما كنت أرضى تعداد أشرف الناس والاقتصار على أحاديثهم فما بالي اكفني اليوم بالنظر الى عمد السقف المحددة ؟!

وكان لهذه الحجرة أربع كوى اثنتان منها علويتان في السقف واثنتان بشكل نوافذ على الحائط الجنوبي ، ولا تتجاوز فتحسة الواحدة منها الذراع الرابع فكان نورها ضئيلا يعمي البصر والبصرة والهواء الذي يتخللها لا يكفي لحمل أنفاس السجناء ، فضلا عن حمل الابخرة المتصاعدة منها . ولو كانت فيما خفة الروح في هذا المكان القاتم كما هي في الفيل ، تعزينا بها عن ضيق عينيه . ولكن على كل حال كما تعزى بها عن ضيق عينيه . ولكن على كل حال هندسة الفيل طبيعية اصطلاح الناس أن يمتسوا أماسها ، وأما حجرتنا فلنا الحرية والحمد لله في تقدها . ويوجد بالزاوية الشرقية الشمالية من هذه الحجرة باب يؤدي الى حجرة دعواتها (مقصورة التواليت) لان فيها الحمام وتوابعه ومن محاسنها أن الداخل اليها لا يحتاج الى الاثاث والرياش ولربا لان المسكين من شدة الظلام الحالك فيها لا تستطيع ان ترى شيئا عدا أشباح الابواب الداخلية التي يضطر المرء أن يلمسها بيده تلمسا . وجرى اننا لما كنا عند المسجل رأينا ترجمانا حديثا اسمه خليل من بيت النحاس وهي أسرة مسيحية معروفة فأظهر لنا التودد والمطف ما لا ننساه وطلب اليها أن تكفه بما لا بد لنا منه فكتب كل واحد منا الى أهله بطاقة طلب فيها طعاما وقراشا ولباس النوم ، فقام بالخدمة أحسن قيام ولم ينم أكثرنا تلك الليلة الا وعنده من حاجاته ما كفل له بعض

في نحو الساعة الثالثة زوالية ، فإذا هي حجرة متوسطة الانساع ، اول ما يلتفت النظر فيها الرأحة الكريهة المنبعشة منها ، وضوؤها الضئيل من نوافذها الصغيرة ، ودف عريض يحيط بها مؤلف من اوصال حقيرة مكسرة فيها ثقب وفرجات ، وقد نخرها السوس ، وهو قائم على أرجل ارتفاعها نحو منتصف قامة ، فدخلنا وقعدنا على هذا الرف واخذنا نقالب الطرف في هذه الحجرة الغريبة ، وقد بهتنا وجمنا واخذت الدهشة منا كل ماخذ ، وصار كل واحد منا يخاطب نفسه ويسألها عما فعلت حتى أمسيت بجس (الدم) وبين جدران الحود ، افي نقطة نحن أم في الاحلام ! وهل خطر في بالنا أن نبنت يوما من الايام مع الذين كنا نعدهم مظهر من مظاهر الانحراف في الطبيعة الانسانية ونسعى جهدنا لدرء أخطارهم عن المجتمع ببث الدعوة لنشر التربية ومبادئ علم الصحة بين جميع الطبقات ؟ بالأمس كنا نقول : اذا أردنا تحسين النسل والخلاص من الدمامة خلقا وخلقنا فعليا الا ان نجعل الزواج خاضعا للرقابة العلمية فما بالنا اوبنا هذا المساء الى الحجرات التي بنيت في نظر الاجتماع للدميين ؟

ولما خمدت سورة الغضب فينا وحل الهدوء محل الاشمئزاز الذي يصحب السكون النفساني عادة أصبح باستطاعتنا ان نرسم بيتنا الجديد ونذقق النظر في هندسته وتزيينه وطلائه ونمتنع النفس بانائه ورياشه ، فإذا فراش أرضه أثيرة فيها النجوم والاعوار وقد زاد في جرائيمها وهوائها ان عين الشمس ما وجدت اليها منفذا وعين السجنان أمرت بمراقبة الداخل والخارج من الانسان فقط ، ولم تؤمر بالتعرف الى الحيوان ، وحيطانه تعلو على الارض نحو أربع قامات ، وتظهر لأول وهلة أنها مطلية بطلاء رمادي أترق ، ولكن هذا الطلاء هو في الواقع مزيج من أوساخ وافرازات ، غير أن كثرة الادهان منعت التمازج التام بينها ، فكانت ترى اللطع والاطخات ذوات الاشكال المتنوعة مما يشبه اللذنيات الى ما يشبه الاشباح

وأنشيدنا وخطبنا ترون في أنحاء القلعة مما اضطر المحافظ الافرنسي أن يحذرنا من عملنا .

أما النوم فكان على بعضنا حراما بالنظر الى تغير المحيط والتحمس والأفكار السريعة التي كانت تدور في مخيلتنا دوران السينما ، خصوصا وقد خرجت علينا من الجدران وثقوب الدف جيوش من البق استمرت مرعانا وطابت لها دماؤنا فكاتبها عرفت ان هذه البشرية الناعمة تختلف عما تعودت عليه من البشر القاسية الخشنة فكنت تراها تنهش من لحمنا نهشا لو رآه الكولونيل كانرو (وكيل المفوض السامي) لطار فرحا . وغني عن البيان أن الذين لم يحفلوا ببنادق الفرנסيين لا يابهون كتسير المراثف البق ولسع البرافيت .

قمنا في الصباح على تحية الاستقلال ، وبعد هنيهة دخل علينا خدمة السجن يحملون لنا جريتنا من الخبز الاسمر ومغلى القهوة الموضوع في سطل من سطل الجنود القذرة فلم نمسسه ولم نذق طعمه بل اكتفينا بما زاد عنا من كسر الخبز وذخيرة الامس ، ثم إخذنا في التسلي والقاء الخطب وأنشاد الاناشيد الوطنية ، مما اضطر العريف الى المداخلة في الامر وتحذيرنا كما حذرنا السجناء قبله ، ولكننا قلنا له أن تلك الاناشيد فرض ديني متحتم لا بد لنا من القيام بواجبه ، فقال هذا دين جديد وعبادة مستحدثة ، اني اعرف صلاتكم بالركوع والسجود ، فلم تصلون في السجن وأنتم واقفون على شكل نصف دائرة ؟ فالتحطنا له الاعذار وبيننا له ان الضرورات تبيح المحظورات ، فلم يصدق كثيرا بل نذب جاسوسا من بين السجناء واسمه عبد الله المكة سجين لجنابات شخصية بالاداب وكان من قبل موظفا ترجمانا في البعثة فأتى من الموبقات ما أرغم البعثة نفسها على جسه فوكله بتتبع حر كاتنا ووعي خطبنا .

عدنا الى اناشيدنا كالعادة ولكن مع التحفظ وزيادة الحذر ،

الراحة .

وعند الغروب سمعنا صلصلة الحديد وصيرير السلاسل ووقع اقدام الجنود وان أكثر الشباب الذين حيونا في دائرة الشرطة قد دخلوا علينا فقمنا لهم نحيبهم فردوا علينا بالهتاف للاستقلال والاهازيج القومية الوطنية ، وهالك أسمائهم وهي الوجبة الاولى : الدكتور خالد الخطيب والسادة نوري الزين تاجر وموظف سابق وخالد جمعة تاجر وعبد الهادي دياب تاجر وعادل حناحت طالب صيدلة ومحمد شخاشير وتاجر وثروت الجعفري ضابط سابق وعارف الادلبي قائد أركان حرب . ثم الوجبة الثانية بعد نصف ساعة وهي من السادة : رشدي ملحق صحافي ورشدي الحكيم صحافي سابقا وموظف في العدلية وطلعت السراج والدكتور شريف الرفاعي وتوفيق القضماني وحسن الزنبركجي ضابط قائمقام وصبحي الزنبركجي تاجر وصبري البديوي وعادل شيخ الأرض صحافي وفارس شيخوخ معلم نموذج في (البجصة) ياسين الخانجي تاجر وحسن الطواني تاجر وسعاد جلي طالب صيدلة ومحمود نديم الحلبي طالب وخليل خطاب تاجر وسليمان القصار تاجر وتوفيق المعيني تاجر وعمر الخربوطي ومحمد طاهر العمري ومهيب المطار تاجر ومحمد عبد الوهاب ومكي العفيفي وحسن الطرايشي تاجر وعبد الحسن زين الدين (شيخ انخل) المجموع ٣١ ، ونحن الاربعة فيكون المجموع ٣٥ .

الحماس والالفة والاخاء :

ولم نحصل في ذلك المساء على جميع الحاجات التي طلبناها من بيوتنا ولكن على كل حال اتانا من الاكل ما اشبعنا ومن الفرش واللحف ما وسعنا عن ضيق شديد لم نشعر به كثيرا . وقد قضينا ليلة من ليالي الحظ والانشراح لا نتسى . فكانت أصوات أهائنا

والعاطفة المبنوية الخلقية والانديفاع الموصيقي والانفعال الشعوري والتذكارات المؤلة ، ووراء ذلك قلوب استحوذت عليها كبرياء الاخلاص المتقلب لا يقوى على دفع ثوته الجامد فضلا عن المتحرك .

لا شك أننا نلوم بعضنا بعضا في حجرة السجن ولو عرض لنا الموت على تلك الحالة لقابلهنا بالبشاشة فحين . انني لا اتول هذا من قبيل الشجاعة والفخر ، بل من باب تأيد الاخلاص في الاخلاص وسبك الروح للروح واستسلام الشبهة للشبهة بحيث كانت النفس الاكثر تأثرا كالرائد الخريت يتبعها اخوانها جيشا انجعت بالفريرة ومن غير ان تفكر .

أخبار الاستاذ العفيفي :

ولا بد ان الذين تتبعوا احاديثنا يدكرون ان الاستاذ العفيفي كان أحد من اشعل النار بخطابه على سيارة المستر كراين عند باب المنزل واليك ما جرى معه مختصرا عن مذكراته قال :

« هبطت الشام في اوائل شهر شباط سنة ١٩٢٢ برفقة احد

الاعيان الدمشقيين الذين جمعني وياهم الصداقة في القاهرة ، ورايت من ملازمته لي ان اخلص له الولاية في وقت ازل وياهم عصيبة لا لتفقد ميسور وضياح موفور بل لوطن رهين الاحتضار وعزيم الاقتدار . حكامه مارقون واعداؤه فائقون والند الابي يرى السدل عارا والضييم شنارا فيروقه شوك القتاد في بجوحة الحرية ، ويؤرقه ريش النعام في قصور العمودية ، هذه سنته وهذه فطرته . واني لذلك والخطب شديد والخصم عنيد والحكومة داهيا الانتقام وعيتها من امثالي لا تنام وقدمنا ناوانتي وفي اعماق المسجون الفتني لا لجرم جئت أو ذنب سوى انني من الرغليين والوطنيين المتحررين ناهيك ما اقترفته من مطاردتي في كل آونة عندما حرمتني من وظيفتي العلمية الشريفة . واني لذلك اذ عرضت علي اسباب السفر ، فبرحت من القاهرة لا فرارا من الظلم بل جهادا في سبيل الرابطة

فكان الاخ السيد (بلاواكم) لمنية الله على الجسد مرتين ، وأخذ الدكتور خالد الخطيب على عاتقه الادعية بصوته الطرب والحنانه العذبة ومما زاد في اتقان الصنعة استعانه بآبن عمته السيد محمد شخاشير . فكان يقف في منتصف الحلقة بطوله البارز ويقف الاخوان حوايه كالهالة حول القمر وكلهم رافعو ايديهم الى السماء للتبرك وهم يتلون الاناشيد الوطنية ولا سيما الشيد الذي نظمه في السجن اخواني على نحن نحن لا نرضى الوصاية لا ولا نرضى الحماية . نحن اولى بالرعاية لبني العرب الكرام :

استجنونا كبلونسنا لا نبالي بالقيود

عزمننا عزم شديد للمعالي كالحديد

كم أهانونا بقول وفعل لا تطاق

وحشة السجن لدينا نزهة تحيي النفوس

فتحملنا الرزايا تشهد السبع الطباق

وعلى الاعداء اضحي يوما يوم عبوس

نحن للموت خلقنا فلمنت موت الكرام

وليعيش ابنساء قحطان بعسر وسلام

وكان الحماس جامعا بين الجلالة الدينية والحماسة الوطنية والافصاح عما يخالج الضمائر فكانت المشاهد الملل على الانفعالات التي تجيش في النفوس . وقد رأنا المريف الفرنسي ونحن على تلك الحال من الهيئة الرهيبة والجهد ، فلم يبد حراكا ولم يثبت بينت شفة . ولا ابالغ اذا قلت أننا في الايام التالية بلغنا من التأثير في نفسه وتنويمه بالشعور الذي كان يتدفق من ملاحمنا وحرارتنا انه غير معامته معنا وشدته نحونا رغم ارادته : وهكذا نفذت الدعوة الصادقة حتى الى قلوب الاعداء وأصم الصخور . وانخذ الاستاذ العفيفي على عاتقه قراءة القرآن الكريم فكان يحيي النفوس بتجويده المتقن وصوته المطرب ، ولم تتجل العوامل الروحية في مجلس واحد مثل مجلسنا فكانما به بركان تتفجر فيه الحمم التي صهرتها الحماسة الوطنية

الى دار الانفصالية الاكلزيرة للتعليم على جـواز السفر وعوامل النشاط والسرور تطير بي طيران القطار . ازعمت الخروج من الدار تاهبا للسفر بعد انتظار السيد منير افندي شيخ الارض انجارا لوعدنا المضروب ولا يحضر . وما وصلت سوق الخيل القديم حتى لفت نظري جموع من الناس تروح وتعود زرافات ووحدا فاقفيت اثرهم وتبعمت خطاهم حتى باب الفندق فقلت في نفسي كانه هو بلا ريب اوتيل المستر كراين ، ثم تقدمت الجهمور فعر في بعضهم اجرد التلميح ان القوم ما اجتمعوا بشق الانفس ميثونة بالجوا سيس والارصاد الا لتكريم المستر كراين وتوديعه في ذلك الصباح قبل سفره مع بسط امنيتهم بين يديه لارتباطه بفضيتهم العادية وصادفته للمستر ولسن ذي المبادئ العروفة ، فرأيت من الواجب ان اشترك في هذا الفرض العيني على كل عربي وشرقي . دخلت النزول مع الشهم الجسور انور بك المبكري والوافدين معه . والجمع محتشد في البهو فالتقى المستر كراين كلمته الخالصة وترجمها للمستمعين الاستاذ شهنذر الذي بعث في النفوس محبته واملا في المستقبل الزاهر . راقنتي هذه الكلمة الملتزمة حول من يناصرها وهزنتي تلك الجراة الملتحمة بمن يعبر عن ضمائرنا في حين ان الافواه ضامرة والقلوب واجفة امام ادارة مستبدة واوامر صارمة فاشتعلت لواعج اشجاني وازدحمت خواطر وجداني ، ولست ادري كيف عصيت عزيز الصبر وكيف اندمجت في ذلك الجمع ولا عهد لي بقوانين البلاد السورية . او كيف تناسيت نصيح صديقي الذي حذرني مرارا من خوض هذا الغمار القمقام . بلى ان للمنشا سلطانا وان للزعة قهرمانا .

انتهى المستر كراين من الخطاب فترل الفندق يتهدى كالنك بين عباب المحيط ، وتيار الناس قوي ومهيب . وما رسخت قدماه بالسيارة حتى امسك بها الناس فانسلت من بينهم وعلوت السيارة فرفعتني الايدي امام الاشهاد فالقيت على الجمهور

الشريعة وسعيا للتفاهم بين ابناءنا ، ولا سيما بين انشاء القطنين الشقيقين المصري والسوري . فترلت الشام بصحبة السيد المذكور فكانت علاقتي الادبية به بصفتي استاذ في البلاغة وآداب اللغة العربية واسطة عقد التعارف بكثير من خاصة الشام واعيانها . وبينما كنت اتحين الفرص السانحة لولوج باب لا مندوحة عنه وانتهاج شرعة لا بد منها تمهيدا لما جئت من اجله اذ فاجاني رقيم المعارف المصرية وهذا مدلوله :

« يعود المدرس الموقوف لاسباب سياسية الى مقر وظيفته اذا اعتذر عن الاضراب والتدخل في الامور السياسية التي لا تتفق مع مهنته طبقا لقانون الحكومة ولوائح وزارة المعارف العمومية » . ولا مروي بال آثرت مفارقة الشام وفي نفسي اشياء من انسان والله المستعان .

اليوم الاول :

وفي مساء الاربعاء الواقع في ٥ ابريل - نيسان سنة ١٩٢٢ جاءني السيد منير شيخ الارض بصحبة ابن عمه فؤاد افندي شيخ الارض وطلب الي مرافقتهما الى نزل داماسكس بالاس كراينة المستر كراين رئيس لجنة الاستفتاء الاميركية في البلاد السورية سنة ١٩١٩ وسفير اميركا في الصين الذي زار الشام في هذه المرة للتحقيق عن نتائج مباحثاته السياسية الماضية التي بنى عليها تقريره المشهور المودع في نظارة الخارجية الاميركية في وقت ترزح فيه الامة السورية الكريمة تحت نير العسف والخسف والاستبداد والاستعباد غير اني وعدت الاخوين المذكورين بالذهاب الى المستر كراين صباح الخميس الواقع في ٦ نيسان نظرا لضيق الوقت والقام فانصرفنا بسلام .

اليوم الثاني :

وما اسفر صبح اليوم الموعود حتى وجدنتي مسوقا بكيتي

مجموعة ثانية من المجاهدين تدخل السجن :

وفي الليل الثاني ازدادت صفوفنا بمجيء السادة الدكتور محمود بك حمودة استاذ امراض الحنجرة والاذن في المدرسة الطبية في دمشق ومن رجال الثورة المروفين والسيد سعيد التاجر الحر والوطني الصادق والسيد حسن الطرايشي الشاب التاجر الذي أبدى من الوطنية الصادقة قبل السجن وفي غضونه ومن بعده ما يسجل له بمقداد الفخر والاستاذ رشيد بك بقدونس مدير المدرسة التجهيزية ومن رجالنا المفكرين وشاب ديري اسمه بديع خضر كان معاون الحاكم السياسي في الرمادي في العراق وهو رجل مجهول الهوية وله مسائل مستعرض لذكرها فيما بعد . ويكفي ان نقول هنا ان الدركي الفرنسي الذي ادخله علينا لا حل وثاقه امامنا تظاهر بانه يريد ضربه بجمع يديه ضربا مبرحا مما لفت انظار الجميع خصوصاً بعدما فقد بجانبنا مطرقا في الارض محمور الوجنتين لا يبدي حراكا . ويوم الاحد في ٩ نيسان و ١٢ شعبان سنة ١٣٤٠ أضيف اليها السيد توفيق الحلبي صاحب جريدة الراوي ورفيقي الى العراق سنة ١٩١٥ وعبد الرحمن الطباع ومحمود المصري ، وهما رجلان مجهولان الهوية عندنا . وكان الطباع رابطا ذراعه ويظهر الا شديدا منه ويدعي ان الشرطة أنهكته بالضرب لانه كان يستنثر الناس الى اغلاق حواجزهم . وقد حاولت ان افحصه وافك رباطة اعلي اكشف شيئا من أمره وان كان صادقا أخفف عنه من ألمه ولكنه امتنع امتناعا باتا ، وقد علمت ان الدكتور محمود بك حمودة تمكن من فحصه في الليل ، فرأى ان كوعه مصاب بتدرون بالعظم وان الضرب الذي يدعيه مشكوك فيه . وحسبنا من حديث هذا الشاب الذي ساءحق عنه فيما بعد انه لا يخرج من السجن مع من خرج طلب مني ان اعطيه شيئا من الاوراق التي أريد توزيعها في الخارج ليقوم بهذه الخدمة عن طيب خاطر فامتنت وقلت له : ليس عندنا اوراق

ما مكنتني الفرصة من آيات يخطر لي منها بيتان :

بين مصر ونيها والشام عهد صدق ووحدة ووثام
وابن الشام لابن مصر نصير وابن مصر نصير أهل الشام

ثم اثرت الى وجوب الجهاد في سبيل استقلال البلاد بالطرق المبرية . فعلا الهتاف لمصر والمصريين ولعمالي سعد باشا زغول بطل نهضتنا ودليل قضيتنا ، فهتفت للحرية من أعماق نفسي مفعمة بحب سورية والعروبيين وجاهرت بسقوط الانتداب والمستعمرين . وما زلنا بين الهاتفين والترنمين بالاناشيد الوطنية والسيارة تشق مسالك الطرق والناس سكارى بخمرة الوطنية الصميمة ، الى ان دب ديبها في موضع مدركاتهم الحسية والمعنوية ، فما شعروا الا بانبعاث السيدات والاناث الزافرات من أفئدة ففتتها مدلهمات الشجون وجوارح انطلقتها مخننات الشؤون غير مكترئين بما ينجم عن ذاك الانفجار الذي يعجز المفترضون عن سنده في شعب ناهض ثائر . سرنا والسيارة سير الهوينا ، وما هاجني ورائقي غير منظر سيدتين مسلمتين تطايرتا من بين الجموع واعتلتا للسيارة بالقرب من وضعي فيها واشتركتا مع الناس في القساء العبارات الحماسية والترنيمات النسيجية ، ولم يعقهما عن المطالبة بحرية البلاد بما بعثاه في النفوس من الشجاعة والاقدام وما أوقداه في القلوب من الفيرة بجذوات الاضطرام سدل الضمار الذي طوته كطي السجل للكتب السيدة التي لها السبق في هذا المضمار الشريف حرم الاستاذ شهبندر ، ولعمري ان مثل هذه السيدة الادية في ميدان كهذا سهم أخيب .

هذه خلاصة ما جرى للاستاذ العفيفي منذ مساء الخميس ومساء الجمعة حين مجيئه للقلعة ، وكانت هيئته لا دخل تدخل على الاهوال التي قاساها على ايدي المتمدنين في القرن العشرين وان السرور الذي بدى على وجهه وقت اللقاء بنا لبرهان على الاطمئنان الذي شعر به بيننا بعد عزله في تلك الليلة الموحشة .

هذا اليوم ، لان السيد عثمان الشرباتي افهمها ان الموقوفين سيخرج عنهم في الساعة الثالثة بعد ظهر هذا اليوم فقلت لها ان خروجهم الان ضرب من المحال ، وغاية رجائي المتأخرة على عملكن ، ومع ذلك فاني سآتي الى دار الدكتور في الساعة الثالثة لارى وعد الحكومة للشرباتي . وفي الوقت المعين ذهبت وانتظرت الى الساعة الرابعة ، فلم يأت السيد عثمان ولا غيره ، فتأكدنا كذب الحكومة كما هي عادتها ، وقد قر قراري مع الانسة نازك والسيدة شهنبدر على السعي للمظاهرة ، واقتفال الحوانيت ، فودعهما وخرجت من الدار ، فقابلني رئيس تحري البعثة واسمه أبو رياح فقال لي : ان مدير الشرطة يود مقابلتك ، فقلت له : وانا هيأت نفسي لقابلته ايضا ، فسار بي الى مخفر الشهداء حيث تسلمني ممدوح بك العابد مغوض مخفر الشهداء ، ومن هناك جيء بي الى دائرة الشرطة حيث انتظرت المدير خالي حمدي بك الجلال .

وحين تواجدنا وتقابلت العيون قال لي على صورة الاستفهام : لماذا لم تخبرني وماذا فعلت ولم خرجت من دارك ؟ . فقلت له : ارسلت بطاقة لتقابلني في داري وقت الظهر فكنت مشغولا ، فقال : انفذت اليك رسولا يخبرك ان تأتي الي ليلا .

السيد توفيق : - نعم جاعني الرسول ولكن القصد من اجتماعي بك لاجل مصلحتك لا لاجل مصلحتي ، واني خرجت من الدار وانا على يقين من ان الشرطة ستقبض علي وتسوقني اليك ، وحين تكلمت في الجامع الاموي لم يطمعني ان خالي مدير الشرطة وهو ينجيني ويسفع بي لدى السلطة الافرنسية ، واني قادم الى دائرة الشرطة بكل سرور وارتياح .

المدير : - لم افهم كلامك واني لاجب كل العجب من عملكم هذا فاذا كنتم على نية من امركم فاعلموني لاكون معكم ، ومن الغريب ان الشرطين وجدوا في جيب الدكتور شكرا بعشرة الاف دينار محولا

التوزيع ، لانه خا مني الشك في امره ، وأرجو ان اتبين حقيقته ممن يعرفه معرفة تزيل الشبهة من نفوسنا .

التحقيق مع توفيق الحلبي والحاقله بنا :

كنت قد ذكرت ما قام به الاخ الحلبي في الجامع الاموي من تحريض المجتمعين على الاحتجاج واليك تمة حديثه ، قال :

«مشيت مع المتظاهرين الى اول شارع النصر حيث ركبت التراواي الى بيتي في الصالحيية في شارع الشيخ محي الدين ، وفي المساء جاعني بعض الاصحاب فأخبروني ان الحكومة قبضت على كثير من المتظاهرين وعلى الذين وجدوا في قهوة القوتلي فسروني هذا الخبر ووطدت النفس على السجن لانال قسطا من الفخر في سبيل خدمة الامة .

وفي اليوم الثاني ما رغبت ان اخرج من داري الا بعد القيام بما أستطيع عمله لاني أصبحت على يقين من سجنني ، فبعثت والدتي الى عقيلة الدكتور شهنبدر لاتدركي معها وبعد نصف ساعة جاءت وعلمت منها انها سافرت نهار الجمعة الى بيروت فلم تجد المستر كراين بل قابلت المستر نيكولي رئيس الجامعة الاميركية فأخبرها ان المستر كراين سافر الى بكركي لمقابلة بطريك الموارنة . وقد عادت من غير ان يشعر بسفرها احد ودعوتها الى التشجيع فيما اذا لم يخرج الاستاذ الدكتور من السجن ، وانا على يقين انه لا يخرج فرأيت نفسي بحاجة الى استمداد الشجاعة منها ، فشكرت لها حماسها ووطنيتها واندفاعها ورغبت اليها الموارنة مع الانسة نازك العابد للقيام بمظاهرة نسائية وحث التجار على اقفال حوانيتهم والاستمرار على اظهار الحركة الوطنية بمظهرها اللائق فاطهرت استعدادا تاما . وبعد ظهر ذلك اليوم جاعني الانسة نازك العابد ويدها احتجاج من قبل نساء الحاضرة سمعت هي وعقيلة الدكتور بتوقيعه . أما المظاهرة واقفال الحوانيت فلم تذهب للعمل لاجلها

لأسمه من المستر كراين (وإشارة إلى حوالة المستر كراين لأجل تعليم السيد بين الدمشقيتين) .

السيد توفيق : - لا علم لي بالشك انما القصد من اجتماعي بك اسماء النصح اليك ، فانت خالي ولا ارضى لك الردى ، وغاية ما استطيع ان اقله لك ان تخدم المصلحة الوطنية .

المدير : - وضع لي أكثر من ذلك ، فاني اقسم لك بأي قسم تريده اني لا انكلم وانما اريد ان اعلم واكون على بصيرة من المستقبل . السيد توفيق : - لا استطيع أن أبوح لك بأكثر مما قلت (وربما لم اكن عارفا أكثر مما يعرف) لانني اقول لك بصراحة تامة اني لا اتق بعهدك ووعدك ، وانت من الذين لا يؤمنون بشيء حتى ينظروا بأعينهم ويلمسوا بأيديهم ، واكرر نصيحتي اليك بخدمة وطنك . فوعدي بخدمة الوطنيين وانا لست واقفا من كلامه لانه من عباد القوة والوظيفة ، وبقيت في دائرة الشرطة الى اليوم الثاني ، وفي الساعة التاسعة صباحا اخبرني المدير ان وفدا مؤلفا من العلماء والوجهاء سيذهب في الساعة العاشرة الى الكولونيل كارو ليتكلم معه بشأن الموقوفين الذين بلغ عددهم زهاء الخمسين . ثم قابلته بعهد الظاهر ففهمته منه ان الاجتماع انتج اطلاق سراح المسجونين الاربعة وانا منهم لا بد من محاكمتهم ، فطلبت منه ان يلحقني برفاقسي بسجن القلعة ، فقال : ان حالة سجن القلعة سيئة جدا ولعلي اقدر ان ابقىك في دائرة الشرطة ، فلم اقبل كلامه فتركني وانصرف . وبعد ثلاث ساعات جاء مفوضه الخاص وذهب بي الى سجن القلعة حيث القيئت عصا الترحال وبنت ناعم البال . «

طعام السجن :

اما طعامنا في السجن فكان اول الامر يطبخ في بيوتنا ، وقد علمنا فيما بعد ان السلطة حاولت منعه وحتمت على السجنان الا يسمح بدخول شيء من ذلك اليها ، والواقع ان الرئيس اخبرنا

صراحة ان الاوامر صدرت بوجوب اكلنا من طعام السجن : علب لحم دواب وخبز يابس ومعجن في آن واحد وتوقع القهوة كما تقدم ، فاتخذنا قرارا بالاضراب عن الاكل والصوم على الطريقة الايرلندية الا اذا رجعت السلطة عن هذا القرار الفادح ، فتناقلت الاسن هذا الخبر في سائر انحاء المدينة فحدثت ضجة على ما تبين لنا عظمة وارتباك شديد ، فتدخل بعض كبار الموظفين في الامر ليحسنوا من السمعة القبيحة التي اكتسبوها ، فلم يفلحوا ، الا ان السلطنة ادركت فيما بعد الخطر من هذه السياسة الطائشة فرجعت عن قرارها رغم انها سمحت بدخول الطعام على جري العادة .

كان اخواننا يضعون على الدف من الطرف الشرقي ، انواع الطعام الذي كان يأتي من بيوتنا مما لد وطاب على طريقة السماط القديم ، ونزدحم عليه منا قيام حوله وقعود فنأكل اكلا شهيا بقبالية فتحت مساهمها الروح الوطنية المنعشة التي كانت تدب في اعماق الجسم فتنبعث على النشاط والحركة والحياة ، وكنسنا نقاسم طعامنا اناسا واقفين وراء الابواب الحديدية وقد مرت عليهم المشهور وهم شركاء الذئاب في اكل لحوم الدواب . ولما افرج عمن افرج عنهم وبقينا لوحدنا فضلنا ان يكون طعامنا من الطعام الوطني للسيد حسن الطواني دفعا للمشقة وبعد الطريق ، فكان ذلك باعثا لابناء الوطن على المسابقة للتقدم في تأدية الحساب والقيام بأسباب الراحة .

النشاط السياسي داخل القلعة :

اما الاعمال السياسية التي اتينا بها في سجننا فلا يجوز اغفالها لانها اتمت الدور الذي بدائه مظاهره المستر كراين ، من ذلك ان البعثة نشرت في الجرائد يوم السبت في ٨ نيسان بياننا مضللا للحوادث التي جرت والاسباب التي دعتنا للقبض علينا ، وفيه من الهفوات السياسية والمنطقية ما حملنا على كتابة رد عليه

والفخر ، وان الجلوس على دفوف السجن البالية المنخورة ففوق ارض نشاشة في خدمة الامة واعلاء شأنها هو الجلوس على عروش الملوك في القصور الفخمة ، التي لا اريد بعروش الملوك تلك العروش الفارغة التي بنيت على جماجم المستضعفين ووضعت قوائمها من عظام المساكين بل تلك العروش التي تحملها القلوب في المسدود وترتفرف عليها ارواح الشهداء في القبور . ولكن اين هذا الكلام من البلاغة الساحرة والبساطة الخالية التي ترتفرف من فم شاب يقم بخدمة اخوانه الاربعة واسمه محمود نديم الحلبي ؟ ان روحه كلاء الرلال من الينايع العذبة ، فقد وقف بيننا بالبسته البسيطة النظيفه وقال بصوت واضح : اني اشعر وانا بخدمتكم انني سعيد وما اسمد الرجل الذي اذا خدم اخاه يكون قد وضع حجرا كبيرا في بناء هذا الصرح الشامخ . ولما جاء دور الاستاذ العفيفي وقف على جري العادة فجيا الاستقلال وسقط الانتداب وبث في الناس روح الشجاعة وازال عن العيون ستار الهم .

وفي نهاية هذه الخطب كتبت على ورقة بيننا حلف بسه الحاضرون خمسة خمسة ، وكانت غايته منه توثيق عرى الاربطة بيننا وخالصة القسم بالله والشرف ان يخدم الواحد منا وطنه حتى الرمق الاخير وان يكون خاضعا للخطط الاستقلالية التي يضعها الزعماء من ابناء هذه الامة ، وانه اذا خالفها يكون مستحقا لعنة الله والناس اجمعين .

ومما هو حري بالذكر انني بعد الانتهاء من تحليف الاخوان بهني احدهم السيد محمود نديم المذكور ، فرأيتة يبكي بالدموع الغزيرة ، ولما سألته عن سبب بكائه تنهد وقال : الا اعد مسن الوطنيون ؟ فقلت له كيف لا ؟ فقال : ولم لم تحلفني ايضا كسائر اخواني ؟ فاعتذرت له عن هذا النسيان الفادح بتحلفي له على انفراد وليطيب خاطره .

مستوف للقضايا التي يجب علينا ابرازها . وعند الانتهاء منه سلمناه لسعيد افندي عبيد وخرجنا عليه ان يطبعه في بسيرت ويوزعه بالسرعة الممكنة لاننا عرفنا انه سيطلق سراجه مع كثير من الاخوان في ذلك اليوم او بعده ، ويسودنا جدا اننا لم نحفظ نسخة من هذا الرد ولا ندري حتى الساعة ما فعل الله به ، ولكن ردا اخر ظهر في المدينة دلنا على انه لم ينشر .

ومن الاعمال التي اتينا بها ارسال النشرات الى الخارج وفيها تحريض الناس على تجنب الاعمال الطائشة التي تضر بسمعتنا باعتبارنا شعبا مهذبا يشهد الحرية ويطلب الاستقلال ، وقد مسكت نشرة من هذه النشرات في بيت الاخوان ظبيان ، فاطلمت عليها البقية ورات فيها ان يكون شباننا الناهضين على اتصال تام مع الصحف في الداخل وفي الخارج ، ولا سيما مع صحف مصر . والظاهر ان وصيتنا للشعب بان تكون اعماله مطبقة على روح العصر لم ترق في عين المستعمرين لانها تقوي مركزنا وتظهرنا بالمظهر الذي يحاولون ستره بكل ما لديهم من قوة لذلك اخفوها في المحاكم ولم يرد ذكرها ابدا .

ولما رأيت ان الافراج عن الاخوان اصبح قريبا خصوصا بعدما زارنا في السجن يوم السبت الكولونيل مفتش السجنون ، فذكر لنا ان الذين لم يثبت عليهم شيء سيخرجون في بحر هذا الاسبوع ، والذين لا بد من محاكمتهم وهم القليلون يتأخرون الى ان ينظر الديوان العربي في امرهم ، خطر لي ان اقوي معنياتهم واشجعهم على الكلام في التجالعات العامة ، فاقترحت ان يقف كل واحد منا ويلقي كلمات ارتجالية في أي موضوع يختاره او يقترح عليه فغير مدة خمس دقائق ، فقام اكثرهم بهذا العمل احسن قيام ، واذكر انهم اقترحوا علي ان اقول كلمة في السجنون فقلت مشجعا : ان الاغلال في الايدي في سبيل الشرف القومي اساور من الذهب الابرون توضع في زنود على الطريقة الحديثة لا للرينة والتجمل بل للتدكار

ستار . ان الانكليز لا يدرسون مباشرة بل يتخذون لدسائسهم وسائل شائهم في سائر اعمالهم السياسية ، فتراهم في الظاهر ابرياء وهم في الباطن اصحاب الحركات والسكنات .

هذا ما قاله لنا بديع خضر الديري وكانت علائم الجهد والتحفظ والتستر بادية عليه في كل كلمة ينطق بها . وكان اذا لم يخاطبه احد يقضي اكثر اوقاته مطرقا في الارض ، كانه يكر في شبيه عظيم ويتوقع خطرا مدهاما من دقيقة الى اخرى . اننا لا ننكر انه خامرنا الشك في اليوم الاول من مجيئه ، ولكن الاطوار التي طرات عليه والاحوال التي اكتنفته ازالنت من نفوسنا بعض الشك ، حتى اننا صرنا نؤانس ونطمئه وندعوه الى التخفيف عن نفسه ، ورأى اخيرا ان يقوي روابط الصداقة بيننا فاعطاني واعطى السيد حسن والسيد سميد صورته الشمسية مع بطاقة فيها ذكر وظيفته في الرمادي .

ولكننا ربا للأسف علمنا بعد حين من السادة ظبيان اخوان ان هذا الشاب ربما كان جاسوسا ثقل منهم صور بعض المنشير التي وزعت في المدينة ، وظهرت مثل هذه الصورة في الدعوى التي اقيمت عليهم في الديوان العرفي ، وكذلك كان حريصا جدا ان يأخذ منهم رسالة بخط يدهما للملك فيصل والامير عبد الله فامتنعنا . وعلى ذكر بديع ارى ان اذكر رجلا اخر حامت التهمة حوله كثيرا وهو الشيخ عبد المحسن زين العابدين الحوراني شيخ قريسة انخل ، فان هذا الرجل ليس بالعر ولا بالنفير ، ولم يدل حديثه على انه يعرف شيئا من امور السياسة التي نحن بصدددها ، ولا سألناه عن سبب الحشرة التي حشرها معنا اجاب بأنه كان له بعض علائق بشرقي الاردن ، وانه سيق الى السجن بسبب هذه العلائق ، وقد صادق الاخ حسن بك على ان الرجل كان في شرقي الاردن حقا وانه تعرف به هناك بواسطة الاستاذ الشيخ كامل القصاب ، الذي كان يسلم عليه ويؤانسه بالحديث كلما رآه ، ولكن الاخ حسن بك

النتكتم بالاتصالات والشكوك بالجواسيس :

ثم صاروا يسألوني عن الرجل الذي يجب ان يعتمدوا عليه ويراجعوه ويستشيروه في امورهم فأثرت على بعضهم بمراجعة فلان ، وعلى بعضهم الاخر وهم الذين يوثق بهم بمراجعة فلان ، واما الذين رابني امرهم فتكتمت امامهم اشد الكتمان . وقد اثرت فيما سلف الى عبد الرحمن الطباع وما داخلي منه ، وكان حريصا كل الحرص على ان يأخذ من يدي منشورا وكلمة اخطأ له ، ولكنني امتنعت كما ذكرت ذلك . وافضى بعض الاخوان اليينا بكثير من اسرارهم وتعهد احدهم ان يفارق منطقة الانتداب الافرنسي سريعا لبث الدعوة الوطنية والقيام بالواجب القومي ، وكنا حريصين ان نلتقط من فم الشاب الديري العراقي ما نستطيع من اخبار البلاد التي كان فيها ، وكنا احرص على معرفة كنهه فذكر لنا انه قدم من الرمادي الى حلب لامور خاصة ادعى لنا انها سياسية ، وانه وضع في حلب تحت نفاق من المراقبة الجاهة الى المجيء السني دمشق ، حيث زار محمد باشا العصمي العراقي النفعي حليف الافرنسيين ومندوب ابن سعود في سورية ، وبعد هذه الزيارة سيق الى السجن مكيلا بالحديد كما راينا باعيننا بوشاية على زعمه وشى بها احد الجواسيس ، والكتاب بخطه ضبطه الافرنسيون ، ومما زاد هذه الدعوى ترويقا انه في اليوم الثاني من سجنه اتي احد الضباط المستعمرين فاستكتبه عشرة اسطر على عجل من كتاب عربي كان بجيبه . قال صاحبا : ان المراد من ذلك مقابلة خطي مع الكتاب الذي ضبطه ولكنهم لم يفوزوا بالفاية التي يتوخونها لانني غيرت خطي حين كتبت الاسطر كما غيرته يوم كتبت الرسالة .

ومما قاله لنا ان قبائل عنزة بامرة ابن هذال هاجمت دير الزور واحتلته منذ امد قريب ، وسوف لا يمر سنتان على هذه البلاد من غير ان يستولي عليها العراق . فسالنا عن الذي استنفر عنزة للقيام بعملها هذا فقال : فيصل الذي يدفعه الانكليز من وراء

عليهما بالسجن ، واذا عجب القارئ من سجن السجين فليسمح لي اقول له ان طرق مجازاة السجناء متعددة ، ومن اهمها سجنهم في حجرية تسمى في مصر (بالزناينة) وهي حجرية لا نافذة فيها فرشها الترى وحجمها القبر وطعامها الخبز والماء - اكل العلماء مع الانقطاع التام عن اخبار العالم الخارجي اللهم الا ما يسمع من صاعلة الحديد ، ولكننا مع ذلك استطعنا الوصول اليهما بتسرب العيطان فأوصلنا لهم الطعام والشراب وسائر حاجتهما الضرورية .

نظام السجن ووضعه الاجتماعي والصحي :

وعلى ذكر نظام السجن ارى ان اذكر شيئا مما سمعناه عن اخبار السجناء ليطلع القراء على هذا الوضع الاجتماعي السلي الذي يجهله اكثر الناس ، والذي لعب اصلاحه دورا مهما في تاريخ المدنية الحاضرة ، ومتى ذكر ان الغاية الشرعية من السجن هي اصلاح النفس وردّها الى حالتها الصحية الطبيعية مع دفع ضررها بعزلها عن المجتمع عرفنا شأن هذه الحالة الناقصة في كل حجرية تجمع السجناء (متزعم) وهو لسان القوم والمتكلم عنهم والمدافع عن حقوقهم يسمى العريف او الجاوش يئال مقاما بينهم لشخصيته وسوابقه وشدة الحكم الذي استحقه ويجلس على فراش طينية عجمية باحدى زوايا الحجر وفوق بابه نميلة مزخرفة ويضع فيها ذخيرة من الطعام المطبوخ ، وهو الامر الناهي بينهم ، واليه يرجعون في خصوصتهم ، وربما وضع لهم الدساتير التي عليهم ان يسيروا عليها من كنس ورش وتنظيف وطبخ وتحضير مائدة الاخوان ، فوظيفته الاساسية المراقبة والاشراف واسداء النصائح المؤثرة وان شئت فقل بلسان السياسة الحاضرة (التنداب) . لا جرم ان نزيلة الحشيش لا يجوز لاحد ان يمصها قبله ، والطعام الطيب لا يدوقه فم قبل فمه ، وهو مثل حضرات المندوبين كلامه نافذ لا يقبل الاستئناف والتمييز . يجلس في زاويته ويجلس السجناء حوله فيقتضون النهار على عزف (البرق) وتدخين الحشيش

وسعيد بك كانا بمقدمة المشائمين . وقد دلت الحوادث فيما بعد على انه ربما كان جاسوسا ايضا لانه ما كان يطلق سراجه مسن سجننا حتى اعيد الى السجن مع السادة ظبيان اخوان واعضاء حزب الحديد الذي حيث بقي نحو شهرين كاملين يسترق اخبارهم ، وذكروا لي انهم كانوا آخذين منه تمام الحيلة .

اني ما ذكرت اخبار هؤلاء الجواسيس الا ليكون شبانبا على حذر فلا يقعوا في الاثراك التي تنصب لهم كما نصبت لنا ، وان حركتنا القومية التي ترمي في الدرجة الاولى الى احياء مجد العرب صادفت في كل حين أعظم مقاومة من بعض الذين بمظاهرهم ولباسهم وعاداتهم اقرب الناس الى العربية الصميمة كشيخ انخل هذا ومن على شاكلته ، ومن كان في شك فليذكر الادوار التي لعبها شيخ الرولة مثلا ايام الترك والعرب وايام الفرنسيين على السواء ، ولا يوجد لباس لا يلبسه الجاسوس او طبقة من الطبقات لا يكون من اهلها ، او دين من الاديان لا يدين به ، وللدراهم جرة ان تنفذ الى اسمى القلوب في ظاهرها كما نفذت الى نفوس خونة كسان الناس الى مدة قريبة يصلون على اذيالهم ، فحذار ايها الشباب المتقد غيرة ، حذار من المظاهر ولا سيما ما كان منها مغرطا في اظهار التقوى والصلاح .

ومن الاحاديث التي تداولناها بالسجن احاديث التجسس الشخصية التي مرت على كل واحد منا ، واذا ذكر اني والسيد توفيق الحلبي ذكرنا لاخواننا من اخبار رحلتنا الى العراق والاطار التي لقيناها والايام العصيبة التي قضيناها قبل الوصول الى ارض السلامة ما استدعى عجبهم واستغرابهم .

وحدث في العاشر من نيسان ان السجناء دخل الى حجرتنا فوجد الدكتور خالد الخطيب والسيد ياسين الخالجي في النافذة وكان قد خطر علينا ذلك من قبل خشية اتصالنا بالخارج ، فحكم

الطلحاء السجن وخرجوا منه صلحاء ، وبالعكس طالما الصلحاء الذين زلت بهم القدم مرة في العمر فخرجوا منه طلحاء الى الابد والشاذ لا حكم له .

ومن النعم التي انعم الله بها على القلمة ، أن الحكومة العثمانية جرت اليها ماء عين الفيحة ، فأصبح السجناء يشربون من هذا المنهل المذنب بعدما كانوا تحت رحمة القفل التي كانت تملأ من مياه كيمياء المراحيف . أقول ذلك بناء على ما رأيته بعيني فسان الخادم السجن الذي كان يجلب لنا المياه لشربنا كان لا يرى فرقا عظيما بين أن يملأ قنفيه من الانبوب مباشرة وبين أن يفرها من المياه المتجمعة في البرميل تحته وكثيرا ما يفعل الطريقة الثانية لسهولتها وقربها للتناول .

وما دامت نظرية السجنانيين أن السجنون ألة للتعذيب فقط ، فمن العيب أن نصلح حال السجنون ، ومن دواعي الاسف أن السجن الافرنسي الذي يباهي بمدينته ويرى على الشرفيين مدينتهم وتريتهم ، ربما كان بهذا المعنى دون السجن الشترقي في بلادنا على أقل تقدير ، لاني رأيت من سوء معاملته وأهماله بشأن النظافة الحقنة كسكوته عن الخادم الذي كان يعرف لنا الماء القدر من البرميل أمام عينيه ما لا يدع مجالا للشك . ورب قائل يقول أن تعذيبنا كان مقصودا بالنظر للثورة السياسية التي احدثناها في البلاد ، فأقول ان من يجرا على تعذيب خريج المدارس العالية وأرباب الصناعات الفنية في سبيل الحركة لا يحجم مطلقا عن التمثيل بالجناة اذا سمحت له الفرصة . والإنسان مؤلف من مشاعر محكمها الحوادث ، فمن كان حيوانا شرسا مع أبناء النور لا يكون ملكا كريما مع أبناء الظلام . وسبقنا القاريء في وقائع السادة ظبيان اخوان وأعضاء حزب الحديد من خبر التعذيب الطويل ما يكون عبرة للمعتبرين . ويرى الاستاذ جيدر أن نحو الاربعين في المائة يدخلون السجن ظلما وعدوانا لاجرام اقترعها غيرهم ، فاذا اضفنا

وسب الدين وحلف الطلاق والصلاة لله تعالى في الاوقات الخمسة حاضرا مع قراءة القرآن الكريم والادعية والتبريك ، ومنهم من يعمل مطبورة او خابئة صغيرة يضع فيها حمصة كل اسبوع او كل شهر ليعرف بها عدد الايام التي قضاه . ومن عاداتهم انه متى دخل عليهم سجين جديد استقبلوه بالترحيب ، ثم سأله عن سبب حكمه بقولهم (ویش حمولک) يعني اي شيء حملك ؟ فان كان قتلا مثلا قال لهم : (دم) فيحيونه ، حي الله حي الله يا هلا يا هلا . وكل جنابة مهما كان نوعها من السلب والنهب تقابل بمثل هذه التحية ولا يستحي جانبها من ذكرها الا جانبتي السرقة والعمل الشنيع فان فاعلهما يومه في جوازه الى ان يعرف بعد هنيئه فيقابل بالازدراء والسخرية وبكلمة (اخسا) .

وإذا كان الجاني الجديد من اهل المكانة والشان بين طبقة الجناة ، فان العريف يستقبله استقبالا خاصا ، يأخذ بيده الى مرتبة مؤقنا الى ان يأتيه فراشه ويخصص له موضع . وفيما سوى ذلك لا يجوز لاحد ان يجلس على فراش الآخر او يمر من فوقه ولو قمرا . والعيشة في الحجر هي اشتراكية او ما يقارب الاشتراكية في الاكل ، فيأتي الطعام ويجلس الجميع على المائدة ، فاذا لم يأت لاحد منهم طعام باسمه فالآخرون لا يشعرون به واذا شعروا فلا يظهرون ذلك له . ومنهم من ليس له مكانة ولا يأتيه طعام فعيش بينهم مقابل الخدمة التي يقدمها لهم . واذا وجدت ان احد الاغنياء المروفين حكم عليه بالسجن لمدة قريية فانهم والعريف بمقدمتهم يطعمون فيه ولو استطاعوا لسلخوا جلده ، فالاشتراكية الشيوعية ورأس المال يتطاحتان في اعماق السجن وظلمة الحجرات . والسجناء عادة ساعتان للفسحة والرياضة في صحن السجن ، ساعة في الصباح وساعة في المساء ، والقانون يحظر عليهم جلب الكيفات ولكن دراھمهم تأتيمهم بجميع انواعها من الحشيش والافيون والكو كائين الى المشروبات والكحول المختلفة ، لذلك قلما دخل

من اشرف سيدات البلاد) ، بعضهم في البيوت المجاورة بل في منعمقات العرقات خشبية مداخلة رجال الشرطة ، ومع ذلك فالقسم الاعظم تمكن من الاجتماع عند عقيلتي ، وفي نحو الساعة الثالثة زوالية خرجن في وقت واحد رغم انف المفوضين والشرطيين ورجال التحري الذين كانوا يراقبون باب داري ، وصرن يهتفن للحرية والاستقلال ويحيين رجال الوطن بمناديلهن البيضاء .

منظر جديد في جلق شريحة الشرق وظاهر اجتماعي غريب في بلاد مضت عليها الاحقاب وهي ساكنة ساكنة تحذو حذو الاسباء والاجداد فكانني بحضارتها هبت الاعاصير فيها فجأة فاصبحت بحرا خضما يعب عبابه ، وتلاطم على ثغوط القديم امواجه ، ولم يعد مثله مستقرا في بلاد كالقسطنطينية والقاهرة وقازان مثلا ، اذ تختلط فيها المدينتان الغربية والشرقية منذ عشرات السنين ، بقدر ما يعد مستقرا في هذه البلدة التي كثيرا ما وصفها الناس بانها ثرقية بحقيقة المعنى المنطوي تحت هذا الوصف من الاستمرار على وتيرة واحدة في اساليب المعيش . نظر سطحي وخطا في التقدير والحساب لان جلق ايام العهد العثماني كانت بؤرة النهضة القومية . وسواها من المدن وان امتازت لكثرة معاهدها وضخامتها الا ان جهة الحياة كانت اما مذهبية طائفية او تجارية مادية ، ومثل هذا التنظيم الاجتماعي لا يولد الروح التي تشعر بوجودها وتترك التبعية الملقاة على عاتقها ، والاهلون هناك لا يزالون حتى هذه الساعة يا للأسف ينظرون الى العالم عابئين ، عالم الاسلام والنصرانية ، بدلا من عالم الشرق والغرب ، وغنى عن البيان ما في النظرة الثانية من توحيد العمل بين البوذيين والبراهمة والمسلمين والنصارى والجوس والترك والعرب والكرود الخلاص من الكابوس الذي اناخ بكله عليهم جميعا فكاد يقضي عليهم ، ولعل الاستاذ اللبناني الذي كان فسي المجالس الرسمية يسخر بداخله سوريته ويصفها بالقصور والانحطاط عن الساحل يتذكر ان في الداخل — وفي الداخل فقط — ظهرت الروح

الى هذا العدد الكبير من ليست الجنيات من طبعهم بل سيقوا الى السجن بثورة عصبية آتية او لدفاع عن شرف معنوي لا تنظر الى قيمته الشرائع والقوانين او لعداوة متأصلة ليس المحكوم عليه بادىء في احدائها . وذلك عدا الاحداث المراهقين السدي كان السجن باكورة اعمالهم الدنيوية — اذا جمعنا ذلك كله تبين لنا شأن السجن وخطلها الاجتماعي والادبي بقطع النظر عن موقعها الصحي واعتبارها في بعض الاحايين بؤرة تنبعث منها اقبح الامراض الوبائية كالحمى النمشية مثلا .

الانفجاس في المدينة :

لترك السجن والسجاء الآن ولننظر ما حدث في الخارج ، وهل اهل الوطن فترت عريتهم فكان حسنا رشاشا باردا (دوشا) اخمد حواسهم ؟ كانت ثائينا الاخبار رغم حرص الفرنسيين على منعها بضرهم طاقا حاجزا حوالينا ، بان البلدة في هياج عظيم تفلي كالرجل ، ولكن لم يظهر اثر مادي لهذا الفيلان الا يوم الاثنين اذ حدثت على ما اعتقد اعظم حادثة اجتماعية في تاريخ دمشق عاصمة العرب واقدمة مدينة ذكرها التاريخ .

النشاط النسائي الوطني :

كان الباحث البسيط يظن ان السيدات يعملن عن كل روح وطنية او شعور اجتماعي حي ، اللهم الا ما كان من نوع الحماس الديني بقلاب الافراط في العبادات عند بعضهن وان معظمهن ما اخذ من المدينة العاضرة الا ازياءها من الاحذية ذات الاعقاب العالية والجوارب الحبرية الشفافة الى الالبسة القصيرة والشعور الكوزة ، ولم يكن نظر الرجال فهن يسمو عن هذا الاعتبار كثير ابجيث كن عند اكثرهم من متاع الدنيا .

في يوم الاثنين حدث ما غير هذه النظرة وقلها راسا على عقب اذ تجمع في عرنوس (وهو الحي الذي تقطنه سبعون انسة وعقيلة

وتحول دون مرور أحد ، فلما وصل الى هذه النقطة اضطرهم الشرطيون بالقوة الى التفرق . وهكذا انتهت هذه المظاهرة الفذة في البلاد العربية كما ابتدأت بنشر الناديل البيضاء في الهواء والهتاف للبلاد وشبابها المناهضين .

اما البلدة فتها لا بلغها اخبار السيدات وما قمن به من الاعمال التي تزي بأعمال الرجال دب الحماس في جميع طبقاتها ، فראوا احسن فرصة لبدء العواطف الوطنية التي افتدتهم ، وللاحترام الذي يجدونه نحو رجالهم ، فأغلقوا حوايتهم ومخازنهم بحيث أصبحت المدينة في لبح البحر من أقصاها الى أقصاها مضربة احتجاجا على العمل الجنائي الذي اقدم عليه القومندان اولا بوس ومن نحا نحوه من طائشي المستعمرين الذين كانوا حتى تلك الايام يعتقدون ان عاصمة البلاد العربية بعد يقظة الاستقلال مدة سنتين عادت الى نومها العميق واحلامها اللذيذة بمعاولية وهشام وعمر ابن عبد العزيز والرشيد وزيدة وابو نواس وسائر المناظر في اللب ليلة وليلة كلها اخذت تمر على النائمين من السحاب !!! ولكن فات هؤلاء المستعمرين ان الامم التي لا ماضي لها يستحق الحلسم لا مستقبل لها يستوجب الاحترام ، الماضي كنز مدفون والمستقبل عوام يستخرجه والاجداد شجرة السطور والاحفاد مر سساها الكليم يستمد منها نشوة والهاما ، ولا شك ان الروح التي بسطت سلطانها من البحر الى البحر في ظرف اربعين سنة وحاربت سلف المستعمرين في عقر دارهم لا تتلاشى وتذهب مع الرياح ، بل على الاحفاد لاستعادة المجد الفاخر ان يلبسوها حلة زاهية من عمل الصناعات الحاضرة مزر كشنة بالفن والادب .

الاتصال بالوطنيين خارج السجن :

كان اتصالنا بالخارج بفضون هذه المدة سهلا بواسطة المستخدمين من السجناء وبواسطة الوطنيين من رجال الدرك

الوطنية الخالية من ثواب التعصب البارد والسجج العالق بالذئاب القرون الوسطى .

سارت السيدات من هناك الى القنصلية الاميركية حيث احتجن على العمل الشائن الذي اركبه المستعمرون اللطائشون ، ومن موجبات الاسف انهن لم يجتمعن بالقنصل نفسه ، فذهبن توا الى القنصلية الإيطالية هتفن للاستقلال واحتجن ايضا ، ومنها للقنصلية البريطانية وكن اثناء الطريق محطات برجال الشرطة من كل جانب خشية اضرار نار الثورة في الرجال .

لم يكن القنصل البريطاني في داره ، لذلك بعد ان وقفن على باب القنصلية بضع دقائق ملن الى جهة المناخية منها سررن في طريق باب القامة ، ولكن الحكومة هنا اتخذت أشد الاحتياطات لان هذا الطريق يؤدي الى سوق الحميدية اعظم شارع في دمشق ، فارسلت الجنود من كل حذب وروب وسدت جميع الطرقات والمنافسد ، واصطفت السيارات المصفحة عند المرف المسماني القديم ، والديابات بسوق الحميدية ، ولكن السيدات مع ذلك حاولن بكل جهد المرور ، فوقف الضباط الافرنسيون حائلا دون ذلك ، وهن جرت ملحمة بين سيدة واحد الضباط ، فصاحت في وجهه صيحة ادبت الرعب في قلبه والحماس في احد المشاهدين ، فامل هذا مدية من جيبه وحاول طعنه بها ، ولكن الشرطيين تتدخلوا في الامر وامتنع هو برعويته الابرائية ، ولا ادري الان ماذا جرى له بعد ذلك .

دجع السيدات بالطريق الذي اتين منه وهن يهفن للحرية والاستقلال وللسجناء ، وما زلن بهذا الحماس والناس يتبعن خطواتهن والشرطيون يعطون بهن من كل جانب ، حتى ضاقتوا بهن ذرعا وحاروا في الامر ، واخيرا لا عرفوا انهن سائرات الى الصالحية بطريق سوق ساروجة او عزوا الى السيارات الاميرية وغيرها من السيارات أن تعترض الطريق امام المستشفى العسكري ،

تقترب من الباب نروح النفس بما يهب علينا من الحجرة المقسبة
من النسيم الذي صرنا نعهده عليـسلا وان حمل بين طياته ورائح
الحشيش ودخان النراجيل ولفائف التبغ وابخرة المسجونين .

طريقة جديدة لتبادل الرسائل :

ولكن عشنا حاول الفرنسيون بترنا عن الخارج؛ فالسيد المشار
اليه وجد من استأمنه الخدمة ، فكان يرسل لنا بواسطته كل ما
يستطيع من الاخبار ، واذكر اننا حصلنا بهذا الطريق على عدة
رسائل من عادل بك المعظم وحسن افندي الطرابيشي والسيد
عثمان الشرباتي ، حتى انهم ذكروا لنا ان نطلب ان تكون محاكمتنا
علنية وان يحضرها قناصل الدول بدعوة من المحامين عنا .
والظاهر ان الفرنسيين احسوا ان جبل الاتصال بالخارج لم ينصرم
مع كل الاحتياجات التي اتخذوها فزادوا بالتشديد ، وكامل بك
زاد في الجبل الى ان اخترع طريقة مبتكرة لم يسبق لها مثيل على
ما نعلم ، وهي انه اتفق مع الخادم المستأمن (باطالاح منا) على قطع
النور الكهربائي عن جميع السجون في الساعة العاشرة ليلا بواسطة
الزر الكهربائي الموجود بالقرب من حجرته ، حتى اذا استولى الظلام
امره ان يقدف من النافذة الجنوبية الرسائل التي عنده وان يقدف
له في تلك الغضون الى حصن القلعة الرسائل التي عندنا واللاحضات
التي كنا بحاجة الى ابلاغها لاصحابنا ، وقد نجحت هذه الحيلة اتم
النجاح امام أعين السجناءين الافرنسيين الذين اتخذنا لهم من ظلمة
الليل حجابا كثيفا سترنا به عملنا واذعد البعض الليل كافر للظلمة
التي يستتر بها فاني اعد كفره في تلك الليالي ايماننا كاملا .

حينما ينطفئ النور في الظلام الدامس كان كل واحد منا يلازم
مكانه وبعد هنيهة كان يسمع وقع الاقدام الخفيفة ، فيعقبها
حفيف الرسالة المذوقة ثم همس ، فيستلق احدنا الجدار الى
النافذة فيقدف الرسالة التي معه فيعود الرسول بها ، وهكذا

ضباطا كانوا ام افراد واخص بالذكر منهم (١)
فكانوا اذا تعذر اتصالهم بنا ، يأتوننا من الكوة على السطح
فليقون الينا بالاخبار والرسائل التي يحملونها ، ويتناولون بخيط
مدلي الرسائل التي نجيب بها ، ومما نذكره مع الشكر الخالص ما
قام به الشريف الحلبي المعتقل في حصن القلعة الخارجي في هذا
الباب ، فقد كان عقدة الاتصال بيننا وبين ابناء الوطن ، وانني الى
الان لم ازوجه هذا الشهم ، ولكن عرفت من قبل انه محكوم عليه
بالاعتقال مع البطل الشهير الذي ازعج المستعمرين كثيرا (يعني
بالبطل ابراهيم بك هنانو والثاني كامل بك) .

الافراج عن معظم الموقوفين :

وفي مساء الاثنين في ١٥ نيسان سنة ١٩٢٢ ، خرج اربعة من
الموقوفين ، وفي اليوم الثاني اخرج الباقيون زمرا زمرا ، بحيث لم
يبق حتى الليل احد من السجناء غيرنا نحن السبعة : الدكتور
شهبندر حسن بك الحكيم سعيد بك جيدر منيسر افندي شيخ
الارض السيد العفيفي خالد بك الخطيب وتوفيق افندي الحلبي .
وقد لاحظنا شدة في منع الاختلاط لم يسبق له نظير في معاملتنا بعد
خروج اخواننا ، فأتى الرئيس الافرنسي ومعه افراد من الدرك
المختلط فسدوا النافذتين العلويتين في السقف ، فأصبحت الحجرة
اشد ظلمة والرائحة الكريهة المحصورة فيها لا تحتمل ، وحقا انها
الان قبر الاحياء فنور الشمس اصبح نيمنا نتهساداه مهادة لان
الاشعة الضئيلة التي كانت تدخل علينا من احدى النافذتين
الصغيرتين الباقيتين نحتسبها فنمرها على ايدينا وجوهنا ولو
استطعنا لخبانا منها في جيوبنا للمساء ما يدفع عشوته ، واخذنا

(١) لم يدون الشهبندر أي اسم في النص المحفوظ من
مذكراته بخط يده .

كما يقول المثل العامي (كالاطرش في الرقة) لا نعرف مما حولنا الا ما املته المخيلة وقوة التكهين من حدوث ثورة في المدينة اندفست لسان الهيكل الى السجن ، فحدث ما حدث وانا كذلك في تكهننا اذ دخل علينا العريف فشهروا مسدسه وصاح بصوت مرتجف : من تحرك منكم من مكانه فانا ذابحه من غير ادنى توقف ! فلم نجبه بحرف واحد وكانت نتيجة الثورة في السجن جرح ثلاثة او اربعة من السجناء جروحا بالغة واحدهم فقد احدى عينيه .

مظاهرات الطلاب واستشهاد بعضهم :

وقد علمنا في الساء من مراسلة السيد شريف ابو علي ان تلاميذ المدرسة السلطانية ومدرسة ملك الظاهر ومدرسة التجيز قاموا بمظاهرة عظيمة في البلدة احدثت هياجاً بين الاهلين واضطربوا لم يسبق له مثيل ، لان الحكومة اقدمت على القبض على بعض هؤلاء التلاميذ والرج بهم في دائرة الشرطة فادى هذا العمل الى هجوم اهل الوطن على الدائرة نفسها لاقناهم فقتل بسبب ذلك السيد عيسى شموط من الميدان الوقائي وعمره ١٨ سنة وبدر الدين عرار من الحي المذكور وعمره عشرون سنة واخرون من قبر عاتكه وجرح نحو الستة جروحا بالغة ، وبقيت المدينة مقفلة كسايوم السابق .

ان هذه الدماء البريئة مضافة الى دماء الشهداء الذين بذلوا نفوسهم من قبل في سبيل القضية العربية هي شاهد ناطق بالحق الصريح الذي لنا ودعوة صريحة تسمو بنا الى مصاف الامم الحرة ، لان الشعب الذي ليس لديه من ابناءه من يذل النفس في الخطر المهد لهم الذي يهد كيان الامة لا يحق له التربع على اريكة الاستقلال ، سنذكر هذه الدماء كما ذكرت دماء ابطال سنة ١٩١٥ وسنة ١٩١٦ وستسج عليها عقيلات سورية بالخيوط الذهبية روايات البطولة العربية ونبغها للابناء والاحفاد في اليوم الذي تباهي الامم بتالدها

تنتهي الرواية في بضع دقائق والعريف الافرنسي على كرسيه غير شاعر بما حدث حواليه وفي حجرته .

ولا ننكر اننا بعد الافراج عن اخواننا شعورنا بشيء من الوحشة خصوصاً بعد انقطاع الجرائد عنا والتشديد في الحجز علينا ، ومع ذلك فقد صبح قول شاعرنا العربي :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً وبأنيك بالاخبار من لم تزود

اذ تيسر لنا فرد من افراد الدرك اسمه (. . .) كان يحمل لنا شيئاً من اخبار اعدائنا وحالة بلادنا ، وكان هذا الدركي كما علمنا من بطاقة تركها لنا بخطه على اتصال بالسيد (. . .) ولج بطرف من اخبار الوطنيين ، والظاهر انه مخالف لحكومته ولا يرى رأيها في الاستعمار ، ولم نر عليه اقل علاقة تدل على طمع في مال او في جاه او اسداء مساعدة ، ومما يسجل له مع الشكر انه الوحيد الذي نبهنا الى موعد محاكمتنا وذلك قبل حدوثه بثلاثة ايام ، فانزال عنا بهذا العمل عناء شديداً كما سيرى القارئ في التريب المساجل .

ولم تختلف حياتنا بعد خروج اخواننا كثيراً لا كما عليه معهم ، فكنا نشهد الاناشيد كالعادة ، ونقرأ ما يصل الى ايدينا من الاخبار بشوق ولهف ، وجرت حادثة يوم الثلاثاء في الحادي عشر من الشهر حرية بالتدوين ، وهي اننا كنا نتحدث في عصمانري ذلك اليوم اذ سمعنا من بعد صوتاً يشبه الطلق الناري ، قمنا وصرنا كنكتنا اذاناً ، وبعد هنيهة سمعنا طلقين آخرين ، ثم اخذ اطلاق النار يشتد وباشتداد هبت عاصفة في القلعة في رؤوس السجناء ، كسرت الابواب الحديدية ودكت بعض الجيطان ، واخذت القوضاء تملأ الفضاء ، والصراخ في جميع الزوايا يعم الاذان ، ولا يفهم منه الا بعض عبارات التهديد ، فملا عليهم السجناءون البنادق واخذوا في اطلاقها ، فاختلط عويل الجرحى بوعد العصاة ، ونحن في ذلك

العامة وسيء الى سمعة القائمين بها . وكثيرا ما كنا نحمل على الثورات التي حدثت في الماضي فادت الى فرار السجناء كما حدث عقيب الانقلاب العثماني في اواخر الحكومة العربية .

نبيلنا التهم الوجهة اليها :

وفي مساء السبت نحو الساعة السادسة اتي ضابط افرنسي بلحية شتراء هو كاتب الضبط في الديوان العسكري يحمل اوراقا ، ومعه ترجمان دمشقي ، واخذ ينادي كل واحد منا على حدة ويلفه التهمة الموجهة ضده . وقد قرأت في وجه بعض الاخوان الذين سبقوني بالاطلاع على التهمة علائم الاضطراب الهادي ، فاطرقوا في الارض وخاضوا في بحر من الافكار لا يلتفتون الى احد ، فلما جاء دوري والقي الضابط على مسامعي التهمة الموجهة ضدي وناولني اياها مكتوبة بخط سقيم تأملت فيها فاذا فيها المवाद الجزائية التي يقتضيها الحكم ، فطلبت اليه ان يقرأها لي لاتفهم معناها ، فقرأها فلم اجد فيها ما يدعو الى ذلك الاضطراب ، والظاهر ان اقتصاره على ذكر التهمة فقط للاخوان الذين سبقوني - وهي تهمة جزاؤها الاعدام في القانون العثماني - اوجب هذا القلق الطبيعي الذي يشعر بمثله كل انسان اكتنفته الاسرار كما اكتنفتنا .

عدت اليهم فأوردت لهم شيئا من معاني الجمل التي سمعتها ، ثم فتحت ورقة الاتهام واخذت في ترجمتها حرفيا بمعونة احد الاخوان المطالعين على الاصطلاحات القانونية الاستاذ سعيد بك حيدر وهذه هي بنصها وفصها :

نص المذكرة الاتهامية بحقي :

الجمهورية الفرنسية

رقم ٩٦٤ المحكمة العسكرية : مذكرة اتهام احضارية

ديوان المحكمة العسكرية لمقاطعة دمشق - جلسة في دمشق :

وطريفها ما قدمت في سبيل الجلع من النفس والنفس .
الحكومة تعلن الاحكام العرفية والشعب يفلق حوائيه :

ولما رأت السلطات الفرنسية الخطر الداهم ، اتخذت كل انواع الحيلة فاعلنت الدائرة العرفية ، ومنعت خروج الناس الى الطرق من بعد الساعة السادسة مساء ، واورزت الى الحكومة الوطنية ان تنشر في الجرائد المحلية ان كل من لا يفتح حالوته يفرم بثلاثين ليرة سورية ، ولكن لم يلتفت احد من الاهليين الى هذا الاعلان البارء بل داومت المدينة على الاعلاق يوم الاربعاء ايضا .

ويوم الاربعاء صباحا بلغنا ان احد ابناء الوطن بينما كان مارا في الليلة الماضية في سوق مدحت باشا ، صاح فيه الجنود السنغاليون ان يقف ، وكان اصم لا يسمع كلامهم ، فما كان منهم الا ان اطلقوا عليه النار فأردوه صريعا يتخرج بدمه ، فبلغ هذا الخبر مبلغا اثر فينا . فعقدنا حفلة تأبين ذكرنا فيها شهداء الوطن بقصد ام بغير قصد من الشأن في رفع كلمة الامنة ، ومن الغريب اننا ونحن في دمشق لم يبلغنا خبر عن الشهداء غير هذا الخبر فكان السلطة اخفت سائر الاسماء ستر الجرائمها وتهدة للافكار .

والان وقد مضى علينا نحو اسبوع في السجن من غير ان نخرج للهواء الطلق ونور الشمس ، فان انفسنا اخذت تشعر بشيء من الضيق ، ومع ان الرئيس الافرنسي ابلغنا رسميا يوم الاثنين الماضي ان البعثة سمحت لنا بتناول طعامنا في بيوتنا والخروج الى صحن القلعة مرتين في اليوم ، فان الشطر الثاني من هذا السماح لم ينفذ ابدا . والظاهر ان الافرنسيين اعتقدوا ان لنا ضلعا في الثورة التي حصلت في السجن ، وهم ليسوا بعيدين عن الصواب اذا كان المقصود بهذا الضلع الخطب التي تلوناها والاشيد التي انشدناها ، واما اننا اتصلنا بهم مباشرة فهذا خطأ لان كل واحد كان يعتقد ان ربط القضية الوطنية بالاشقياء عمل يضر بالصلحة

١٩١٦ المتعلق بالادارة العرفية . وذلك كما يأتي :

قانون الجزاء المادة (١٧) : الحكم بالنفي يكون بالجلاء عن البلاد والسكن الدائم بأراضي يعينها القانون بعيدة عن أراضي الجمهورية في أوروبا وإذا عاد المنفي الى أراضي الجمهورية فيزداد حكمه بالاشغال الشاقة الدائمة ، وأما المنفي الذي لا يدخل أراضي الجمهورية بل يقبض عليه في الاراضي التي تحتلها الجيوش الفرنسية فانه يعاد الى منفاه السابق .

المادة (٨٧) من قانون الجزاء : — المؤامرة التي من شأنها تدمير الحكومة وقلبها يجازى صاحبها بالنفي .

المادة (٢٤ و ٨٢) من قانون ٢٩ تموز سنة ١٨٨١ كما يأتي : ان الذين يحرضون على ارتكاب الجرائم المذكورة في المادة ١٧ وعلى الاخلال بالامن العام كما في المادة ٨٦ يجازون بالسجن أحيانا من سنة واحدة الى خمس سنوات وبجزاء تقدي من ١٠٠ الى ٢٠٠٠ فرنك .

المادة (٦٧) من قانون الجزاء العسكري : — للمحاكم العسكرية السلطة التامة بأن تحكم بموجب القوانين الجزائية العادية في كل الجرائم .

قانون ٩ أغسطس سنة ١٨٤٩ مادته الثامنة المعدلة لقانون ٢٢ نيسان سنة ١٩١٩ : في المقاطعات التي تعلن فيها الادارة العرفية للسلطة العسكرية الحق في الخطر الواقع الناشئ عن الحرب الاجنبية أن تقيض على المتهمين الاصليين للجرائم المذكورة في المادة (٨٧ و ٨٩) من قانون الجزاء وعلى المشتركين بمعرفتها مهما كان نوعهم .

والشهود على المتهم هم :
١ — الملازم أوليف من البعثة الافرنسية . ٢ — الضابط

في الساعة الثامنة من اليوم الخامس عشر من شهر نيسان سنة ١٩٢٢ .

نحن الرئيس بوابية المدعي العام لدى المحكمة العسكرية لاراضي دمشق ندعو عبد الرحمن شهبندر دكتور من أطباء دمشق من الجنسية السورية بواسطة هذه المذكورة الاتهامية الموجهة ضده للحضور الى المحكمة العسكرية المتقدم ذكرها ، والتي هي تحت ادارة الكولونيل قائد الجيش في حكومة دمشق في الساعة السابعة من صباح الثامن عشر من شهر نيسان سنة ١٩٢٢ ، وذلك لاجل محاكمته على الاعمال المتهم بها وهي :

أولا : مؤامرة غايتها تغيير شكل الحكومة يتبعها عمل ارتكب أو بوشر به تمهيدا للتنفيذ .

ثانيا : التحريض على مؤامرة غايتها تغيير شكل الحكومة مع أسباب مشددة نشأت عن أن المؤامرة اتبعت بعمل ارتكب أو بوشر به تمهيدا لتنفيذها .

١ — حصل في الشام من ٤ نيسان الى ١١ منه سنة ١٩٢٢ بواسطة اجتماع مع أكثر من شخصين على قرار لعمل مشترك بقلب الحكومة المؤسسة في دمشق ، وأن المؤامرة اعقبها عمل ارتكب أو بوشر به تمهيدا للتنفيذ .

٢ — لتحريض الشعب في نفس هذه الظروف في زمان ومكان وبواسطة خطب القيت في المحال العامة وبواسطة منشورات وزعت على ارتكاب جناية المؤامرة وأن هذا التحريض اعقبه أثر .

وهما عملان نسب اليه وحكهما الجزاء بحسب المادة (٢١٧ و ٨٧ و ٨٩) من قانون الجزاء والمادة (٢٤ و ٣٢) من دستور ٢٩ تموز سنة ١٨٨١ والمادة (٢٢٦٧) من قانون الجزاء العسكري والمادة (٨) من دستور سنة ١٨١٩ معدلة بقانون ٢٧ نيسان سنة

بد لنا من مرشد حكيم (أو ام رؤوم يقول الاصطلاح الاستعماري) يعلمنا ايها . ومن الغريب ان موظفا في البعثة بدمشق يقول لمراسل المقطم أنه لو لا ما حدث في السجن بعد التوقيف لكان الجزاء بسيطا لا يؤبه له ، فبارك الله بهذا البسيط الذي بدأ فاتحة أعماله بالسلام والافلال ، وحمدنا الله أنه لم يكن مركبا لان الجرم المركب والجنائية الفظيعة كان لحسن الحظ من عمل الطائشين الذين نصبوا ذقونهم على مقاعد الحكم منذ اواخر تموز يوليو سنة ١٩٢٠ وجمعوا حولهم زمرة من الجواسيس المحتالين وحالة من الموظفين الخائنين فأصبح كل منهم آلة للضحك والسخرية . المستعمرون يسخرون الاذنان نغما لفياتهم وأوطارهم الذاتية الدنيئة ، والاذنان يضلون ساداتهم فيهبطون بهم الى الهاوية ويعدون بهم الى مسارح الروايات الهزلية .

نعيين محامين وطنيين للدفاع عنا :

قرنا في المساء نعيين محامين وطنيين عنا ، ولم يامن احد منا الى المحامين الذين عينتهم السلطة التي لفقت علينا هسلنا الزورير المغيب ، فوقع اختيارنا على السادة والاساندة جلال بك وزير العدلية في الحكومة الوطنية وفارس بك وزير المالية والياس بك نمور وسعيد افندي محاسن وحسن افندي الخطيب وسعيد افندي الفزري . فارسلنا اليهم بواسطة السجنان رسالة ليواجهونا حالا ، واخبرنا المحكمة العسكرية اننا انتخبناهم ليدافعوا عنا وطنيا اليهم ان تسمح لنا بانتخاب ترجمان قدير في اللغتين العربية والفرنسية . فكان جوابها بقبول المحامين ورد الترجمان اعتمادا على ترجمانها الذي ارتبك يوم محاكمتنا ارتباكا شديدا ولم يستطع تأدية المعاني التي بسطناها كما سيراه القاريء في جينه . أمسا نحن فكنا نفضل ان يكون ترجماننا أحد ثلاثة جميل بك سرورم بك أو حليم بك حروفش أو عارف بك النكدي .

الترجمان سينا ٣٠ - الرئيس مويو سان عن الانشاءات . ٤ - مفوض الشرطة حسن أفندي المأمون ٥٠ - مفوض الشرطة مهدوح بك العابد ٦٠ - مفوض الشرطة صبحي أفندي ٧٠ - مفوض الشرطة محي الدين أفندي ٨٠ - الشرطي عبدو أفندي البخاري رقم (٩) . الشرطي رقم ١٠٢ محي الدين أفندي ١٠٠ - الشرطي رقم ٢٣٨ وعارف أفندي (٢٢٣) ١١٠ - الشرطي رقم (٢٦٦) حسني أفندي . وقد عيننا الملازم من الجيش المختلط بدمشق محاميا عنه وأعلنا ان له الحق دائما أن ينتخب واحدا حتى ابداء المحاكمة .

الامضاء : المدعي العام : بوانييه

* * *

تعليق على المذكرة :

يرى القاريء من هذه المذكرة الاتهامية كيف تطورت مسائلنا ودخلت في أدوار من النشوء والترقي التي يلذ تتبعها ، فكانت في بدايتها جرما عاديا دفع الحكومة الوطنية الى مجازاته بحسب قانون التجميع العثماني فلم تفلح ، ثم أصبح مؤامرة على تغيير شكل الحكومة ، ثم اكتسبت شكل الاسباب الشددة بالنظر الى محاولة التغيير على زعم الفرنسيين . فهل يشك احد بعد هذه بنظرية النشوء والترقي ؟!

أوقفنا الحكومة في عصارى الخميس في السادس من نيسان فأصبحنا منذ تلك الساعة تحت اشرفها ونصرها ونطاقها الحاجز ، فليت شعري هل تمدد جمعنا وطال كما تتمدد الاجسام بارترفاع الشمس وتزايد الحرارة وطول النهار حتى صار شاملا ما قبل التوقيف وبعده الى نهاية الحادي عشر من الشهر المذكور ؟ هذه حكمة في القانون تعجز افهامنا معاشر الشرقيين عن ادراكها ، فلا

ثم انني سألت الياس بك عن المحاكمة هل يطول أمرها ؟ فقال : جرت العادة في الديوان العرفي الافرنسي في مثل هذه المسائل الثابتة عندهم ، أن يتوا في أمرها في يوم واحد بل في جلسة واحدة ان امكن ، وان اقتضى الحال في بعض الاحيان ان لا يذهبوا الى الفداء ، وربما اذا اضطر احد الاعضاء الى قضاء حاجته ابغرو برجل ينتظر الى ان ينتهي فيعود به الى الجلسة خشية ضياع الوقت . ودعنا الاساندة على أمل ان يضمنوا مشتركين صورة المدافعة .

المحاكمة تختار ثلاثة افرنسيين للدفاع عنا :

وفي المساء دخل علينا ثلاثة من الشبان الافرنسيين بزرهم العسكرية ففهمنا انهم ضباط في الجيش المختلط الذين عينتهم المحكمة للدفاع عنا .

ان حديثهم اللطيف وحر كاتهم الهادئة الانيسة والبستههم النظيفه والاحترام البادي على وجوههم ، كل ذلك دلنا على انفسا نخاطب الان اناسا ذاقوا من التهذيب واصابوا من المدنية نصيبا حال دون الفطرسة التي تبدو عادة على المستعمرين في بلاد الشرق ، وفهمنا منهم انهم من تلاميذ الحقوق في فرنسة لم يحصلوا على شهادتهم بعد وانهم يدرسون الان في المدرسة الحربية .

ذكروا انهم طالعوا اوراقنا واحاطوا بوجهة نظر المدعي العام ، وانهم اتوا الينا ليطلعوا على رأينا ويلموا بقضيتنا ، فذكرنا لهم تنصيتنا للاساندة السابقين بالنظر لمرقتنا بهم ، فعدرونا على ذلك ، ثم اخذنا نقص عليهم ما جرى وبين لهم الخطيئات المتسلسلة التي ارتكبتها السلطة وآخرها هذا التزوير الذي اقدمت عليه فأنظروا تغافلا عظيما وأجمعوا على أن الحكم لن يكون خطرا . ونصحني الملازم له (leme) المدافع عني كما نصح سائر الاخوان ان نبين للمحاكمة الضيق الاقتصادي المستحوز على البلاد وأنه هو السبب في هذا المعجز الذي بدا على الوجوه ثم ودعونا وانصرفوا

ويوم الاحد قرب الزوال دخل علينا الاساندة جلال بسك وفارس بك والياس بك ، واخبرونا انهم كانوا في المحاكمة العسكرية منذ الصباح ، فاطلعوا على الدعوى من اولها الى آخرها ، وعرفوا دخولها وهم يخشون أن تكون مفعمة بتزوير الشرطة وتلفيق المفوضين فيما ذكره أنه صورة أوراق تدعي انها خرجت من السجن فيها استفزاز الامة الى الثورة وخلع نير الاستعمار ، فأنظرونا بطلانها ، وكان الياس بك خلاف رقيقه تظهر عليه علائم التشاؤم ولم يخف ما كان يساوره من الهموم والشكوك ، ولما سألناه لم لم تؤخذ للاستئناف ؟ قال : تعتبر السلطة ان التقارير التي حصلت عليها من الشرطة ورجال التحري كافية لتجريمكم ، ومنذ عرفت انها وحدت الحوادث التي جرت قبل السجن وبعده تأكدت ان نيتها سيئة ، والا لكان الامر هينا لا يؤبه له ، فسألناهم : وما هي هذه الحوادث الموحدة ؟ فذكروا الاجتماعات التي عقدناها للمستمر كراين والمظاهرات التي قمنا بها والدعوة الى العصيان التي اثرنا ثاثرها بالسجن ثم التفتوا وقالوا : أي مسلك ستمسكون في الدفاع سلوك الملاينة والاعتدال أم السلوك الذي يلتم مع غايكم قتلنا : سلوك الحق والواجب .

ولم ينفك فارس بك وجلال بك من القول بان الحكم علينا لا يتجاوز الشهر بالنظر للايضاحات التي أوضحنها ، وأما الياس بك فنور فبقي على تشاؤمه ، وظهر لنا من حديثه انه زار القوماندان أولا بوس خصيصا لهذا الغرض فعرف منه الشر الذي تضرره السلطة الاستعمارية لنا .

قد يكون الحكم اشتدت صرامته بعد حركات السجن ، ولكن المؤكد عندي أن علائم الشر ابتدأت منذ وضع الاغلال بأيدينا في دائرة الشرطة ، والتزوير علينا بالوامرة لتفسير شكل الحكومة ، حتى ان شرطي التحري الذي وقف ببائي ينتظرني عرف انني سأنفي مع اخواني .

على امل اللقاء في صباح الثلاثاء في المحاكمة .

المسيو بيجان يحقق معي :

وقد صبح قول الاستاذ نور فيما ادعته السلطة من الاعتقاد الكاذب بان التهمة لاصقة فلا حاجة لاستجوابنا لو لا انها ارسلت الي قبل اخلاء سبيل الذين اخلي سبيلهم المسيوييجان مستشار الشرطة ليستجوبني عن حوالة المستر كراين التي ذكرتها سابقا . انفاالي يوم الاحد قرب الغروب فاجتمعت به في الغرفة التي سجلت فيها هويتنا في اليوم الاول من سجننا ، فاخذ يسألني خطيا لم اعطاني المستر كراين هذه الحوالة وما هي غايته منها ؟ فاجبته بالاختصار كما يأتي : ان المستر كراين لما زار دمشق في هذا العهد ، سألني : هل يوجد في نساكنكم معاشر السوريين من تضارع في علمها الكتابية التركية خالدة اديب خانم ؟ فقلت لا ، فقال انني مسرور ان اخبرك انها تخرجت في مدرستي في الاستانة ولي ضلع كبير في حثها على العلم وقد علمت على حسابي من بني قومها في أمريكا وفي غيرها نحو اثني عشر طالبا وطالبة ، وانا عازم أن ادعو طالبة او طالبتين من اوانس سورية للتعليم في أمريكا على حسابي ايضا ، فما رأيك ؟ فشجعتهم كثيرا ، وبعد البحث الدقيق وقع اختيارنا على الانسة نازك العابد والآنسة اليس قندلفت فقاطني سائلا :

لم انتخبت الانسة اليس قندلفت ؟ فقلت : بالنظر الى سننها وقابليتها وعلومها التجيزية . فقال : الا يوجد مثلها في هذا المعنى كيرات من الدمشقيات ؟ فقلت : بلى يوجد ولكن العارفات الانكليزية مثلها بحيث يستطعن تتبع الدروس في الولايات المتحدة قلائل ، ثم اتهمت حديثي فقلت : أن هذه الحوالة هي اجرة طريق تعطى لكل واحدة نصفها وهو خمسمائة ريال أمريكي (خمسون جنيها) . وقد راجعت الانسة قندلفت أهلها فقبلوا فارسلت الي بطلاقة صباح سفر المستر كراين تعلمني ذلك كما أعلمت المستر كراين نفسه ، وأما

الآنسة عابد فاني ذهبت مع المستر كراين لبيتها لتكليفها فاطهر أبوها تمعا ، ولكن جاءني في اليوم التالي الى البيت فوضعت خيرا أنها تريد السفر من صميم قوادها وأن أبوها يقبل على الأرجح اذا اننا اقنعته ، وهذه يمكنني ان اقول انها قبلت ايضا وان كان الامر معقلا على رضا والدها .

قال المسيو بيجان : ألم يدعك المستر كراين للسفر معه الى بعض البلاد كالاستانة ؟ ألم يكانك السفر معه الى بلاد العرب ؟ فعجبت من وصول هذا الخبر اليه كل العجب ، خصوصا والمستر كراين كان حريصا على كتمانها وأنا لم افاتح أحدا به .

فرايت الواجب ان ابين له الامر بدون اكتراث فأتملت له حديثي كأنه لم يقاطني قائلا : اذا لم تستطع الانسة نازك عابد السفر فقد كلفني ان اشتري له بالخمسمائة ريال الباقية معدات سفر الى بلاد العرب مثل كوفيات وعقل ومقددات ومحفوظات ونراجيل الى غير ذلك من الحاجات التي خبرتها أثناء سفري الى بلاد العرب لان المستر كراين يريد السفر الى الجزيرة فاليمس فالعسير وقد كلفني السفر معه فلم اعطه وعدا قاطعا بالنظر الى مشاغلي الخاصة .

هنا تم الاستنطاق وبعدما كتبه على نحو ثلاث صفحات من القطع المتوسطة اعطاني اياها لامضييه ، فترصت ريثما عدت قراءته بالعام نظر وامضيته . واخيرا سألني : هل يأتينا الطعام من بيوتنا ؟ فاجبته بالإيجاب ، ولكنني بينت له الشدة التي نتابنا من قلة الشمس واستنشاق الهواء فوعد ان يقدم المساعدة ثم ودعني وانصرف .

من القص استعمل كلمة المفصلة ، وعبارة الدركي (فلان) وان كان فيها ما يدعو الى الاطمئنان الا انها تضاعلت بجانب هذه التصرّيات المزعجة .

مفادرة سجين القلعة :

كنا عارفين ان الطلب سيكون في الساعة العاشرة ليلا ، لذلك حلقنا ذقوننا في النهار ، وقرب وقت العشاء لبسنا ثيابنا وحياتنا انفسنا وقعدنا على فرشنا ، فلما ازفت الساعة دخل المريف علينا فجأة وصرخ علينا : استعدوا للمشى بعد نصف ساعة واطسوا فرشكم ولحفكم . ولكنه حلق فينا فرآنا قد سبقناه الى طلبه ، فدهش من تسرب الاخبار الينا وخرقنا النطاق المضروب علينا . عاد الينا بعد نصف ساعة ومعه سرب من الدركيين فأمرنا ان نمد أيدينا فوضعوا فيها السلاسل والاغلال ، وخرجوا بنا الى صحن القلعة بعدما حملوا امتعتنا ومنها الى مركبة كانت تنتظرنا عند البوابة الخارجية .

صعدنا الى المركبة وصعد معنا الدركيون يحيطون بنا من كل جانب ، فأخذت تسير بنا الهويتا ، وكان يجريها أربعة بغال كبيرة ، وهي المركبات المستورة التي لا قوس لها يدفع عن ركابها صدمات الطريق والتي يساق عليها الجناة عادة .

كنا مطربين من هذا المنظر الرهيب الذي زاد في وحشته ان الطرق مقطوعة من كل جانب عملا بأمر الاحكام العرفية التي خطرت التجول في المدينة من بعد الساعة السادسة مساء . وكان امامنا نحو خمسون جنديا واقفين بنادقهم وعليها الحراب قائمة تلمع من بين طبات الليل كما يلعب البرق بين الضباب القاتم ووراءنا عدد يقاربهم .

صوروا البنادق عند منفرج (السروجية) ومالوا عن الطريق العامة كما مالت المركبة بنا معهم ، ثم وقفوا هنيهة فما الذي طرأ ؟ طرأ ان ثلاثة من رجال التحري كانوا يرصدون الطريق لاتخاذ

المحتكرة وأسرارها

اقتراب الموعد وازدياد المضايقة :

اقتربت ساعة المحاكمة وازدادت شدة السجانيين في احكام الحجر علينا ونش طعمانا بحيث كانوا يتحرون اللبن الرائب الذي يأتينا بأصابعهم ويقطعون الارغفة اربا اربا خشية ان يكون فيها رسالة من الخارج .

ومما يذكر لهؤلاء الجناة ان الاخ منير بك شيخ الارض كان يوم الاثنين يسأل السجنان (دوس) بعض اسئلة تتعلق بنا ، فقال له هذا تشفيا : فدا سيكون يوما مذكورا تعد فيه المقصات ، فقال : لم المقصات ؟ فقال : لتقطع رؤوسكم ، وأشار بكفه على رقبته بالحر ، فوجم الاخ وعاد اليها وعلائم الاضطراب بادية على وجهه ، فقص علينا الحديث من اوله الى آخره فأطرقنا الى الارض جميعا ، وبقينا واجمين جينا من الزمن ، وقد قضينا يوم الاثنين على آخر من الجمر ننظر تقلبات الحدثان ونحسب لعبارة (دوس) الحسابان ، خصوصا وقد سبقها من سجان آخر عبارة تشبهها ، ولكن بدلا

وأفطرت معهم وما كدنا ننتهي من اكنا حتى جاءنا الضابط الدركي ووراءه عدد من الجنود يحملون البنادق وعلى رؤوسها الحراب ، فأمرنا أن ننتهي الى المحاكمة في الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين . سار بنا الى الطابق العلوي حيث انتظرنا في غرفة خاصة نحو نصف ساعة اجتمعنا خلالها بجلال بك محامينا فتذاكرنا مليا بشؤون المحاكمة .



الاحتياطيات ، فظنهم الجنود الفرنسيون أنهم واقفون لاجلنا ، فلما اطلعوا على الوثائق التي بأيديهم عادوا بنا الى السير في طريقنا الى أن وصلونا الى ساحة الشهداء حيث دخلوا الى بناية العابد .

في بناية العابد :

انزلونا وانزلوا متاعنا في صحن البناية ، ثم ساقونا والجنود محيطة بنا الى حجرة مظلمة تتبعث منها الروائح الكريهة وتشعر الاقدام فيها انها تدوس على الاقدار ، وبعد هنيهة نورا مصباحا كهربائيا بجانبنا فرأينا ما حولنا ، فاذا نحن في مطبخ مهجور يدل العزق الحديدي المنصوب في وسطه والرماد المبعثر على جوانبه على انه لم تشعل به نار منذ سنوات ، وبجانب النزن بركة فيها مياه راكدة اسنة تتصل بأنبوب ناشف ينتهي بحجرة خشبية قائمة بجانب البركة .

كنا عطاشى ظمأين فطلبنا ماء ، فاحضر لنا الجنود الافرنسيون الكلفين بحر استنجا جرة شربنا منها حتى ارتويتا ثم اخذنا نلاحظ اطرافنا وجوانبنا فرأينا امامنا كوخا جالسا فيه مفوض اسمه الحاج صادق المغربي رئيس القسم العدلي في الشرطة ومعه شرطي آخر فصارا يخاطبانا بطرف عيونهما وكان الجنود الافرنسيون يأتون من حين الى آخر فيطلون علينا .

أما نحن فكنا غير مكترئين بكل ما يجري حولنا وقد شعرنا بالافه صرنا نعد معها ايد الظالمين أحقر من أن تتألنا بسوء ولو توصلت بكل انواع المكاره ، وصارت قصور المورك وحظائر المامر بنظرنا سوية كاستنان المشط ، لاننا سمعنا بنو نفوسنا محقة في سماء العظيمة حتى صرنا مثل الدنيا بعين النسر لا فرق فيها بين الاشباح التي تتراءى منها لانها كلها صغيرة بجانب قبة السماء . اتخذت ظهر القرن - الوجاق - سريرا فوضعت عليه فراشي ونمت نوما هادئا حتى الصباح ، اذ ايقظني وقع اقدام اخواني ، فقممت وفسلت وجهي

افندي الغزي .

ثم اخذ المستعمون يدخلون الى الغرفة الخائية واحدا بعد واحد ، والجنود المسلحون يتنادقهم وحرابهم وقفوا مكانهم ، وقد عرفت من بين ارباب الصحف مراسل القطم ، وصاحب جريدة فتي العرب وسورية الجديدة ، ومن المحامين المستمعين عادل بك العظم وعبد السلام حلاينة المصري ، ومن الموظفين الافرنسيين الكومندان اريابوس صاحبالقائع المشهورة والمسيو سبرو مستشار العدلية والمسيو بيجان مستشار الشرطة وكثير ممن لا تحضرني اسمائهم ، ورأيت من ابناء الوطن يحيى بك حياتي ويوسف افندي الحاج صاحب مجلة الانوار وسري الاتاسي وغيرهم ، وامتلات غرفة الاستماع بالخلفية بالوطنيين لحظت منهم الشيخ توفيق المنيني والسيد عثمان الثريباتي وزكي بكشيخ الارض وندرو افندي مشافه ترجمان القنصلية البريطانية والحاج اديب خير واسبر افندي الدادا الى اخره بحيث تكسرت المقاعد من كثرتهم واخبرت ان البهسو الخارجي كان طافحا بالمستمعين والمنتظرين الذين كانوا على احر من الجمر ينتظرون نتيجة هذه المحاكمة التي لطخت اسم المدينة الحاضرة .

اما الاحتياطات التي اتخذت خارج الديوان العرفي ، فيكفي ان يقال ان المساكر انتشرت من شوارع السنجقدار الى نزل فكتوريا وكلهم شاكي السلاح ، والديابات تفرقت في ساحة الشهداء ورجال الامن من الشرطين ودرك ووطنيين وافرنسيين ملاوا المنعطقات والزوايا . وبالرغم من كل هذه الاحتياطات المرهبة كانت المساحة المذكورة تهييج كالبحر المتلاطم بالامواج من كثرة المنتظرين .

المحاكمة :

في الساعة السابعة والدقيقة ١٥ بدا الرئيس الكولونيل الى آخره (ولأجل الاطلاع على اطراف الدعوى وسير المحاكمة يلزم مراجعة الجرائد) .

يوم المحاكمة

طورا ووزير وطورا سجين :

وفي نحو السابعة سار بنا الدركيون والجنود المسلحون حولنا بحر سونا الى غرفة كبيرة ، شعرت عند رؤيتها بتيسار كهربائي يتششى في بدني فيعثر في منابت شعري لان اندثار معالمها لم يمنني ان انذكر انها كانت مكتب الأتومر السوروي يوم دخلتها وزيرا بمحفظتي وبزني السوءاء العلوية لاصحح فيها بيان وزارتنا قبل تلاوته على النواب الكرام وهانذا بعد مرور سنتين ادخلها سجيننا مكبلا بالحديد بلباس يكاد السجن يجعله من الاطمار البالية ، وبدلا من الجنود الواقفين بسلاحهم لتحيتي ارى جنودا مقومين حرابهم خشية هربي ، فسبحان مقلب الامور ومحول الاحوال .

امرنا ان نقعد على مقعد خشبي على صف واحد كنت على راسه ، وبجاني حسن بك ثم سعيد بك ووراءنا مقعد للمحامين ، وعن يسارنا مقاعد متعددة لارباب الصحف والوظفين ملكيين وعسكريين وعن يميننا خمسة متكات لاعضاء المحكمة ورئيسها ، وامامنا مقعد للمدعي العام في الديوان العرفي ، ووراء مقاعد الموظفين حجرة اخرى للمستمعين ورأينا العلم الافرنسي منشورا على الحائط وراء التكاات وفي وسطه رمز الجمهورية .

وما استقر بنا القام حتى دخل علينا رجال المحكمة جميعا فقمنا لهم بحسب الاصول ، وامتلات اكثر القاعد بأصحابها واصطف وراءنا المحامون عنا الاساتذة جلال بك وفارس بك والياس بك وسعيد

باشا القندار، لتوقف الشعور الفاتر في هذه الامة، لم تجد فيها من القوة ما يشفي الفيل، فأرسلت عليها ربحا صر صرا من اردان قضاة من الجنود المستعمرة فحركات الاموات في قبورهم وتجارب صداها العالمان القديم والحديث .

جرت السنة المحكمة ان الامم اذا احتاجت الى التبدل ، ان لا تتخلق خلقا جديدا ، ولكن أن تكيف تكييفا جديدا لموامل تدريجية متنوعة ، ربما كان على رأسها ظلم الظالمين . فهنئنا لنا ثم هنئنا اذا بلغ اعتناء القدرة بنا ان أرسلت علينا منذ الاضطرابات الاتحادية حتى اليوم ، جيشا من الظلام لم يترك زاوية من الزوايا المهمة ، بل ان الظالم والمغارم وأنواع الضغط في كل ناحية وصقع ، بلغت حدا لا يجهله حتى اقرب الناس وأشدهم اتصالا بالمستعمرين ، وأحرصهم على تحقيق رغائبهم ، ولو كان في ذلك زوال المجد القومي وانهيار الاوطان .

لم تؤثر فيما قسوة هذا الحكم سوى اثر الاستهزاء والاحتقار ، اذ شعرنا بعد رجوعنا الى المطبخ ، بشيء من الراحة التي تحدث عادة بعد البت في المسائل الخطيرة المعلقة . فلما تقدم اليها الطعام في المساء اكنا بقبالية وانشراح خاطر ، وقد بدا اثر من التعجب على وجوه الجنود الافرنسية على ما رؤا منا من قلة الاكتراث ، فكانوا يطلعون علينا فيتهمسون فيما بينهم ويتخاطبون برفع الحواجب ثم يعودون من حيث أتوا .

العودة الى سجن القلعة :

وفي نحو الساعة العاشرة ليلا ، دخل علينا الرئيس ، فقال استعدوا للخروج من هنا . وبعد هنيهة ركبنا المركبة التي اقلتنا في الليلة الماضية بعدما وضعت في أيدينا الاغلال ، وما كدنا نخرج من باب البناية حتى احاطت بنا الجنود من جميع الجهات وخرجت علينا الانوار من السيارات المصفحة والديابات التي كانت تحرس

وبعد تليفنا الحكم ونحن عتفدون وليس معنا الا الاستساز جلال بك وفارس بك ، بدت على وجوهنا علائم الاستهزاء والسخرية ، وضحك غير واحد منا على هذه العدالة ، التي يمن علينا بها القرن العشرين ، ويبنى عليها الخياليون حصونا من صفائح المعدن لاثبت امام غمز المهماز في أرجل الطففة العسكرية ان تشق من كل جانب .

ان القوانين اذا لم يكن لها في قلوب رجالها تلك القوة والحرمة التي اكتسبت بها الشرائع السماوية بردة من التجبيل والتعطيل والتقديس ، تكون آلة بيد هؤلاء الطائشين ليسخرونها لاغراضهم اللدنية ، ولشتمان بين العدالة التي تبغيها القلوب التي لا تخاف الوزارة والصدور بل واللوك أيضا ، امامها غير عارفين حكمها لهم ام عليهم ، وبين دساتير كتبت على ورق ليسخر بها متنطع من منططي الجندية ، فيجعل اسم اللدنية الحاضرة بعملة عارا وشنارا على مرور السنين والاحقاب . وترانا اليوم وقد جربنا الامسور بانفسنا وعرفنا تروير المستعمرين وقدرنا قيمة محاكمهم قلدرها ، اقرب الى الاعتقاد بان دريغوس كان بريئا ، وكابو كان مظلوما ، وبولو اعدم غدرا ، وان المسيو بوكاكزه لا غليوم الثاني رب الحارب كان سبب بلاء العالم في اوجسطس سنة ١٩١٤ .

ويل لكم ايها المستهزؤون بالانسان ، المستصغرون بقيمته ، العايثون بما زرعتم في قلبه يد القدرة من الشعور الذي اذا تفجر دك الحصون والمعاقل . هلا ثبتتم الى رشدكم بعدما امتدت ايديكم الاثيمة الى احرم المحرمات واقدس المقدسات ، فهتكها في هذه السنين الاربع ؟ اما ارتويتكم من الدماء التي سفكتموها في الشرق والغرب ؟ حتى جئتم الى هذه البلاد التي ذاقتم من ولائكم وبسبيكم من المجاعة والبلاء والتعذيب والشنق والقتل ما لا يقع تحت حمص ، لتقفسوا على آخر رفق منها باسم الام الرؤوم ، والاب الحنون ؟ . والظاهر ان القدرة التي سخرت محكمة عالية العسكرية ، ايام احمد جمال

وصول الاجبار من خارج السجن :

فطينا نهارنا تساورنا الافكار ونحن مقفون عن العالم الخارجي انقطاعا تاما ، وفي الليل بالوقت المعين انقطع النور الكهربي فجأة ، فالتفت اليها البطاقة الملوثة ففضناها ، فسادا صديقنا شريف ابو علي : لا تصدقوا ما يشاع من نفيكم بل تقرر ان تسلمكم السلطة المحلية ، لذلك ستكونون غدا في ادارة السجن الوطني .

سرى عنا هذا الخبر بعض الهموم ، ولكنه لم يشف غيلتنا ، وكنا نود ان نطلع على جريدة من الجرائد المحلية لنرى فيها خبر محاكمتنا والحكم علينا ، ولكن ذلك لم يتيسر لنا ، فذهبتنا الى فراشنا اكثر تعباً واقل اطمئنانا من ليلتنا الماضية ، فلم يغمض لنا جفن حتى منتصف الليل ، فنمنا اضطرابا من كثرة الجهد .

وبينا نحن في احلامنا المزعجة ، وكان الوقت قبل الفجر بنحو نصف ساعة ، او الثالثة بعد منتصف الليل ، اذ سمعنا صليسل الحديد ، فما كدت افتح عيني الا والعريف داخل ، فجلست وجلس من بعدي اخواني ونحن نساءل في انفسنا عن هذه الزيارة المستغربة في مثل ذلك الوقت المشؤوم . فصاح العريف في وجهنا قائلا بصوت جهوري ونبرة حادة : استعدوا فانكم ستذهبون من هنا بعد نصف ساعة ، ثم قال : اطروا فرشكم واكتبوا اسماء اهلكم لانكم لا تستطيعون ان تأخذوا شيئا معكم !!!

رسالة الى زوجتي ووداع الاهل :

تهمتنا كانت شديدة تتعلق بشوكة غايتها قلب الحكومة ، الحكم علينا كان جائرا وبمهما تكنفه الاسرار ، ولم يسبق له مثيل ، وخصمنا استعماري عنيد لا يراعي الا ولا ذمة ، والوقت هو الوقت

ساحة الشهداء بجانب المجلس البلدي .

سرا الى جهة السجنقدار ، فسارت الجنود امامنا ووراءنا ، وكانت تتماوج كتماوج الزرع في الحقول عند هبوب الرياح ، ولم نصادف في طريقنا احدا حتى انتهينا الى القلعة فاعدنا الى حجرتنا ، حيث نمنا نوما هادئا لم نمنه في ليلتنا الماضية .

وفي الصباح دخل علينا السجنان دوس ، وصاح في وجهنا قائلا : الان صرتم من المحكوم عليهم ، ولم تعودوا من الموقوفين ، فالواجب ان تقوموا بتنظيف حجرتكم ، والا فاننا ارتب على كل واحد منكم من غير تفريق نوبة يقوم بها ، فذهبتنا عنه كلفة العناء لان بعض اخواننا قام حالا وكس ورش ونظف الحجرة من الاوساخ المتلبدة على راحتها منذ اشهر .

جلسنا بعدما فطرنا ، واخذ كل واحد منا يبحث في نفسه عن هذه المحاكمة الغريبة ، وعن سر المحاكمين ، وكيف انهم لم يقيدوا اخواننا ، بل اكفوا بالتهمة التي وجهها علينا المدعي العام . ومن ثم اخذنا التعجب من هذا الحكم الذي تجاوز اقصى حد ذهبت اليه التهمة . ولكن الشيء الذي بقي سره محجوبا عنا ، واخذ تفسره منا كل ماخذ ، هو اختصاصهم في تبليغ الحكم علينا وحدنا دون المستمعين ، كما تبين لنا وقتئذ ، كانهم ارادوا ان يلفونا شيئا ويبلغوا العالم الخارجي شيئا آخر .

ليس على المستمعين بمستكر ان يتكروا كل انواع الحيل ، لان سورية في نظرهم لا تستحق ان يحترم فيها القانون ، وهذا ما نذكر به (بريطون) لما حمل على الادارة في هذه البلاد ، وبين كيف احرقت القرى ، واهلكت الحرث والنسل ، ولما اجابه المسيو بوناكاره بقوله : تذكر انك في سورية ولست في فرنسا !! .

الا بالله المولى العظيم ، ومن قائل انا لله وانا اليه راجعون ، وسمعت آخر يقول : واسفاه على شبابكم يارجال الوطن .

حق للسجناء أن ينفصوا ايديهم منا ، لان الوقت الذي خرجنا فيه هو وقت المشاق عادة ، والذين بقيت الاوهام تساورهم منسا زادتهم هذه الجمل فزعا . وانت ضغفا على ابالة . ولكن رؤيئة السيارات عند باب القلعة كانت آخر الملامات التي دلت بطبيعة الحال على نفينا ، والخلص من اتصالنا بعاصمة سورية وتهيمن ابناءها

سوقنا الى ساحة الاعدام ؟

أم الى أين ؟

كان الليل هادئا ، والطبيعة نائمة ، والسمااء قاتمة تشع من خلالها النجوم ، كانها المصابيح بأيدي القدرة لتري الجلادين طريهم في هذا الليل الحال . وكان صوت المؤذن من الجامع الاموي يرن في الفضاء ، فيترجع صده من الجبال كانه صوت نفينا السى المستقرقين في نومهم النائمين بأحلامهم ، ومن الحق أن غير واحد كان يسائل نفسه اتراني يقدر لي ان أرى هذه السماء في الليلة القادمة؟ أم اكون في لحدي يجلني التراب ويعلو في الأجر وترطب قيدي الدموع السخية ؟ . كان بانتظارنا على باب القلعة سيارتان كبيرتان من صنع (فيات) ، وقبل أن نركبها التفت أحد الاخوان فوجد دركيا سوريا بجانبه ، فسأله : هل نصبت المشاق لنا في ساحة الشهداء ؟ فلم يبد جوابا . ومن ثم صعدت أنا والسيد حسن والسيد منير الى السيارة الاولى ، وركب سائر الاخوان بالسيارة الثانية ، وركب معنا تسعة من الدركيين بمسدساتهم ، ونحو خمسة عشر جنديا نظاميا بأسلحتهم الكاملة . اقلتنا السيارات ونحن ننظر بتلهف الى أي جهة تتجهان بنا ، فلما مالتا بنا الى اليسار الى جهة الشارع تحققنا اننا خارجون من بلدنا ، فقلت لاجواني

المناسب التام للجر الى المشاق والامر الذي صدر من قسم العريف واضح لا يحتاج الى التفسير ، فلا غرو أن تظهر علينا علام الاضطراب ، لان المناجاة بالوت مزعجة على كل حال ، ولا عجب ان يسأل كل منا رفيقه الى الموت ذاهبون ؟ فكان الجواب : نعم من الممكن أو من المرجح أو بلا شك . فهجنا ومجنا هنيئة ، وصرنا نروح وننفدو في الحجرة على غير قصد ، واخيرا طوينا الفرش واخذ كل منا يكتب ما سمع به المخاطر المضطرب . اما انا فاني قلت لزوجتي : الان دعيت الى الذهاب الى مقر اجهله ، قبلي عني وجنات الاولاد . وربما كتب غيري انه ذهب الى الموت فهو يودع اهلته وداعا لا لقاء بعده ، وكتب غيره انه ذاهب للقاء وجه ربه فيسر خائف ولا وجل .

لم تمنعني هذه الاضطرابات البادية على كل واحد منا من استعمال التؤدة والثاني لفهم حقيقة الواقع ، اذ انني تقدمت الى العريف فسألته : هل تمنعون عنا تقل كل شيء حتى قميص النوم ؟ فقال : لا اظن ان هناك ما يمنع من اخذ صرة صغيرة فيها القميص الذي اشرت اليه ، فأطمأننت بعض الاطمئنان ، والتفت الى اصحابي فأخبرتهم بما حدث ، ولكن الاضطراب بقي باديا على وجوههم . ثم حدث امر اخر هذا روعنا كثيرا ، وهو ان العريف دخل علينا حاملا بضعة أرغفة مع علب من اللحم ، فقدمها لنا وقال : لا تستطيعون ان تطالبوني بجريبتكم فها قد اعطيتكم اياها . والواقع ان عمله هذا خفف ما علق بنفسي من تلك الافكار المرعبة .

مفادرة سجن القلعة من جديد :

دخل الدركيون فوضعوا الاغلال في ايدينا ، وحملوا تلك الصرد التي جهزناها مع الجراية ، وخرجوا بنا الى صحن القلعة ، فأطل علينا السجناء من التوافذ والابواب ، فكنت لا تسمع الا ترديد امفهم على شبابنا وحسرتهم على اعدامنا ، فمن قائل لا حول ولا قوة

طريق بيروت ونحن لا نندري الى اين حتى بلغنا شتورا ، حيث تنازلنا في الحانوت فطورنا لبنا رائبا وزيتونا وبيضا ، وكانت اليد الواحدة من كل منا مغلولة الى يد رفيقه . ثم استأنفنا السير حتى نفق صوفر ، وهناك عادنا بنا الى طريق بنخني الى جهة الجنوب ، بعدما نزل الضابط الموكل امر حراستنا اليه ، فسال احد الفتيان سؤال المستنير المستفسر ، مما دلنا على انه ضل الطريق .

عرجت بنا السيارات على طريق نقر يلتوي بين الاودية الزمردية ، فمن دور منفردة على الطراز الحديث ، مبنية على القمم ، الى الكواخ متقاربة على الحوانيت ، الى عيون ثراء ومروج خضراء ، وكاني ببعض تلك المناظر قد انطبع رسمها في ذاكرتي وان فانتسي انها هي « عين زحلنا » التي زرتها من نحو عشرين سنة ، والقناع الذي سبحت فيه مع اخوان الصفاء وخلال الوفاء . عجبا عجبا هل قدر المستعمرون ان ينزونا الى لبنان ، فيضعونا في بيوته المهجورة بحراسة هؤلاء الجنود ؟ وبذلك يطبقون علينا نظام الاعتقال ، أم هم ذاهبون بنا الى مقر ابد ؟ ، وعلى كل حال زال من خاطري احتمال السفر الى ارواد او (كورسيك) .

الوصول الى بيت الدين :

وبينما كانت هذه الهواجس تدور في صدري ، اذ ذكرني الاخ السيد حسن الحكيم انه قرا منذ شهرين أن حكومة الانتداب قررت جعل بيت الدين معتقلا عاما ، واننا في القند ذاهبون الى سجنها ، فاستغربت كلامه ، ولكن هكذا كان ، لانسي بعد هنيهة سمعت الضابط يسأل احد الصبيان كم بقي امامنا للوصول الى بيت الدين ؟ فأجاب : قليلا . وبعد هنيهة رأينا ميلا منصوبا ، كتب عليه مفترق الطرق ، يدل من الجانب الواحد على الجهة المؤدية الى بيت الدين ،

نتمتعوا بمنظر هذه السماء الصافية ، وهذه الارض الراهية ، وباشجارها الباسقة ، وحدائقها الفناء ، وانهارها المندفقة ، لانسه لا يعلم الا الله متى يقدر لنا ان نراها مرة ثانية ، واكي رجل يودع منظرنا من المناظر لاخر مرة يشعر بحزن ، فما بالك بمن يفارق محطته ومنشأه ؟ ويترك وراءه اصدقاءه واخوانه وابناءه ؟ الا يرى في كل شيء يقع نظره عليه شيئا من الحزن والمطافة ؟ .

بين دمر وميسلون وصوفر :

تسلمنا طريق دمر الهامة ، ورأينا سيارة مدرعة تعدو وراءنا لتحافظ علينا من هجوم من ظن المستعمرون انهم يحاولون انقاذنا . وما زلنا نسير سيرا منتظما حتى بلغنا صحراء الديماس ، ومنها خان ميسلون ، حيث اطللنا من تحت الستائر المستولية علينا لرمق قبور الشهداء ، وفي مقدمتهم البطل العربي السيد يوسف العظمى وزير الحربية في الحكومة العربية السورية الذي بذل نفسه بطوعه واختياره في اليوم الاخير للدفاع عن البلاد التي اشتهت . وقد صعب علي في تلك الحقيقة ان اقول من هو احسن حالا نحن الذين نرى اعداء الوطن يعيثون في الارض فسادا ويتمتعون برقاب الاهلين ؟ ام هو في لحدده بعدما قضى واجبه ورأى بنفسه عن أن يحملها مالا طاقته لحر ان يحمله ؟ .

وجرى في السيارة وراءنا أن المركبين الافرنسيين صنادوا يوهمون اخواننا بالتلميح والاشارة واخراج الاوراق الرسمية من جيوبهم ، انهم يريدون اعدامهم في الساحة المذكورة . وانفق ان السيارة في تلك الاثناء وقفت بهم قرب ميسلون ببقعة من الطريق ، فكانوا ينظرون الموت على ايديهم كل حين ، والواقع انهم لم يطمئنا حتى خلصوا منهم بتاتا ، وما زلنا السياراتان تعدوان بنا على

السجن في قلعة تبست الدين

دخول السجن وتسجيل الاسماء والتفتيش :

نزلنا امام ساحة السجن فادخلنا الدركيون الى حجرة المدير ، وكان رجلا مدنيا في نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، اسمه المسيو ستيفن ، تدل ملامحه على انه عربي تفرنج أو افرنجي تعرب ، وترجع عندنا النظر الثاني لنحفته ورشافته وظهور الانس على وجهه ، بخلاف الثقالة التي تبدو على العربي المتفرنج عادة ، فسجل اسماءنا واحكامنا من الاوراق التي يحملها خفراؤنا . ومن هناك ذهبنا الى مدخل السجن حيث لفتنا الى جهة اليسار ، فدخلنا في دهليز طويل ، وقف لنا في آخره الضابط الافرنسي السجان والضفراء ، فدخلوا في تفتيشنا تفتيشا دقيقا ، فلم يتركوا لنا شيئا له قيمة ، حيث اخذوا ساعائنا واقلامنا فضلا عن دراهمنا ، وبلغ الامر بهم انهم استغلوا احذيتنا فنقبوها خشيعة ان نتخذها معطام . وبعد ذلك ودعنا الضابط الافرنسي وقال لنا ان المدير مسؤول عنا واننا اذا كانت لنا حاجة علينا ان نطلبها منه وهو كفيل بقضائها .

ثم فتح لنا الباب فدخلنا حجرة واسعة ذات نافذة كبيرة تطل على حديقة نضرة والى يسار الباب جرن نصب فيه عين سلسبيل تأخذ بمجامع القلوب . أمر مدير السجن لنا بالحصر ففرشت على

وأن المسافة اليها كيلو متران ، فأتجهنا حتى اطلعنا على القرية ، واول ما بدا لنا منها السجن ، دلت عليه الشبايك الصمغرة العالية ، والبناء الضخم الصنعة ، ولم تمنعنا الحوادث التي مرت بنا سراعا من لمح تلك المناظر الرائقة التي تخلب الانظار . والحق يقال انني والاخوان الذين معي في السيارة كنا مستبشرين ، بغلب علينا التفاؤل من هذه السفرة ، خصوصا بعد ما زال من النفوس كل خوف من النفي الى البلاد السجينة .



يراه الا المرضى ، وان المنح الطبيعية منهل عذب لا يظما الى وروده
الا الصيادون .

كرم السجناء السابقين :

الهمنا النافذة حينما عن الالتفات الى مضجعنا ولكن الفسق
حول وجهنا فاخلدنا نفكر في امرنا ، وهل منا من يستطيع النوم على
التفرشة ؟ حصر بالية من تحتها عدسة قاتمة . بيد ان السجناء
لم يشعروا بأمر الا وتسابقوا الى اسداء يد المساعدة لسا ، وفي
مقدمتهم فوزي بيضون الذي اهتمته السلطة باخراق الاعتسدة
الحربية ، فحكمت عليه بالسجن المؤبد منذ سنتين او اكثر ، هذا
قدم فراشا وذاك مخدة وآخر ركوة أو طباحا ، الى ان حصلنا على
حاجتنا الضرورية ، وكان معنا بقية باقية من خبز ولحم محفوظ ،
فاكلنا شيئا منها وشربنا الشاي ، ومن ثم بسطنا النرش الثلاثة
التي اخذناها من السجناء بالعرض ، ومننا عليها اثنين اثنين نومنا
هنيئا هادئا ما نمنا مثله منذ ليل .

طعام السجن :

وفي اليوم الثاني دخل علنا المسيو ستيفن ومعه رجل عجوز
من بني البستاني اسمه الخواجة سليمان كله انس ولطف ، فذكر
لنا انه التعهد واننا اذا احتجنا الى شيء من الاكل والشرب
والتاع فهو مسؤول عن اعداده ، فحضرتنا قائمة لطعام الغذاء والعشاء
فلم نجد من حاجتنا الا الزيتون والبيض واللبن الرائب المقطوع
(لبنه) مع الخبز الذي يتناوله السجناء عادة . اكلنا وشربنا من ذلك
الماء القراح الذي يحيي القلوب ، ثم تقيلنا ، وقرب العصر قمنا الى
شباكنا فقمنا نتمتع من تلك المناظر ونتجاذب أطراف الحديث ،
ويجمل بنا ان نزيد في تفصيل جرتنا التي عددناها كالجنة بالنسبة
الى حجرة قلعة دمشق .

الارض ، ومن ثم اعتذر لنا انه ليس عنده غطاء ولا وطاء ، وان القرية
صغيرة لا يوجد فيها من ذلك شيء ، ولكن يستعمل جهده عليه
يستطيع ان يستعير لنا من المسجونين شيئا ننام عليه ، ثم ودعنا
واقفل الباب وانصرف .

اما نحن فاننا خلطنا البستنا الرسمية لبستنا قمصان النوم
وفسلنا وجوهنا ورؤوسنا ، ثم صعدنا عتبة النافذة وكانت عريضة
فقمنا عليها وتنعنا بمنظر لا اذكر انني رايت في حياتي أجمل منه ،
وربما زاد في رونقه الحبس الطويل الذي قضيناه ، فاوّل ما تطل عليه
العين منه حديقة انيقة فيها من أنواع الاشجار ما يسحر الانظار ،
وأجملها دوحة كبيرة رصعت بزهر احمر بلون الجلندار وصورة
الاقداح ، فيها عيون البراعم الخضراء الزمردية كانها التطيرز على
الدجاج الأرجواني ، وكان شكلها كالقبة ، ولها فرع منها بجانبها
كانه شرفة تطل على الوادي المنحدر من أسفلها .

وعلى القرب بيت مبني على الطراز الحديث يكاد سطحة الاحمر
يلمس السماء ويدل على ان باليه من الدين اثروا في البلاد
وعادوا بثروتهم يدفنوها على قمم الجبال ويتمتعوا بمناظر هذا
الوطن العزيز .

مالت الشمس الى الغروب فارسلت أشعتها علينا ، فشعرنا
في انفسنا بنمو وبسطة ، كان يد السجنان التي حاولت كل تلك
المدة ان تحت اصول الحياة منا لسد النافذ عنا ، هدتها الى
تقدير قيمة المواهب الطبيعية المحيطة بنا حق قدرها . فتناك الشمس
المحركة التي كنا نتجنب اشمتها بالمظلات أصبحت عروش المشرق
تتسابق الى لثم محياها ، والخضرة البتلة صارت عزيزة ولو
نبتت على اصول الجدران وزوايا الاعتاب ، والهواء الطلق الذي ملا
السهل والجبل هو النشوة التي تسمو بالنفس من مهابط الخمول
الى معارج النشاط ، حقا ان الصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا

عاد اليينا المدير المسيو ستيفن وقت العصر ، ومعه قائد درك السجن واسمه السيد عبدو والسجان السيد سليمان . . . وبعض المحافظين ، فوجدنا من الجميع ملاطفة وأنسا حتى أن السجان لما أخبرناه عن شدة اشتياقنا الى قراءة الجرائد والاطلاع على مجريات الامور ، أشار اليها بظرفه انه سيلبي الطلب ، ثم سألنا هل نحن بحاجة الى شيء آخر ؟ فقلنا : الى الخروج تحت القبة الزرقاء وتعرض اجسامنا الى الشمس فقال : انتظروا الى أن نأخذ التعليمات بهذا الشأن ثم اقلوا علينا الباب وخرجوا .

لا يقل التضييق علينا في امر الاختلاط هنا عن دمشق الشام ، بل بقينا في بيت الدين الى آخر ايامنا ممنوعا عنا مقابلة أحد او الاجتماع بالناس . وقد وجد السجناءون فيما بعد أن يكفوا السيد عبدو بتناول القائمة منا واعطائنا حاجتنا من النافذة من غير فتح الباب والولوج منه . ومما لفت انظارنا وعجبنا منه كل العجب ولم نفسره تفسيراً معقولا الا بعد مرور ايام ، ان المسيو ستيفن جاءنا في ضحي اليوم الثاني وهو يوم السبت ووقف بالنافذة يحادثنا فقال : ان اصله من الشام من أسرة رومانية وأن اخاه هناك اسمه أريكو ، ومن ثم انتقل برشاقة الى حديث آخر ، فقال : الحكم عليكم هو الاعتقال ، وقانون الاعتقال عندنا يسمح للسجين بالسكن في القرية في البيت الذي يختاره ، على شرط أن يأتي كل يوم في الصباح لسجل اسمه ، وذلك بعد تقديم الضمانة المالية فقولوا : هل انتسم اغنياء ؟ وكم باستطاعتكم أن تقدموا في هذا الباب ؟ فقلنا له : الوف الجنيهاات ، من العشرة الى العشرين فالثلاثين . فhez رأسه وقال : طيب ، ثم ودعنا وانصرف .

خلاف بين المدير والسجان على معاملتنا :

وعلمنا في المساء من تغير السجان أن اختلافا حدث بين المدير وبين السيد سليمان ، يتعلق بامر التضييق علينا ، فكان هذا من

حجرتنا طولها نحو تسعة امتار وعرضها نحو الخمسة ، وسقفها عقد من الحجر الرصوص وجدرانها متينة من الحجر الصلب ، محكمة البناء لا تكاد تدخل فيها المسامير الدقيقة ، ومقامتة متر ونصف ، ولها باب من الحديد مربوط بالسلاسل والاقتال ، وله نافذة صغيرة مشبكة بالحديد لتناول الاشياء . اما النافذة التي كنا نجلس على عتبتيها فهي كبيرة ، يبلغ طولها نحو قائمة ونصف ، ومصلبة بقضبان الحديد الشخصية ، والجون بجانب الباب وفيه مصب الماء ، ومن ورائه محل الراحة ، فيرى القاريء من ذلك ان السجن يستطيع البقاء في هذه الحجرة ما شاء السجان أن يبقى .

واحتنا في بيت الدين :

علمنا أن مؤسس السجن وبانيه الامر بشير الشهابي ، وأن الذي أصلحه وجعله على هذا الطراز الحديث ، هو رستم باشا المصالح التليد ، وليت الحكومة التركية التي بقيت في البلاد مشات السنين تلفتت الى دمشق عاصمة البلاد السورية ، فأنفذتها من تلك القلعة التي يعد سجنها عارا وشنارا على المدنية الحاضرة ولكن ابت أن تنزل فتأخذ درسا في الحضارة من أمراء سورية العرب ووزرائها الارمن !!! انني لم ادخل صحن هذا السجن ولكن رمقته وأنا داخل الى حجرتي ، فوجدته أشبه شيء بساحات المساجد الكبرى في سورية ومصر ، وأبواب حجره مغلقة على الصحن مباشرة ، وهي عرضة للشمس معظم النهار ، ولا أبالغ اذا قلت أن الامر الذي تركه هو أثر مصحح لا سجن ، خصوصا وأن اكنا فيه ازداد عن الشام اضعافا مضاعفة ، وصحتنا تقدمت تقدما محسوسا ، وكولا التشديد علينا بالبقاء داخل الحجرة معظم المدة التي بقينا فيها في بيت الدين ، ولولا ضيق قائمة الطعام واختصارها على الاصناف المتقدمة ، ما عدا قليلا من اللحم وشيئا من الخضرة والفاكهة في بعض ايام الاسبوع ، ولولا اثنا المؤلف من ثلاثة فرش من السجناء وفرشتين بالاجرة من أحد الجنود الدروز ، لقلنا اننا في مصايف سويسرة .

في الصباح هل أرسلت ؟ فلم يعطنا جوابا شافيا ، بل نصحننا أن
نعتدل قليلا في كتابتنا ، وهذه صورة البرقية المذكورة :

برقية احتجاج : دمشق

سماعة مندوب الفوض السامي

« أو قفتمونا وسفرتمونا على حين غرة ومن غير استعداد
لثومات الحياة ، ومنعتمونا من الاختلاط واستنشاق الهواء في الخلاء ،
وما خصموا لنا ما يقوم بأودنا . الا ترون هذه المعاملة جائرة في
القرن العشرين ؟ »

عن المعتقلين السبعة
الشهبندر

ثم أملت على السيد منير البرقية الآتية :
السيد زكي شيخ الارض ،
بلغوا اهالي المعتقلين اننا جميعا في شقاء ، خالين من الدراهم
والايس ومن مخصصات تكفل عيشنا .

وللك منير

فوعدنا خيرا ثم اخذ يعتذر لنا عن قصوره معنا وأنه يود لو
سمحت له الاحوال أن يخدمنا بها يستطيع ، ثم ودعنا وانصرف
غير مخف ايجابه بحر كنا ووطنيتنا .

قرار عدد من السجناء :

وحدث في الليلة الثانية وهي ليلة الاثنين أمر ذو بال ، لا بد
أن يكون حمل المستعمرين على الشك في أمرنا والخوف من حر كاتنا
وسكاناتنا ، وهو أن احد عشر سجيننا من ذوي الاحكام المتراحة بين

طالبي التساهل والمعاملة الحسنة ، وذلك من القائلين بالتشديد الى
ان تصل التعليمات النهائية . والظاهر ان الاختلاف ادى الى
المشائمة والملاكمة ، مما حمل الحكومة على كف يد السيد سليمان
وأخذه تحت المحاكمة . ومن دواعي الاستغراب ان لا يكون لنا الا
يومين فقط في السجن ، وقد احدثنا في ادارته هذا الانقلاب السريع
فقسمنا موظفيه الى فريقين ، فريق يقول بالاخذ بناصرنا في الحال ،
وفريق يؤجل ذلك ويعلقه على الاوامر . انها الوطنية شعرت بضيقة
فتريد أن تنففس ، وحين وجدت غذاءها انسابت بطبيعتها نحوه
أرادت او لم ترد . وماذا يكون شأن سجن نصف موظفيه وثلاثة
أرباع جنوده وحراسه يعطون على قضية جبننا من أصلها ؟ وكنا
في اظهر مظاهرها ، فترى الحارس منهم اذا اعتكر الليل وانقطع
الطريق يتفنى بذكر الوطن ويرى انقاده من يد الاجنبي الدخيل
فرضا . ولا يسمى ان أبوح بكل ما شاهدناه في هذا الامر من
ضروب المساعدة والانعطاف ، بل حسبي ان اقول ان الشعور في
اللبناني الصميمي الاتجاه نحو الحرية والخلص من الاستعمار ،
رغم انف الاجراء الذين يشوهون سمعة بلادهم فيظهرونها بمظهر
اللذل والاستسلام .

زيارة مفتش سجون لبنان :

زارنا في السجن عصارى السبت السيد بشارة البوري ،
مفتش سجون لبنان الكبير ، فاطهر لنا كل عطف ولطف وقال لنا :
ان البعثة حائرة في أمرنا ، وهي تنتظر التعليمات المتعلقة بنا من
باريز ، واننا على كل حال ضيوف مؤقتون في بيت الدين ، وان
الفكرة عند الافرنسيين انفسهم ان لا يطول امر السجناء اكثر من
ثمانية او تسعة أشهر . ولم يروا شيئا في اجوبتنا امام المحكمة
العسكرية ما نؤخذ عليه ، بل بالمعكس قدرها كما قدرها كل من
اطلع عليها حتى من الاجانب حق قدرها . فسالناه عن برقية كتبناها

لأنه حصل عقب مجيئنا ، فأرسلت البعثة حالا ثلاثين عربا ودركيين ، فسلمتهم إدارة السجن وكفت يد الميسو ستيفن وسلمت مفاتيح السجن لبيروتي متمصر أو لصري متبهرت اسمه الحاج محمد . تظاهر بالشدّة والتقطيب في الايام الاولى ، ولكنه عدل عن هذه الخطّة الجافية في الايام الاخيرة ، وبقي علينا سجان مسلم من لبنان اسمه مصطفى حمدان ، تشكى اخواني من معاملته حق الشكاية ، والواقع انه من اولئك الموظفين الذين يربطهم جيبهم برباط وثيق فيعجزون عن التقصير بالواجب القانوني فضلا عن اسداء العونة .

بلغ عدد الوطنيين الدركيين لخفارة السجن نحو الخمسة عشر مع قائدهم ، ولكن هذا العدد ازداد ضعفين ثم ضعفا ثالثا ، وهكذا أصبح العدد وافيا لضرب نطلق من حوالينا بمنع اتصالنا بطيروز السماء . هذا من الوجهة النظرية ، وأما الواقع فاننا أيضا خرقنا هذا الحاجز بدعوتنا أولا ، وبمانسا ثانيا ، كما يرى القارئ في القريب العاجل .

وفي يوم الثلاثاء عاد السيد بشارة البويري للبحث عن الحادثة المهمة ومعه السيد جورج زويني المفتش المدني في دولة لبنان الكبير ، فدخلا علينا . واخبرانا ان الجنرال قد عاد من رحلته الى باريس في اليوم السابق وان اول قضية عرضت عليه قضيتنا . واعاد السيد بشارة ما قاله في اليوم السابق ، ان بقاءنا في سجن بيت الدين مؤقت على التحقيق ، ولكن لا يدري الى أين يكون مصيرنا . فقال السيد جورج ان البعثة سألت باريز في امرهم ، وهي تنتظر جوابها ، ولا ندري هل يرسلوكم الى قلعة محصنة في فرنسا مثل (فردون) او (الفوج) مثلا ، او الى غيرهما . ولا ذكرت جزيرة ارواد اجاب جوابا مبهما ، ثم في النهاية قال : الان وقد عاد الجنرال فانه سيبت في امرهم مع الحكومة الجمهورية . وقد حثنا السيد بشارة على كتابة شيء الى الجنرال ، نذكر له فيه شيئا من جور هذه العاملة ، فاجبنا في اول الامر ، ولكننا رأينا من المصلحة بعد حين ان نكتب الكتاب الاتي

المشر سبتين الى المؤبد ، ثقبوا العقد الحجري في السقف ، وفروا في نحو الساعة العاشرة ، وكان بينهم فوزي بيخون المار ذكره ، واحمد الحبال ، وفائق الشرطي ، ووديع كرم من بيروت . وعمر اللوزي قبل الفراوي وغيرهم ممن لم نعثر على أسمائهم .

فبينما كنا سارحين في أحلامنا اذ ايقظنا ستيفن في الساعة الثالثة صباحا ، وأوهما انه يريد ان يسألنا هل لنا غرض في بيروت ليقضيه لنا ، لانه مسافر في ذلك الصباح اليها ، فنشكرنا له اعتناؤه ، بيد اننا استغربنا هذا السفر الفجائي ، فسألناه عن السبب ، فقص لنا ما جرى ، فقلنا انه انما ايقظنا ليطمئن ، هل نحن في حجرتنا أم قررنا مع من فروا . والواقع اننا لما اطلعنا في اليوم الثاني على جلية الامر لم نبرء ساحته وساحة كثيرين غيره من الاشتراك في هذا العمل الغريب ، اذ كيف يعقل ان يتمكن احد عشر سجيناً من قنب عقد من الصخر تتجاوز صفاقته الدراعين ، فيفرون امام الجند الذين لا يفارقون السطح ، ومن بين يدي الخفراء الذين يطولون على السجناء من التوافد كل ساعة ، وعلى كل حال كانت نتيجة المحاكمة فيما بعد عزلة مع ثلاثة من المسجاليين .

اننا على مثل اليقين انه لو قدر لنا ان يبقى مديرا في ايامنا ، وارادنا ان نحذو حذو هؤلاء لما تعدر علينا ، وما سؤاله عن ماليتنا والضمانة التي نستطيع ان نقدمها الا مقدمة لذلك .

أما ما جرى للسجناء المذكورين ، فان الدرك التقطهم واحدا فواحدا من القرى المجاورة ، وآخرهم كان احمد الحبال ، فانه نزل الى بيروت وهدد القاضي الذي حكم عليه في بيته ، وفي اليوم الثاني رآه شرطي في الطريق فأمره ان يقف فلم يلتفت الى كلامه مما حمله على اطلاق النار عليه فأرداه صريعا يتفرج بدماه .

تغير إدارة السجن أثر ذلك

سبب هذا الهرب انقلابا عظيما في السجن واضطرابا في ادارته،

وانبعنا هذا الكتاب الى الجنرال بكتاب آخر الى نفس المفتش ليكون لديه حجة لاجل مساعدتنا والسؤال من البعثة عن امرنا وهذا نصه :

رسالة الى مفتش السجون :

حضرة الفاضل مفتش السجون في لبنان المحترم ،
لنا الشرف ان نعلم حضرتكم انه جيء بنسا من دمشق على جرة من غير ان يسمح لنا باتخاذ الاحتياطات الكافلة لراحتنا ، وقد مضى علينا ستة ايام في سجن بيت الدين ونحن بحالة سيئة جدا ، بالنظر لفقد الوسائط الصحية من هواء طلق وغذاء صالح ونوم مزيج ، فاذا اضفنا فقد الالبسة والمال معنا ، قدرتم ما نتحمل من العناء والشدة ، لذلك اتينا بعريفتنا راجين من حضرتكم ان تزيلوا عنا الاسباب المفسدة بصحتنا وتاذنوا لنا بمخاطرة اهلنا بالششؤون الخصوصية المتعلقة بنا . واذا كان في النية نقلنا من بيت الدين ان تعلمونا قبل ذلك بمشرة ايام على الاقل ، لنستحلب من يوتنا ما نحتاج اليه من الضروريات ونفضلوا في الختام بقبول مزيد احترامنا سيدي ،

عن المعتقلين السبعة .
الشهبندر

ثم لما ادرك المفتش قرب نفاذ المال في ايدينا ، قال انه مستعد ان يوصل لنا بصورة شخصية اي رسالة تتعلق بهذا الموضوع لاي احد من اصحابنا في بيروت . فخشينا ان يكون في الامر دسيسة يراد بها معرفة من نعتد عليه في بيروت ، فانخبنا من اصحابنا المتبحر من لا تحوم حولهم التهم فكتبنا له ما يأتي :

رسالة الى صديق :

حضرة الاخ الفاضل المحترم .
سلاما واحتراما وبعد . فقد بلغنا مغادرة دمشق على حين

لنسجيل به على فخامتكم وعلى المستعمرين بعبارة رقيقة ما امكن ، هذه المعاملة القاسية التي لو صدرت بالقرون الوسطى لعمدت مستفربة ، خصوصا وقد فهمنا من السيد بشارة ان سفرنا قد تقرر ، وانه قد يباغتنا الافرنسيون كما في المرة الماضية فيحملوننا من غير ان يكون معنا شيء من لوازمنا الى منفى ربما يكون من وراء البحار ، وشأن هذه الامة مع خصوصها بالقسوة مشهور جعلها مثال الانحراسة في نظر العالم المتحدين ، والخلاصة اننا بعد المذاكرة قررنا جميعا كتابة ما يأتي :

رسالة الى المندوب السامي الفرنسي :

فخامة المندوب السامي في سورية ولبنان العظيم .

المعروض لفخامتكم اننا بلغنا مغادرة دمشق في الساعة الثالثة من صباح عشرين نيسان سنة ١٩٢٢ على جرة من غرة ، فلم يكن معنا من اللوازم الضرورية من حال اللباس وادوات النوم ما يكفل لنا شيئا من راحتنا ، وقد جيء بنا الى سجن بيت الدين في (لبنان) ، بعد ان بقينا في قلعة دمشق اسبوعين كاملين لم نر فيهما الشمس ، ولم نستنشق الهواء الطلق ، ولم يسمح لنا بمقابلة اهلنا . ونحن اليوم في سجن بيت الدين على مثل تلك الحالة ، بل اشد ، وقد انتهزنا فرصة تشریفكم بالسلامة ، فكتبنا هذه المريضة راجين فيها من فخامتكم وانتم اعلم الناس بحقيقة ما نسب اليها ان نعامل بمثل ما يعامل به المعتقلون السياسيون امثالنا ، وان تسمعوا لنا بمخاطرة اهلنا بعدما تتكلمون علينا بتعليمات فخامتكم النهائية بما يلزمنا من الحاجات الضرورية وعلى كل فالامر لفخامتكم سيدي ،

في ٢٤ نيسان سنة ١٩٢٢ .

عن المعتقلين السبعة
الشهبندر

السجن الناشف ، ثم أخذنا نوع المأكول ، فالفركات والتوابسل والمصقمات وحساء العدس كانت ضمن قائمتنا . وأما منامتنا فقد تقدم شيء عنها ، وأريد هنا فاقول ان الفرش في لبنان ضيقة بعرض النائم الا قليلا ، واللحف خفيفة وعريضة ليلتحفها المرء من جميع جهاته فتدفع عنه منافذ الهواء البارد الى جسمه . لذلك كانت اللحف فوق حاجتنا ، أما الفرش فمددناها بالعرض لنسند عليها نصفنا الاعلى ، وأما الباقي من جسمنا فقد بقي مدلى على الارض الجرداء في الليل ، وكانت الوسائد مسألة المسائل لانها صغيرة وبائسة أشبه بها يسمى بالحدديات . بيد أننا لم نعدم الحيلة ، ومن وطد النفس مثلنا على افتراض الرمل ونحاة الاجر في سبيل الوطن المقدس لا يستكف بوجه من الوجوه أن يستوسد الصرر ويستخدم الاحذية كما فعلنا ، ولعمري انها لتذكريات مؤلمة ولكنها مفرحة في آن واحد فاي غضاضة على الرجل الشريف ان يدوق انواع الاذى والاسى في سبيل الهدف السامي الذي وضعه نصب عينيه ؟ وهذا محمد بن عبد الله مدل جبروت الوثنية ومزعزع عروش رومة وفارس ورافع لواء التجدد على المشارق والمغرب ، ذاق في سبيل الإصلاح الذي ينشده من الاضطهاد والتعذيب وهجرة الاوطان ، ما ليس يخفى على أحد . ومن تلك المخازي التي اقدم عليها اهل الجاهلية دفعا عن جهلهم ومنعا لنفوذ النور الى بصيرتهم ، مما أثرتنا اليه من وضيع الكرش الطافح على اثرى اعضائه وعلى رأسه حيث المجد والعلاء والشم والإخلاص والنبات والصدق والمواظاة والإيثار ورؤية الحق الناصح .

التحليل للاتصال بالخارج وشراء الجرائد :

ان اعظم اسباب الوحشة في السجن انقطاع المرء عن العالم الخارجي ولا سيما من كان مثلنا تتعلق اسباب سجنه على قضايا عامة تتناول مجموع الامة ، واذا تيسر خرق ذلك الحاجز في دمشق فذلك بفضل اخواننا ومن عرفناهم ، وأما في بيت الدين فلم نرسخ

غرة ولم يكن في جيبنا نحن ورفقاءنا من الدراهم ما يكفينا اسبوعا واحدا . وحتى الآن لم يتسنى لنا مخاضة اهلنا لطلب منهم ما نحتاج اليه من الدراهم والحاجيات ، وقد رغبتنا ان نكتب لحضركم راجين منكم ان تتداركوا لنا ولرفقاءنا ١٥ ورقة سورية لنسند بها عوزنا واننا ننتظر جوابكم بما يمكنكم من السرعة وتفضلوا بالاختتام فائق احترامنا .

توفيق الحلبي

لم تأخذ جوابا على هذه الرسالة ، ولا ندرى ما فعل الله بها وليس بالمستبعد ابدأ ان تكون دسيمة من اساسها ، فتكون قد دفعتا كيد الكائدين وان قضينا بضعة ايام اخرى في ضيق وعار . عاد الفتشاش من حيث اتينا ونحن بقينا على الحال التي كنا عليها من الطعام والملبس . وربما لك للتأريء ان يطلع على فصل من فصول هذه الحياة في سجن بيت الدين فنقول :

كيف أمضينا الايام التالية :

ملنا اللبن والريتون والبيض والحلاوة فاشتاقت نفوسنا الى الطعام المطبوخ ، فاشترينا قدرا وبعثنا الى سليمان البستاني للمعهد فاشتري قولا وارزا ولحما ثم انبرى من بيننا احسن الطهاة فينسا ، فطبخوا لنا ارزا بالبول على الطريقة الدمشقية المعروفة . وبينما كنا نحمي السمون نسفت الطبخة على النار فسقاها من يجل صنائع الاواني النخار فانقلقت البرنية ، ولولا رحمة ربك واسراع السيد الحكيم الى صفيحة كاز فارغة التي كفتنا فيها الطعام لدهبتا ناعبانا ادراج الرياح . رفعنا الصفيحة على النار واتمنا الطبخ ، ولا اكر اننا اكنا حتى املانا فكتنا نزرد الطعام كالبدو ان بأيدينا او بملاعق الخشب . وحسبنا اثر الكاز من الارز من الفلافل والقبلات . هذا مثال من الطبخ في سجننا على منواله سارت مدة اقامتنا ، وان كنا تعلمنا بعد دروس عدة ان لا يصيب الماء البارد على الوعاء النخار

كرز ادعى ان سواد الشعب المصري من فلاحين وموظفين هم من انصار الحماية البريطانية ، كان جواب الاحزاب التعطيل ثلاثة ايام متواليات في جميع دوائر الحكومة المصرية . وقرأنا اعلانا كان كالحجر في فم المستعمرين ، وهو تكذيب من حقي العظيم حاكم دولة دمشق ، للذين اشاعوا عنه انه زاد الدرك والشرطة لحراسته عند نزوله لصلالة الجمعة خوفا من اغتيال الوطنيين له .

زلق لسان دولته فقال : ان تلك الزيادة اقتضاها الاضراب العام الشامل للبلدة منذ اسبوع .

هذا اول خبر التقطناه عن دمشق منذ غادرناها ، وهو خبير كما يرى القارئ ذو شأن عظيم ، يدل على أن المطالم (النمرودية) عجزت بكل وسائلها القاهرة ، عن اضعاف صوت الوطنية . ليست شعري ماذا يقول كاترو بعد ذلك ؟ وهل مصر على رايه أن يرجع الى العصر الروماني فيدعي ان شياطينا وشياطين اخواننا في السجن تمثلت لاهل الوطن ملائكة فسادتهم الى اغلاق حواجزهم والاضراب العام عن العمل ؟ . نعم ان الذي تمثل لهم لهي الروح التي تمثلت لكل من ذاق طعم الشرف ، وعرف معنى عزة النفس ، بل الشبح الذي اندرهم بالويل الذي حل بهم في عصر الانتداب الباهر .

وفي اليوم الثاني شكرنا لبدن معرفه وقدمنا له شيئا من الدراهم ، فكان جوابه لنا : ان المرء اما ان يعمل للشرف واما ان يعمل للمال . وهو لا يريد ابدا الا ان يعمل للوطن المقدس فزاد مقامه رفعة في نظرننا . (١)

وقف المرحوم الدكتور الشهيد عند هذا الحد من الكتابة دون أن يتم هذا الموضوع الشيق . وبذلك ينتهي القسم الاول من مذكراته .

الناشر

قدما بعد لتؤسس لحم التعارف . ولكن لم يمض الا قليل حتى قبض الله لنا من الرجال من دعوانه بدرا ، فأظهر استعدادا لخدمتنا والقيام بما تصبوا اليه نفوسنا ، فكان اول طلب طلبناه ان يوافينا باخبار الخارج ، ريثما يذهب بنفسه الى دير القمر ويشترى لنا الجريدة المواقفة .

كان سبيل الكلام بيننا اننا كنا ننتظر غفلة سائر الحراس وجمعة النائمين فنتهاشم من النافذة او نتبادل الرسائل ، فكل رسالة تأتينا منه كانت على قلوبنا احلى من رسالة فيها موعد اللقاء بين الاحبة . فكنا اذا سمعنا حفيفا تشد عزائنا وتنفتح عيوننا فناخذ نرق الارض ونتحفز كما يتحفز الاسد عند رؤية الفريسة ، حتى اذا وقفنا على الرسالة الملقاة تأهينا الى التقاطها ولو زحفا على البطون ، فذهبنا بها الى الزاوية المنحرفة عن الانظار حيث نقرأها على شعاع الصباح الضئيل همسا . وتفاهمنا كان بالاشارة والغمز . وقد تمر الساعات الطوال على بعضنا كالسيد منير وهو واقف في النافذة ، في الهزيع الثاني من الليل يترصد دورة البدر من وراء النفيوم الملبدة على دير القمر . واول جريدة تناولناها قرأنا فيها شبه بيان من الكومندان كاترو ، منقول على الأرجح عن جريدة المقطم . وقد حصل عليه الخواجة موزاحي مكاتب تلك الجريدة ، وفيها يدعي كاترو وتدعي البعثة ، اذا شئت ، اننا لا نمثل الراي العام لان اغلاق المدينة جرى خطأ بتشويق بعض الفرصين ، وكان في الغالب خوفا من السلب والنهب ، وان سواد الناس واعيان البلاد هم من طلاب الانتداب الفرنسي ، الى اخر ما هنالك من السفطات المضحكة التي تجعلها سخريه في اعين الناس . وذكر في نفس الجريدة وزعمت البعثة ان عملا بسيطا لا يؤبه له ، لو لا ان ثبت علينا ان الاعمال التي حدثت في المدينة أثناء سجننا هي من افرائنا وتحريضنا . منطق بديع وتنسيق افكار ساطع . مدينة عظيمة اغلقناها ومع ذلك يدعي المستعمرون اننا لا نمثل رايها ؟ وقرأنا فيها ان اللورد

القسم الثاني

مذكرات الدكتور عبد الرحمن الشهبندر
عن
الثورة السورية: غوامضها، وقائعها، نتائجها

قال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر :

تهنئة :

من الخطأ الفادح أن يتصور الإنسان أن الثورة تكون عادة بنت ساعتها وليدة قائدها ، تنفجر من فم بندقيته كما انفجر الماء من شق الحجر لا ضربة موسى بعصاه .

فعلى من يريدون تدوين تاريخ الثورات أن يرجعوا الى اسبابها .
وهذه كثيرا ما تكون بعيدة او قريبة .

الاسباب البعيدة :

بقيت سورية جزءا من المملكة العثمانية من الوجهة الاجتماعية حتى اواخر سنة ١٩١٠ م ، كما يبقى الطفل جزءا من الكائنات الى ان يدب فيه الوعي الفردي . فلم يخطر ببالها طيلة قرون متواليات انها وحدة منفصلة ذات قومية خاصة . وكان اجتماعي معين وذلك لان اجداد السلطان عبد الحميد الثاني ، كانوا مثله متمنقين بسيف الاسلام القاهر ، ومكسبين بكسوة الاقومية الانسانية الجذابة .

احتلت فرنسا سورية فلم تحفل بهذا الشعور الحي النامي ، بل عدت اعمال المعصابات في جبال الكليسة وعلى حدود لبنان « الكبير » والحرب في ميسلون والتظاهرات في دمشق ، بل تقرير اللجنة الاميركية الاستثنائية برئاسة المستر تشارلس كرايس والدكتور كنتج ضربا من ضرب الدسائس الاكليرية والدعاية التي اثارها الفيصليون وما فتئت متعلقة بزوايا التقارب التي رفعها اليها الجواسيس مهمة ما يقع تحت سمعها وبصرها حتى استفحل الامر وامتلأت القلوب فلم يعد في قوس الصبر منزع .

الجديدة في حماه وهي قيادة الجيش الوطني - المليس - فوجدت اعمال الغلظم والارهاق سائدة في تلك الارحاء .

واول مشهد رأيته ، هو أن جميع وجهاء المدينة وعلمائها اتفوا في غياهب السجن مع اشنع انواع الاهانات لتأخرهم عن تنفيذ اوامر الكابتن « ميك » « المستشار الاداري » - وهنا عدد القائد فوزي بك مشاهد اخرى تتعلق بتصرفات الجيش واعمال الموظفين ، وقد تناول فيها حادثة المفتح الذي اصاب كلب الكابتن « ميك » ومسألة تحريض عائلة الرحوم مصطفى بك العظيم على الانتقام من قاتليه وتقسيم البلاد الى حكومات واستخدام الاسافل في الوظائف ، وفصل ادارة العربان عن الحكومة المحلية واعمال جيش الجوقة السورية وتضخيم الضرائب على الكلفين واذكاء النعرات الطائفية الى غير ذلك من الامور التي يتعدل علينا نشرها بحفا فيرها بسبب الظروف الحاضرة فنكتفي بالإلاخ إليها .

ثم اخذ فوزي بك في الختام يشرح مضار المصرف السوري ومقايير الذهب التي اخرجها من البلاد مما هو معروف ، فلا حاجة الى اعادته . وماذكرت هذه الخلاصة في الاسباب الا لتكون شهادة من موظف كبير خدم الجيش الافرنسي جينا من الزمن وراى الامور عن كثب ولو اردنا ان نضيف اليها بقية اعمال الموظفين الاخرين كالقومندان « ارلابوس » من الضباط السابقين مثلا لضاق بنا المقام .

ثورتان أخريان ساقبتان :

ولا بد لمن اراد الاطلاع بالعوامل البعيدة التي ادت الى هذه الثورة ، من الاطلاع على خبر المظاهرات الخطيرة التي حدثت في سورية سنة ١٩٢٢ والتي قتل وسجن فيها وعذب ونفي بسببها مئات من الرجال ، فقد كانت هذه المظاهرات تمرنا عمليا على ثورة مدينة انشست القلوب واعادت اليها ثقفتها بنفسها بعدما استولى

الاعمال الاقتصادية :

ان كل خلاصة موجزة لمثل تاريخ هذه الثورة لا تلتفت الى العامل الاقتصادي تكون ضربا من الافاصيص والاورهام فتراجع سورية في عهدنا الجديد الى الوراء فيمتوجها ومحصولها وصادرها وواردها وقيمة تقدمها ودولاب صناعتها بلعدد سكانها لكثرة الهجرة وقلة الواليد ، كل ذلك كان له الشأن الاساسي في تزايد النفرة من الحكومة المسؤولة ودرس صفائح الديناميت تحت اركان هيكلها ولكن لا يغرب عن البال ان العامل الاقتصادي مهما علت مكانته في الشؤون الاجتماعية ليس الا نقطة الاستناد في التطورات الذهنية الكمالية ، فالمال وما اليه من اسباب الرفاه المادي ان هي الا الاقية الدنيا ، واما الصرح الشاهق فالكفايات النفسية التي تطلبها الاقوام الحية الشاعرة ، ان الضائقة الاقتصادية في اوسع معانيها نبهت في الشعب المشاعر الكمالية وفي مقدمتها الشغف بالحريه .

وكان حصر الوظائف الرفيعة في ابناء الترك وحرمان ابناء العرب منها على عهد الحكومة العثمانية نافذ الفعل بهذا المعنى مثل زيادة الوارد على المصادر اضعافا ستة في عصر الجمهورية الفرنسية . ان هذا جميعا ادى الى الاستياء ، والاستياء هو الحلقة الاولى في سلسلة التطورات العقلية .

فوزي بك القاقجي :

وقد رايت ان اتوسع في هذا البحث قليلا وافصل ما اجملت فسالت الاخ فوزي بك القاقجي ان يحفني بالاسباب التي حملته على الانضمام الى الثورة ، مع انه قد عرف بولائه للفرنسيين ونال في جيشهم رتبة عالية قلما ينالها غيره من الوطنيين فقال وقوله له قيمة منطقية خاصة ، لانه صادر عن بيئة خاصة :

« بارحت دمشق عقب الاحتلال الفرنسي لاتسلم وظيفتي

أهلها لاستقباله بالخيول والرجل كليهما فرض عليها الفروامات الباهظة وحشاشها في جيبه كما فعل في قرية « عرمان » مثلا .

ومن ذلك ان هرة للملازم « موريل » ضاعت في السويداء ففرم الاهلين بسببها عشر كيرات عثمانية . وأن مصباحا للبلدية كسر او سرقه احد الجواسيس فحل بوقاب الاهلين اذ ارغموا على تادية عشرة جنيهات ايضا .

وان « دي بوشل » العريف الجندي خاصم محمد عز الدين بك الحلبي مدير العدلية فسدد اليه مسدسه فاطلقه ، ولكنسه اغتلاه ولم يجاز على جنايته هذه المشهورة ولو بكلمة التعنيف من سيده .

وانه استاء مرة من فهد بك الاطرش خريج الاستانة فضربه بيديه ورجليه وبالسياط على مراهي ومسمع جميع الناس .

وكان اذا سمع وشاية من الجواسيس على احد من الاعيان او شيوخ العقول ارسله حالا الى السجن من غير محاكمة او استنطاق وشغله بتكسير الحمص لتعبيد الطرقات كما فعل سليمان بسك نصار مثلا وهو شيخ قرية « سالة » وعين اعيانها بالشيخ صالح طرية وهو علم في الفقه والصلاح في الجبل .

ولما تقم على بني الاطرش وحاول سحق نفوذهم وارغام انوفهم صار يلقي كل من تردد اليهم ولو بالسلام المجرى البسيط في غياهب السجن . وكثيرا ما كان يترك السجنين من غير طعام بل على الماء المالح فقط ثلاثة ايام متواليات . وبالح بعضهم فقال لي بقيت اسبوعا كاملا على هذه الحال .

ومن نوادره التي لو كتبت بالابر على آفاق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر ، أن الجواسيس ذكروا له في جملة ما ذكروا ان السدروز اذا تنحنحوا فانما يقصدون في تنحنحهم لعنة من يبرون به من

عليها وهم المعظمة العسكرية .

ان هذه الثورة الصغيرة كانت على التأكيد فاتحة عصر عملي جديد في تاريخ الوطنية الحديثة في سورية ، ويلحق بذلك تظاهرات سفكت فيها الدماء ايضا ، كان حدودها في دمشق في اوائل سنة ١٩٢٥ يوم زارها اللورد بلفور مؤسس الوطن الصهيوني القومي في فلسطين على حساب الامة العربية .

وكان لتلاميذ المدارس العالية في العاصمة الاموية دور خطير في تنفيذ خططها وترتيبها ولم يكن الاحتجاج فيها والحق يقال على اللورد بلفور ووعده فحسب ، بل كان على الاستعمار جميعا في كل زمان ومكان .

ومما هو جدير بالذكر ، أن المزارع العصبي في بعض الموظفين الافرنسيين ، وجهلهم الفادح بالادارة والشؤون الحطية كان اداة صالحة لنفخ النار وزيادة لهيبها .

الاسباب القريبة :

هذه بالاجمال هي الاسباب البعيدة ، واما الاسباب القريبة فقد حدث في جبل الدروز ان المسيطرين توسلوا بالخيول الاستعمارية الملوثة من القاء بذور الشقاق بين الطائفة الواحدة الى احلال حاكم عسكري افرنسي بعد وفاة سليم الاطرش محل الحاكم الوطني ، فكان اسم هذا الحاكم الجديد الذي طبقت شهرته الخافقين بفضل نوادره القروضية وسيرته الايكونورية « الكابيتين كاريه » .

بدأ هذا الرجل حياته في الجبل مستشارا ثم ارتقى فصار وكيل حاكم فاصيلا على عهد الجنرال « فيجان » المفوض الاستعماري الاكبريكي المشهور . وسار في اول الامر سيرة لين وعطف حتى تمكن من العنق فنهش .

ومن نوادره المفزة انه كان اذا ذهب الى قرية ولم يخرج

استدراك الثورة

ضاق « بنو معروف » ذرعاً بحاكمهم ، وسدت سبل النجاة من اعماله في وجوههم ، فاختدوا يفكرون ، والحاجة تفتح من اذهانهم حتى ادركوا ان لا مناص لهم من الثورة .

ولكن ما العمل والجبل صغير وفرانسة دولة عسكرية كبيرة وهل تدخل سائر المناطق السورية معهم في هذه الشرقة الخطيرة يا ترى ؟ ..

الوطنيون :

كان الوطنيون قد مهدوا السبيل الى الاعمال الكبيرة بالثورات المحلية التي احدثوها ، والاضطرابات العامة التي سببوها من اضراب عن العمل واغلاق الحوانيت والمخازن واحتجاجات داخلية وخارجية ومعلومات صحيحة رفعوها الى عصبة الامم مما نور الازدهان ورفع مستوى الادراك السياسي العام .

وكان الاستياء المستفيض ، والحق يقال ، هو المادة « الخام » التي استخدموها في معاملتهم ، فاستخرجوا منها خير المعلومات اليتيمة ذات الطراز الحديث ، بحيث تمكنوا بواسطتها من انشاء بعض الاحزاب السياسية العظمى في طول البلاد وعرضها واصداد

غير طائفتهم وشتم دينه . فويل لمن كان مصاباً بالنهب حبيبي في حلقه او زكام في حنجرتيه ، فان ذلك يعني بقاء في السجن الى ان تزول اعراض قرحته .

هذه نبذة مختصرة من نواتره في الظلم وحجر الحرية الشخصية اجمع الرواة عليها وبلغت حد التواتر .

فاذا اضفنا الى ذلك كله المرض البهيمي الذي بقي معه من سن الصغر والى الهنات الساقطة التي كان يرتكبها والتي لا يسمح الادب بالاشارة اليها اخر مما فعلنا ، ادركنا حالا علاقته القريبة بهذه الثورة المباركة .

وكثيراً ما كنا نقول في مناطق الثورة ، ان الاعتراف بالجميل يقتضي بوضع الكاينين « كاريه » في مجموعة صور المؤسسين لهضبة سورية لانه من غير شك كان من العوامل العظيمة التي لفتت الانظار الى شر المستعمرين واسرعت بالخطى للوصول الى الحرية .



الاراء على انه من الافواه المهمة التي نفخست في بوق الثورة .

دور الكابيتين «رينو» :

ارتأى « رينو » أن يقابل الزعماء الجنرال « ساراي » وطلبوا اليه الخلاص من « كارييه » ففعلوا وسافر منهم الى بيروت المرحوم الامير حمد الاطرش والمرحوم نسيب بك وعبد الفغار باشا الاطرش واسعد بك مرشد وغيرهم . ولكن الجنرال رفض هذه المقابلة كما هو معلوم ، فعادوا من حيث اتوا وهم اشد حنقا واكثر رغبة في الانتقام ، وكان هذا العمل من اشد العوامل القريبة التي أدت الى الانفجار .

بواد الثورة في السويداء :

وفي اليوم الاول من عيد الاضحى ٢١ تموز سنة ١٩٢٥ اجتمع فتيان بني معروف في السويداء باشارة من الاعيان ، وقامسوا بتظاهرات نادوا بها : فليستقط « كارييه » الظالم وليجيا « رينو » العادل ثم اتخذوا يبحثون عن اعضاء المجلس النيابي ليحملوهم على عزل ذاك واحلال هذا محله ، فصادفوا فارس بك الاطرش وهو احد الاعضاء ومن لعبوا اشنع الادوار هو واولاده في تأييد المستعمرين على ابناء وطنهم فهجموا عليه وأوسموه ضربا . ولكن قائد الدررك حسن بك صخر انقذه من بين ايديهم وصر فهم عنه .

الاراء لقبول التبعات العملية الجديدة ، ثم صفوا حطب « اليلة » وكوموه بصورة منتظمة ولم يعدوا من يولع فيه النار من ابناء البلاد الابرار . فلما اذنت الساعة والتقى الدروز الهائمون في بحار الافكار باخوانهم في دمشق ، شعروا انهم بلغوا ساحل الامان اذ نزلوا بينهم على الرحب والسعة .

الاجتماع الاول :

عقدوا اول اجتماع تمهيدي في بيت القاسم الهيماني صاحب جريدة الفيحاء في اوائل شهر مايو « ايار » سنة ١٩٢٥ م حضره المرحوم الامير حمد الاطرش ، ودار فيه الحديث حول اشغال نار الثورة ثم اعقبه اجتماعات اخرى متعددة في منزلي في « عرنوس » على طريق الصالحيه حضرها عدد كبير من زعماء الدروز كالمرحوم نسيب بك الاطرش وعبد الفغار بك الاطرش والبي حمدي سيف العيسمي ومتعب بك الاطرش وغيرهم من كبار الرجال فاخذت فيها العهود والوائق بصورة سرية واقسم الحاضرون باغلاظ الايمان على تحقيق الوحدة والاستقلال وقد جرى ذلك كله من غير ان يكون للاحزاب الرسمية وغيرها اقل اتصال مباشر . ولم يحن الوقت بعد لتنفيذ مزامع الجنرال « سراي » وغيره في اتهامهم الابرياء والقائهم في غياهب السجن لان تبعته الاشتراك وتوحيد المساعي تعود على من حضر هذه الاجتماعات فقط لا على غيرهم . وما تم لم يتم باسم الاحزاب بل باسم الافراد ومن تشبههم فقد غادر زعماء الدروز دمشق الى الجبل وايمانهم اشد رسوخا بوجوب الثورة .

وحدث في تلك الاثناء ان الكابيتين « كارييه » سافر بالاجازة الى فرنسا فحل محله الكابيتين « رينو » بالوكالة ، ولا آمن في الدروز تلك النفرة الخالصة التي فزتهم من حول « كارييه » ، طمع ان يحول الوكالة الى اصالة ، فاخذ يدس دسا اوليا حاذقا بحيث اجمعت

الضاعات :

اراد سلطان باشا الاطرش في صباح اليوم الثاني ان يتفب عن السويداء ويذهب الى قرية سميج لحضور مأتم « حمود نصر » فاوعز اليه الكاكتين « رينو » بالبقاء لان خطته في تهيج الناس على « كارييه » لم تنته بعد ولم تتكلل بأكليل الظفر كما يشتهي وهذا ما يفسر لنا الاجتماع الذي عقد في المساء في بيت الترجمان يوسف الشدياق وقد حضره كل من سلطان باشا والرحوم البربور البطل المشهور وحسني بك صخر قائد الدرك ، وكانت الغاية من هذا الاجتماع المخابرة على التظاهرات لعزل « كارييه » ارداد الاضطراب واكفهر وجه السماء الصافية فارسلت المفوضية في اليوم الخامس من العيد القائد « تومي مارتن » الاستعماري الظالم المشهور لتناول مقاليد الامر من « رينو » بتهمة انه هو المؤسس لهذه الاضطرابات فاخذ في التحقيق الدقيق ومن ثم دعا اليه عبد الغفار باشا ونسيب بك والامير حمد الاطرش وقال لهم ان الجنرال « ساراي » يرغب في مقابلتهم .

استدراج الزعماء واعتقالهم :

غادروا الجبل لتحقيق هذه المطالب فلما بلغوا دمشق قبض عليهم المسيو « شوفر » مندوب المفوض السامي وساقهم الى المنفى في تدمر ، فجازت عليهم هذه الجيلة التي كانت من اكبر الاسباب في منع الناس من الاستسلام للخداع الاستعماري فيما بعد .

وكاد يكون من باب الاساطير ان مثلاً خطيرا لاعظم دولسة عسكرية يتذرع بجيلة الصعاليك الصغار فيحول دعوة رسمية للالتقاء في السجن والنفي الى الاماكن الخالية .

وبعد ايام سيق الى « حسجه » كل من برجيس بك الحمود وعلي بك الاطرش وحسني بك صخر وعلي بك عبيد ، واخذوا معهم

اعمال الثورة

انصرفوا وهم يهزجون اهاريجهم الحماسية المروفة ففاجاهم الملازم « مورل » صنو الكاكتين « كارييه » وزميله في الاعمال القاسية البربرية ، فنزل على ظهورهم بالسياط ، وعلى اذانهم باللعنات فما كان من حسين مرشد الباسل الا ان ضربه على انفه بالعصى ومن يوسف بك ابن عبد الغفار باشا الاطرش الا ان اطلق عليه مياداريا .

انهزم « موريل » والاحجان من ايدي المهاجمين (المتظاهرين) تنهال على كتفيه حتى بلغ دار الحكومة ، فطلب مغارزة الجنود بالهاتف في القلعة - من غير استشارة رئيسه الكاكتين « رينو » ، اما هذا فقد ارتأى ان يقف عند هذا الحد ويحل المعضلة حلا سليما ، فدعى اليه الوجوه والاعيان وحملهم على الاعتراف بخطاهم ففعلوا ، ثم طلب منهم غرامة قدرها مائتا جنيه عثمانى فادوها لكن ذلك لم يكن كافيا في نظر المستعمرين . بل اصرروا فوق ذلك جهلا منهم بطابع البلاد على هدم دار حسين مرشد فهاج الشعب لهذا الطلب القاسي الذي لا يعمل المستعمرون شيئا مثله وقام بتظاهرة مسلحة اطلق فيها الرصاص من العيارات النارية .

وفي غضون ذلك نزل الجند الذي طلبه « موريل » واستعد للقتال وراء المتاريس ولكن سلطان باشا الاطرش وعبد الغفار باشا الاطرش وحسني بك صخر كانوا قد تمكنوا من اخماد الهياج وصراف الناس الى منازلهم .

وعلى رأسهم أبو حسن فضل الله بك الاطرش البطل الحر المشهور
وفيها تقرر الزحف على صرند لحرق البشة الفرنسية فيها .

وقد انفذ هذا القرار بمساعدة اهل صرند انفسهم وبهمة
رجالها جاد الله بك الاطرش .

هنا بلغ سلطان باشا تجمع العسكر في القرية فقرر مع الزعماء
الزحف عليهم والايقاع بهم فطاروا الى الحرب كالمواقع المحرقة .
اراد الجنود الذين قدموا القرية لارهاب سلطان باشا واخوانه
الدخول اليها فحذرهم علي بك شقيقه من مغبة الامر ، فحلوا عنها
الى الكفر حيث تولوا في ٢٢ تموز سنة ١٩٢٥ على ماء واخذوا في غسل
ثيابهم واصلاح شؤوهم ، لكن شيخ الكفر اسعد بك مرشد ، عرف
ما كان جاريا وراء الستار فانذر الكابيتين « نورمان » قائد الحملة
ثلاث مرات متواليات بوجوب الحذر ومفادرة هذا النزول فليسلم
يخجل بكلامه سوى ان ترفع بجنوده الى موقع وعر مستدير يشرف
على الطرقات واستعمل من انواع التهديد والوعيد للرجال الذين
انذروه مادل على غروره حيث قال : انه بمجرد الرشاش الذي
يستعمله قادر على قتل ثلاثة الاف درزي .

المرحلة الاولى :

الموقع الذي حدثت فيه الملحمة من اوعر واحسن ما رأت
عيني ، فقطع الصخر مصطفة فيه بشكل مستدير اصطفافا يكاد
يكون مصطنعا ، وكل واحدة منها متراس قائم بنفسه ويؤلف
مجموعها شكل بحيرة جافة لا مثيل لاحد بمقائنها او مهاجتها
اللهم الا من اوتي ايمان الانبياء وعزم الجبابرة .

انقسم الدروز الاشواس بقيادة سلطان باشا الى قسمين
وقفوا من جهتين متقابلتين وكان منظرهم وهم يقتحمون نيران
البنادق من ارباب المناظر .

في طريقهم الى دمشق يوسف بك الاطرش .

وكان سلطان باشا الاطرش في تلك المفضون قد رحل الى
قرية « رساس » فجاء الامير حسن الاطرش وقص عليه ما جرى
من حديث النفي الى تدمر فاشماتت نفسه كثيرا ورأى الفرصنة
سانحة لاشغال النار فاخذ يتجول في القرى والدساكر ويحضر
الناس على استعمال السلاح .

الدروز ينتخون ويتقدمون السلاح :

ابتداء (سلطان باشا الاطرش) من ام الرمان فامتان فملح ثم
عرمان فصرند . وليس في تاريخ الثورة جميعا صفحة تذكراءتها
اكثر من خبر السياسة التي سلكها في التنقل من قرية الى قرية .
فلما ذهب من امتان الى ملح مثلا ، سار معه نحو اربعين فارسا
لكنه ارسل رسلا قبله فاوهموا اهل ملح ان جميع الرجال القادرين
على حمل السلاح في القرن الجنوبي هبوا على قدم وساق لالتقاء
شرف الطائفة الدرزية .

وكان اذا دخل قرية رصف الناس حوله ورتبهم ترتيبا يلفت
الانظار ثم ياخذون جميعا في اطلاق العيارات النارية في الفضساء
مع اهازيجهم الحماسية التي قلما يجاريهم احد في استخدامها
وحسن استعمالها .

لا جرم ان القرى كانت تلاقيهم بتلك العادة الجميلة صادرة
(الانتخاء) المشهورة ومن ثم تنضم اليهم وتسير معهم .
ويجدر بنا ان لا ننفل هنا اسم الشيخ يوسف العيسمي
من قرية امتان فقد مثل في هذا الترتيب دورا خطيرا .

بداية الزحف :

لا بلغ المجاهدون قرية عرمان استقبالهم اهاليها خير استقبال

في معاركهم التي تمت فيما بعد .

٣ - لانها اقلت عبء القيادة العامة في الجبل مدة الثورة على عاتق الزعيم الذي انتصر فيها هذا الانتصار الباهر ومعنى ذلك انها وجدت من الفوضى التي يتعمقها السوريون نواة صالحة للنظام وتوحيد المساعي لبلوغ غايات حرية معينة . ولو لا ذلك لكان عدد الذين يتسخرون غارب القيادة الحربية بحق او بغير حق لا يحصى ، لان عادتنا ان من آتس في نفسه قمحة من الحياة يتوهمها جبلا من القوة .

ويجدر بنا ان نذكر ان المراسلات الرسمية التي اطلعنا عليها مسيو « كيريلي » في جريدة « ايكو دي باري » دلت على ان « تومي مارتان » كان واسع الاطلاع شديد التشاؤم ، عارفا بالدماء التي ستسيل في الجبل .

وقد ذكر هذا في احد تقاريره تاريخ اتفاق عقد بيننا وبين زعماء الدروز فجعله في اليوم الثامن من تموز سنة ١٩٢٥ . ولعله يشير بذلك الى الاجتماعات التي عقدناها في دارنا لان الجلسة التي قررنا فيها اضرار نار الثورة في الشمال مع اخواننا في الجنوب عقدناها في بيت رجل من كبار رجال الوطن في مساء اليوم العشرين من آب سنة ١٩٢٥ ، ودامت الى صباح اليوم الحادي والعشرين وقد حضرها من كبار الرجال « يحيى حياتي بك » وحسن بك الحكيم وسعيد بك جيدر وجميل مردم بك ونسيب بك البكري وفوزي بك البكري والرحوم سعد الدين بك المؤيد العظم والرحوم توفيق بك الحلبي وغيرهم وتقرر ان يكون خروجنا من الشام في يوم الاحد في ٢٢ منه .

حمل السويداء :

نزل المجاهدون في السويداء لحصار القلعة بعدما كثر عددهم

ومن اراد ان يقدر حرارة الحماسة التي كانت تغلي في صدورهم فحسبه ان يتذكر انهم قطعوا تلك المسافة الشاسعة من صرفد الى الكفر عدوا ولم يبقوا الا حيث اوردوا خيولهم ماء في منتصف الطريق واوردوا سيوفهم في منتهائها .

لم يمض عشرون دقيقة على المحمة بالسلاح الابيض حتى قضوا على الحملة قضاء مبرما ، فلم يفلت منها الا بضعة افراد استطاعوا نفل خبر الكارثة الى « تومي مارتان » في السويداء .

ولم يزد عدد المجاهدين على المئتين وتجاوز عدد الجنود على المئتين والمستين وكانت خسائرنا اربعين شهيدا منهم مصطفى بك الاطرش شقيق سلطان باشا واسماعيل بك الاطرش نجل جادالله بك .

ان الداخل اليوم الى هذه البحيرة (اوائل ايلول سنة ١٩٢٥) وقد جفت دماؤها يرى فيها ارجل الجنود مستتره وراء الصخور ومن هنا وهناك جماجم تبصيص وهي مكشورة عن انيابها كانوا منكمشة من هول الضربة التي نزلت بها .

ويؤكد الثقة ان الجمجمة التي على الباب هي جمجمة الاكابين « نورمان » فكانها تجر سها من سباع البر وطيور الغلا .

نتائج المعركة الاولى :

ولهذه المحمة شأن خطير في تاريخ النهضة السورية :

١ - انها جعلت الثورة امرا مبرما .

٢ - انها دلت على ان الحق الصريح ولو تقصته العدة والعدد قادر في كثير من الاحيان على مقاومة القوي ولو ايدته الالات الضخمة والجحافل العظيمة .

وهذا من اكبر البواصت على النشاط الذي ابداه المجاهدون

الجاهدين من القرى .

ولم ينبع من الحملة الا من لاذ بالفرار ليعلم القائد ان سينا بني معروف لم يبق ولم يدر .

انظر هذا الهجوم واستخدام المروكة :

فتبع اهل القرى عيونهم في الصباح فراوا الاحواش والاصطبلات مملوءة بالاحمال المعلمة والدواب المسومة . والاهاريج تشق عنان السماء بذكر النصر الباهر والكسب الثمين ، فهبوا الى خيولهم واسرعوا الى اكمال العمل الذي لم يتم في المساء . وقد تقدم الجميع مائة وسبع عشر فارسا من اشاوس السويدياء المشهورين ووراءهم على البعد من اهل المجدل ونجران وسليم وغيرها من القرى القريبة زهاء اربعماية مجاهد فلما لاحت عين الزرعة من القرى القريبة لهم كان في السماء طيارة تحلق فوق الجيش فنزلت لتختر القائد بوجود النقفور للاكسار الربيع الذي حدث في اليوم الماضي ، ويقال ان الجنرال « ميشو » كان في هذه الطيارة .

وصف المروكة الموهلة :

وبينما كان الجند يستعد لتنفيذ الامر في النقفور رأى على بعد ابناء معروف ، فأسرع لتكوين التاريس والاضطجاع في الخنادق الطبيعية ثم اخذ البرق يرمض من افواه المدافع والبنادق والرعد يتصف فيصم الاذان . ولكن اشاوس بني معروف تقدموا . خرقت الرصاص الصدور وحصدت قذائف المدافع الارض ، ونثرت قطع الصخر في السماء لكن اشاوس السويدياء تقدموا .

واخذت الصفحات تكرر وتفر كانها أبطال الجاهلية وهي تصب من افواها الحمم ، لكن اشاوس السويدياء تقدموا .

ثم جاءت الطائرات تحلق فوق هام الرجال وتلقي من تحت

وتضخم بانضمام البيوتات الى جانبهم ما عدا بعض افراد لوثوا شهرة آباءهم واجدادهم ببقائهم على موالاة المسيطرين .

مروكة الزرعة وحملة الجنرال ميشو :

اضطرب الجنرال « ساراي » لتعيق الفريان ايما اضطراب ، واخذت الاوهام تستولي عليه فلم ير امام عينيه بابا لاعادة السكينة لا بالقوة شأن كل عصبي يعقد موارثته في الكوارث المفاجئة فجهر حملة كبيرة لتأديب الثوار يتجاوز عدد افرادها خمسة الاف وعلى رأسها الجنرال ميشو . وهي مجهزة بأحسن العتاد واحمدت الآلات ، وتحوم فوقها الطائرات وعوزاينسل يتدلى من تحت اجنحتها . شرقت هذه الحملة من محطة (ازرع) في صباح اليوم الاول من آب سنة ١٩٢٥ ، فعلق معها الدروز في حرب ، وكان عددهم يقارب الثلاثة الاف فراوا ان لا مثيل لهم بمصارعتها للوهم الذي استولى عليهم مما راوا بأعينهم من نارها وسمعوا بأذانهم من افواه الجوالسيس عن عددها وعتادها ، فانهزموا شرمزيمة بحيث ان علم قرية (امتان) وهي في الطرف الجنوبي من الجبل بات مع من يحملة في ارجائها . واما الحملة فقد نزلت على ماء يدعى ماء الزرعة بالقرب من السجن والمجدل .

الجاهدون يستعيدون المبادرة :

حدث في المساء ان ثلة من الجاهدين من اهل القرن الغربي من نجران وعاهرة وغير ذلك من القرى ومعهم عدد كبير من اهالي القرن الشرقي بينهم من الابطال امثال : جادالله بك سلام ، ومحمد بك شرف ، والجميع لا يبلغ عددهم المائتين انتقوا بمؤخرة الجيش حيث الدخان والطنابر على ظهور البغال تحرسها « النرفسة السورية » وكان ذلك في القرن الغربي ما بين قريتي « السدور وبصرى الحرير » فانقضوا عليها اقتضاى الصاعقة حتى اذا خيم المساء كان العتاد جميعا من الطنابر والبغال والخيال في قبضة

نقد كان المرحوم حمد بك ، على صفر سنة آية في اللدكاء والعقل والشجاعة النادرة وكان اليد اليمنى لسلطان باشا في المسلم والحرب واجمع الرواة على ان فقدته كان مصيبة في هذه الحرب ولو بقي حيا الى يومنا هذا ، لكان له شأن في هذه الثورة ما بعده شأن .

وحدث في تلك الساعة ، ان جاسوسا اتى احد الرعاء في دمشق من قبل الكابيتين « بسكال » فآخذ من جيبه ساعة وقال وهو يشير اليها :

« حينما يصل العقرب الى هذا الرقم — يعني الساعة الاولى بعد الظهر — يكون الجيش قد بلغ السويدياء وقضى على المتمردين من الدروز » .

ولم يدري في خلده ، ان الجيش في تلك الساعة يكون قد خرج من عالم السكون الى عالم الزوال .

بعد المعركة :

باد الجيش ، ولم يسلم منه الا القليل من قول تبلغ زهاء الف ومائتين لم يصلوا الى المسكة الحديدية في قرية ازرع الا بشق الأنفس . وقد وصفهم احد المسافرين في المحطة فقال : « لا ادل على الاختلال الذي طرأ على عقول هؤلاء في هذه اللحمة من رؤيتهم وهم يلقون بأنفسهم على القطار الداهب الى دمشق ، فقد كانوا يتمسكون بالركبات تمسك الغريق بنوائىء الصخور ، وكثيرا ما كان التسبح منهم يترأى عن بعد قادما الى المحطة ثم يختفي اما لخور عزيمته او لضلاله عن الطريق .

وكانت الضمائد على جراحهم والفاائف على رؤوسهم توهم المرء انهم اهل مستشفى فروا منة لحريق اصابه » .

اجتاحتها اطنان المرفعات فتتحقق هذه في القلائع حفر ما اشبهها بالآبار الناضبة يفوس فيها النارس الى فوق الراس . لكن اشاوس السويدياء تقدموا . وتقدموا لانهم مؤمنون . والمؤمن اذا اهترت نفسه بتيار العقيدة اقتحم المهالك وشق طريقه ولو في ظلم الفناء .

دب الفرع الاكبر في قلوب الجنود ، فاخذوا يتلفتون كالصرعى ويتنقلون كالمخاططين في عقولهم على غير هدى ويطلقون نير انهم بصورة طائشة ومن غير تسديد لان حذر الموت اعتراهم وحال دون ارتكاز انتباههم على قمحات البنادق . فانقض عليهم ابنساء السويدياء ومن ورائهم سائر الدروز الذين تبعوهم ، فجرت ملحمة بالسلاح الابيض لم يجر مثلها في البلاد منذ ذكر الواقدي خبر الفتوحات المربية .

ابطال المعركة وشهادتها :

ومن برز في هذه اللحمة وفاق الاقران المرحوم سليمان العقباني من قرية السجن ، فقد كان ينزود عن الدروز ويهز صارمه وينادي : اشهدوا ، اشهدوا ، اقرأوا ، اقرأوا .

ثم يكر على المستعمرين فيضرب الواحد منهم ضربة كثيرا ما يترت عنته او شقيقته نصفين .

وقد قتل في هذه الطريقة نحو ثمانية عشر جنديا ، الى ان اصابته رصاصة ، فخر صريعا يتخبط بدمه .

ومن قتل في هذه اللحمة من الرعاء الكبار المرحوم « حمد بك البربور » من قرية (أم الرمان) وهي قرية في القرن القبلى لها الشأن الاكبر في الاعمال الوطنية الخالصة . ولشيخها سليمان بك الاطرش وزعمائها قاسم النبواني والشيخ امين زين الدين وغيرهم من رجال السمعة الطيبة في الكرم والشجاعة .

دراسة الوضع بيننا وبين الدروز :

وقد تناولنا بعد حين رسائل الدعوة لوضع الخطط المشتركة من سلطان باشا الاطرش وجاد الله بك الاطرش ، ومحمد عز الدين بك الحلبي ، فدرسناها درساً وافياً وقررنا بشأنها القرارات الضرورية .

وكان مندوب الجبل الذي حمل اليها رسائل هؤلاء الزعماء الضابط محمد بك كيوان الذي نزل ضيفاً في بيت نسيب بك البكري .

ولكن الذي حدث في تلك الغضون ان بعض الاصدقاء ارسل الى الجبل ثلاثة مندوبين للذاكرة الدروز ، هم السادة :

توفيق الحلبي ، واسعد البكري ، وزكي الدروبي فبلغوا الجبل في الساعة التي كان الكابتن « رينو » مندوب الجنرال سساراي يفاضوهم باسم الدولة المنتدبة لوضع اسس السلام .

فحالاً دخلوا المجلس ، تكلموا باسم الاحزاب وفي مقدمتها (حزب الشعب) وقاوموا فكرة الصلح مقاومة عنيفة حتى قضا عليها بعدما اوشكت ان تتحقق .

ان عملهم هذا قد حال دون عقد الصلح حتماً ، فهو بذلك كان ثورياً من الطراز الاول ، بيد انه اضر ببعض الزعماء وباعضاء (حزب الشعب) ضرراً بالغاً فوضعهم تحت المراقبة الدقيقة وكاد يشل حركتهم .

والانكى من ذلك انهم اتفقوا مع سلطان باشا على ان يزحف الدروز على جهات الاكسوة في صباح اليوم الثالث والعشرين من اغسطس (اب) بحيث تخرج الى ملاقاتهم مع عدد من المجاهدين الشوام لا يقل عن المئتين فنهجم مشتركين على عاصمة الامويين الخالدة .

ساحة المعركة :

وقد زرت ساحة هذه المعركة مراراً وحاولت ان احصي عدد الجثث الملقاة فيها بالضغط ، فلم افلح لسمعتها ، وحسبي ان اقول انني مشيت من عين الزرعة ، الى الطريق المبيدة مغرباً نحو ساعتين بين الجثث والعتاد الملقى على الارض فلم انتبه منها ، ورايت خمس سيارات مصفحة محروقة وقد امالها الدروز على جوانبها حين الهجوم باكتافهم وقتلوا سواقها ومساعدتهم بالمسدسات من كواها المرتفعة ، وان رؤية هؤلاء السواقين متعاقبين ملتحمين تدل على هول ملاقوه من المهاجمين .

ساراي يخفي نتائج المعركة عن السوريين :

عمل الجنرال ساراي جهد المستطاع لاختفاء خبر هذه الكارثة عن المناطق السورية وفرق العيون والارصاد على دور المشتبه فيهم ، وكان نصيب من ذلك ثلاثة يعملون باللتاوب والاشتراك مما عرقل المساعي كثيراً وحال دون عقد الاجتماعات المهمة عندي .

بيد ان كل سمي لرحلة الكابوس الفرنسي عن صدور البلاد لا تستطيع القوى البشرية ستره عن الراصد لان عيونهم تشبه عين الفلاح في السنين المحلة الناشئة . فهي ابداً محدقة بالافق ترقب انفجار وجه السماء .

ليت الدروز تابعوا زحفهم الى دمشق :

اخطأ الدروز فلم يواصلوا الزحف على الشام بعدما افنوا حملة ميشو هذه وخلعوا قلب الجنرال ساراي من موضعه وبذلك اضاعوا فرصة ثمينة ، ولم تكن نحن في الشام على استعداد لجني ثمار هذا الانتصار الناجحي الباهر .

وابلا من القنابل .

صرفنا المساعي في الاسبوع الاول من شهر سبتمبر لتنفيد خطة الهجوم على الشام وسلمنا القيادة في هذا العمل الى يحيى جياتي بك فكان رايه حشد خمسمائة فارس تنقسم الى خمسة اقسام ، فتدخل الماصمة الاموية من ثلاثة مداخل مختلفة . لكن لم يجتمع لدى سلطان باشا العدد الكافي ايضا للقيام بهذه الخطوة الجوهرية . وقد رأينا من الدماشقة الذين قدموا الجبل للاتشراك معنا في الخطط والتعاون غير من ذكرنا ، المرحوم حسن الخراط الذي لعب اعظم الادوار في الغوطة والمرحوم سرحان ابو تركي الدبري الشجاع الباسل والشيخ محمد حجاز ثم حضرتي حسن بك الحكيم وسعيد بك حيدر من كبار مؤسسي حزب الشعب . وقد وصلا الى الجبل من زحلة بطريق وادي العجم وبعد حين وصل عدد من الضباط والمتطوعين الاشواش منهم المرحوم ابراهيم صدقي وجميل البيك وبعد القادر القواص وبشير الهندي وغيرهم .

وبينما كنا نعهد السيل لتأليف حملة مشتركة تهاجم الشام ، كان الجنرال غاملان يحشد الجند طول السكة الحديدية في حوران ، فرائت القيادة العامة ان توجه نظرها الى مهاجمة هذا الجند ، فتركنا قرية « أم ضبيب » في الشمال وذهبنا الى جهة الجنوب الى قرية « عرى » حيث اجتمعت القرى للتداول في هذا الامر .

معرفة المسيفرة :

اسفرت المداولات الطويلة المترددة المملة عن الاتفاق على مهاجمة الجند في اهم نقط تجمعه . وكان المجاهد الذي وضع الخطة واصر عليها محمد بك عز الدين الحلبي الثائر الشجاع الذي مثل دورا مهما في هذه الحرب القروس .

وخاصة رايه ان يفاجأ الجيش الفرنسي بقرية المسيفرة

لقد تم هذا الاتفاق في نحو اليوم السابع من شهر افسطس وبلغ الوطنيين خبره في اليوم العشرين ، فلم يعد امامهم لتنفيده الا يومان انتان : الحادي والعشرون والثاني والعشرون اذن فتنفيذ مثل هذه الخطة الخطيرة على هذا الوجه من السرعة هو من باب المستحيلات ، ومع ذلك فقد صرفت الجهود العظيمة واتخذت القرارات العملية الخطيرة ، وبعد ثلاثة ايام كنت في طريقي الى الجبل بعدما حاولت الوصول اليه من قرية (حوش متين) بحسب الاتفاق الذي تم بيننا في دمشق .

وقد صرفت تلك الليلة مع يحيى جياتي بك ، وزيه بسك المؤيد عند جميل بك مردم بك ، فلم اجد شيئا من الاستعداد مما اضطرني الى العودة في صباح اليوم التالي قبل الشروق من غير ان يشعر بي احد .

الاستعداد لموقعة دمشق :

اجتمعت بسلطان باشا الاطرش في قرية (كفر اللحى) في اواخر افسطس سنة ١٩٢٥ ومعي نزيه بك المؤيد والمرحوم سعد الدين بك المؤيد وحسن بك تحسين وقد استشهد في سيل هذه الثورة ، وكان نسيب بك البكري ويحيى بك جياتي قد سبقنا الى قرية عرى ، وفي (كفر اللحى) هذه جاء دروؤ الاقليم فظهروا تحفزهم للحرب وارتباطهم بالثورة وكانت الحماسة بالغة اقصى اعماق القلوب وكانوا وهم ينتخون او يعرضون امامنا على الطريقة الدرزية الحورانية شمعة تندلع منها السنة اللميب .

وكان اول اعمالنا عند بلوغنا الجبل اننا حشدنا المجاهدين لمهاجمة دمشق لان الحملة الدرزية التي وعد سلطان باشا بسوقها الى الكسوة للاجتماع بالمجاهدين الشوام لم يبلغ عددها النصاب الكافي . ولما وصلت الى جبل « المانع » في ٢٣ افسطس سنة ١٩٢٦ تلاقت مع الفرنسيين فاضطرت الى الرجوع بعدما امطرها الطلقات

جميعها ، كما لو قدر لابناء معروف في « المسيفرة » ان يحولوا وجوههم عن الفنائم الى العدو المتحصن على بعد امتار منهم لنفذوا الى حوران ودمشق وسائر المناطق الداخلية .

انسحاب المجاهدين من القرية :

انت الطيارات فوجدت جموع المجاهدين لاهبة بالخييل والبغال والسلاح واكوام الذخيرة فامطرتهم وابلا من المفرقعات شتت شملهم واكره المحيطين بالقرية منهم على الانسحاب . واما الذين دخلوها فقد تحصنوا في بيوتهم واروتهم الى ان جن الليل ، فنخرجوا تحت جنح الظلام بفنائهم .

وقد ابلى « حمزة بك الدرويش » في هذه المعركة داخل القرية بلاء حسنا اكسبه شهرة فائقة .

وذكر لي نزيه بك المؤيد انه رأى محمد بك عز الدين الحلبي يقتحم النيران التي تتساقط عليه كاطر من كل حذب وصوب ومع سبعة عشر فارسا فقط لانتقاذ الدروز المتقطعين في القرية .

ومما يجدر ذكره ان عتاد المجاهدين نفذ منهم بعد ابتداء المعركة بمدة لا تتجاوز الساعتين ، ولكنهم استماضوا عنه بالعتاد الذي ربوه في المارك حتى تمكنوا من الاستمرار على القتال سبحانه يومهم .

نتائج المعركة :

وكان من نتائج هذه المعركة العظيمة ، ان فقد الفرنسيون ما يربو على تسعمائة من الجنود علاوة على الدواب والعتاد مما لا يدخل تحت حصر .

واما خسائر الدروز فكانت دون المائتين حتما . واما الذي بهم في هذا الشأن ان العدو بفضل دهائه وتنظيم دعايته

مفاجأة تامة في الصباح تفضي عليه وتكسب الدروز الذخائر العظيمة التي يحملها ، فاجتمع من بني معروف عدد يناهز الخمسمائة وربما بالغ عدد الفرنسيين الالفين او اكثر .

وقد حضر هذه المعركة من ابناء الشمال نزيه بك المؤيد العظيم وسرحان ابو زكي الديري .

وخلاصة ما جرى ، ان الثوار ارادوا الزحف على المسيفرة خلسة قبل طلوع الفجر السابع عشر من شهر ايلول ، فانفقوا على ان لا ياتي احدهم بحركة من شأنها تنبيه العدو ، الا ان عيارا ناريا اطلقه احد المنتبهِ فيهم « ابراهيم الاطرش » ايقظ الحرس الفرنسي قبل وصول المجاهدين بنحو خمس دقائق ، فاخذوا في اطلاق الاسهم النارية في الفضاء لانارة الظلام . ومن ثم ابتداء المعركة بصورة شديدة جدا بحيث اضطر الجنود الى الانسحاب والالتجاء الى الاستحكامات التي اقاموها داخل القرية .

واخيرا احاطوا بالقرية من جميع اطرافها بواسطة الامدادات التي اخذت ترد عليهم تباعا . فلما اشرفت الشمس بنورها كان قسم كبير من الثوار في القرية نفسها ، واما الجنود فكانوا في دائرة عميقة ، حوالها الاستحكامات ومسن وراء الاستحكامات السيارات المصفحة تدور لتحميمهم من المهاجمة . وكانت القلائف من الناجحين تصل الى برء الماء فتمنع الفرنسيين والدروز مما من الوصول اليه .

هلعت قلوب الخصوم لهذا الاقدام الباهر ، لو لا تلك الخلعة القبيحة التي كبر ما اضاعت على الامة العربية جهودها الشنيعة وهي الانتهاء « بالكسب » او الفنائم وترك العدو وشانه كما حدث في وقعة (بواتيه) في فرنسا بين عبد الرحمن المغاقي امير الاندلس وشارل مارتل قائد جيوش الفرنجة سنة ٧٣٢ م . ولو قدر للعرب يومئذ ان يحصروا جهودهم في مقارعة العدو لاستولوا على فرانسة

اصاب اخوته فخر صريعا منهم .

اما الشيخ الذي كان يستقي المجاهدين فقد عاد في مساء اليوم التالي من المسيرة محملا على ظهر بعيره لان شظايا قنبلة اصابت من الطائرة وهو غير عالم بحديث اولاده . فانزلته زوجته وانحنت عليه تقبله طيلة ليلا وهي تدعو الله ان يعجل برجوع اولادها ليخففوا عنه الم الجراح لكن دعاءها لم يستجب وامالها لم تتحقق ، وقد انتظرتهم حتى الصباح فلم يعودوا ، فاخذ قلبها يخفق واطرافها ترتعش لان التفبيب في مثل تلك الايام نذير مبین .

شعرت الوالدة برعشة الفراق بعد امل التلاقي فاخذت تنظر في وجه الشيخ الراحل وتقبله قبلات حارة كأنها تحمله منها ما يستطيع حمله فللمات كبدتها المضطجعين بجانب استحکامات المسيرة . وكانت في بعض الاحيان تنحني عليه وتهمس في اذنه كلما يفهمه احد من الموجودين بجانبها . واخيرا خارت قواها فتهددت بجانبه صامتة من هول الموقف وشدة الألم .

جاءني اهلها الى بيت متعب بك الاطرش شيخ القرية يستنجدون بي لاسعافها ، فذهبت معهم على الفور علي انجدها ، فلبثت الدار بعد عشرة دقائق فوجدت ذراعها الايمن تحت رأس الشيخ وكلاهما جثة هامدة لا حراك بها .

حقا لقد مات رب بيت حمزة وربته واولادهما الفتيان الاربعة . ولكن روح حمزة باقية في قلوب الاجيال العربية الاتية ترحي اليها كيف يكون القيام بالواجب .

نار الجهاد في حماه بعد المسيرة :

وقد حدث عقيب معركة المسيرة حادث ذو شأن تاريخي من الطراز الاول في هذه الثورة .

فان السيدين منير الرئيس والرحوم مظهر السباعي

استطاع ان يقنع الدروز قناعة تامة بانهم هزموا شر هزيمة .

ولولا معركة السويدياء الاخيرة التي حدثت في الضحاس والعشرين من نيسان سنة ١٩٢١ لقلت ان وقعة المسيرة هذه هي ختام الحرب التي ظهرت فيها البطولة الدروزية في الجبل في اضخم مظاهرها واعظم شدتها .

من قصص البطولة الدروزية :

وحسبي ان اذكر القصة التالية للدلالة على المفاداة الغالية والوطنية الصادقة والشجاعة الفائقة التي بدت في تلك الايام .

بيت حمزة :

في قرية (رساس) اسرة تدعى « بيت حمزة » كان على ابناءها حماية العلم ، العلم الذي يحمله الفزاة من اهل هذه القرية . فلما نفروا الى حرب المسيرة نفر معهم رب هذا البيت وهو شيخ من في نحو النعمانيين من العمر ومع اولاده الاربعة ، وقد اتخذ على نفسه سقاية المجاهدين من قريتين حملهما على بعيره لهذه الغاية . واما اولاده ، فالدفاع عن علم (رساس) .

حدث ان الاول منهم حمل هذا العلم وتقدم به امام اهل قريته حتى كاد يظا استحکامات الفرنسيين ، فسددوا عليه بنادقهم فقتلوه . فتقدم اخوه يعمل محله ، لكنه اصابه ما اصاب اخاه فخر بجانبه فتقدم الثالث لان نفسه ابت ان ينال علم (رساس) ويراجع الرساسيون ولكنه اصيب بالرصاص ايضا فخر الى جانبهما .

ولا تقدم الرابع للقيام بواجبه حاول الرساسيون عبثا ان يشوه عن عزمه رحمة بالعجوزين امه وابيه ولكنه ابى الالتفات الى ضراعتهم وما زال يمشي حتى وصل الى العلم والى اخوته القتلى بجانبه ، وما كان يرفع ليلوح به لاهل رساس حتى اصابه ما

(غاملان) من السويدياء بعدما احتلها وحالت دون اخضاع الجبل جميعا .

الجنرال غاملان يعود للسويدياء :

بعدما احدثت الدعاية التي بثها الفرنسيون بين السردوز عقيب معركة المسيفرة ، الزلزلة المعنوية المطلوبة ، ظن الجنرال غاملان انه يستطيع اقتحام السويدياء . ففعل ذلك بعد اسبوع تقريبا وقد كانت نفوس بني معروف ميتة الى درجة انهم لم يطلقوا عليه عيارا ناريا واحدا .

هذا ما شهدته بعيني وسمعته بأذني في قرية (عري) بالقرب من السويدياء ، وكان معي حضرة الاخ جميل بك مكرم بك . حتى ان المجاهدين لا راونا اصروا على وجوب انتقالنا من مكاننا الى محل ابعـد .

ودخول الفرنسيين السويدياء هذه المرة لم يكن له قيمة حربية تذكر بطبيعة الحال ، لانه كان شبيها بالاستسلام .

الجنرال غاملان يخلي السويدياء دون قتال :

ان قلة المياه في الجبل واعتقاد الفرنسيين ان تكون هلمه خطة عسكرية دبرها يحيى حياتي بك لحصارهم ، ثم عودة النشاط الى الثوار بعد معركة طفيفة قضوا بها على نحو اربعين جنديا مغربيا خرجوا من القلعة لورود الماء في (ام صاد) ، كل ذلك القى الرعب في قلب الجنرال غاملان وحمله على الانسحاب والتفكير بجنوده وبالتائيد تومي مارثان ومن كان معه من المحصورين في القلعة ، منذ معركة الكثر الماضية . ففادها خلسة تاركا ما كان فيها من عتاد ثقيل وسلاح كثير وجد في التراجع بحيث ترك قدور الطعام تغلي على النار .

وهكذا نرى الانتصار على جنود غاملان يوم انسحابه من

الضابطان المجاهدان قدما اليـنا من حمـاه الى الجبل بطريق شرقي الاردن يحملان صورة اتفاق لاجل اشغال نار الثورة امضاه بعض الزعماء امثال بني العظم والبرازي .

ومن مواد هذا الاتفاق ان تحصل مفاوضات تهديدية في اول اكتوبر من تلك السنة في الفوطة وان يتقدم الى جهات القريتين قوة من الجبل لا تقل عن المائة فارس لينضم اليها فوزي القاوقجي ومن معه من الجنود . وان يكون يوم الثورة في حمـاه اليوم الثاني من اكتوبر وان لا يعقد الجبل صلحا منفردا بل يكون الصلح مشروطا باسم ستورية وغير ذلك من الشروط التي لا محل لذكرها الان .

قرأت صورة هذا الاتفاق فرأيت من الضروري الاسراع في قبوله لاشتغال الجنود الفرنسية ، التي كانت يومئذ في حوران ، عن الجبل خصوصا بعدما تزلزلت معنوياته من تأثير الدعاية الفرنسية عقب المسيفرة .

ركبت وركب معي الاخوان في طلب سلطان باشا الاطرش فالتفتنا به في قرية (رساس) حيث تباحثنا مليا في هذا الاتفاق وفي طريقة تنفيذه بنوده . فقر القرار على قبوله جميعا .

ولما كانت الضرورة تقتضي بتطمين الاخوان بحمـاه بان الجبل على العهد الذي عاهدناه ، من حيث الصلح المشترك ، فقد طلبت منه ان يوقع الرسالة باسم المدروز فوقها .

وحينئذ سلمتها للبطل نزيه المؤيد ومع مظهر بك السباعي وكلفتهما ايصالها الى الشمال ، فسافروا حالا الى الفوطة وارسلها مع الاخ المجاهد خالد بك الخطيب .

وقد كان لهذا الاتفاق شأن عظيم جدا في دوام الثورة لان المعامع التي حدثت في (حاضر حمـاه) بحسب هذا الاتفاق سحبت

الدرويش وفضل الله باشا هندية الوطني الصميم والشجاع
الباسل .

وكانت خسائر العدو عظيمة بينها طيارتان ، وقتلاه تمسلا
السهل امام (رساس) لكننا فقدنا رجلا لا تعادله الرجال هو المرحوم
حمد بك عامر وجرح ايضا فضل الله باشا هندية .

انسحاب غاملان من جميع الجبل الدرزي :

ولما ظهرت بوادر الثورة في سورية رأى الجنرال غاملان شدة
الخطر المحدق بالفرنسيين فاضطر الى الانسحاب من الجبل
نهائيا .



السويدياء لم يكن عملا ايجابيا من قبل الثوار ، بل سلبيا من خوف
الفرنسيين وتزول معنوياتهم .

بعد خروج غاملان من السويداء :

يظهر لنا ان الجنرال غاملان بعدما انسحب من السويداء لم
يقنط من التغلب على الدروز في القرن القبلي اذ صرح في بلاغاته
انه يتوي احتلال (صلخد) بعد ان يؤدب بعض القرى الاخرى .

وقد قامت قوة عظيمة من جنوده تتجاوز الالاف ومعها
الدبابات والسيارات المصفحة وبطاريات المدفعية . فمسادمت
شرذمة صغيرة من الدروز بالقرب من (المجيم) علمتها كيف يكون
الصبر على الكاره . وقد اظهر فيها المجاهد الكبير سعيد بك
العاص من ضروب الشجاعة ما بقي يتردد في الافواه .

لكننا وبالاأسف خسرنا فيها بطلا مغوارا هو المرحوم نسيب
بك الاطرش . ثم انها واصلت زحفها ، فدخلت قرية (عرى)
حيث استسلم المرحوم الامير حمد الاطرش . ثم زحفت على قرية
(رساس) وعسكرت فيها . وقيمت هناك ثلاثة ايام كاملة ضربت
اثناءها البيوت وقطعت الاشجار بصورة همجية وفي اليوم التاسع
من تشرين الاول سنة ١٩٢٥ ، انسحبت عند طلوع الشمس ،
فلاحقها المجاهدون وعلى رأسهم الامير حسن الاطرش ويوسف بك
الاطرش وسعيد بك العاص والمرحوم فؤاد بك سليم وصباح بك
الحمود وغيرهم مما اضطر الجنرال غاملان الى نشر جنوده
المنشاة . لكن حمد بك عامر البطل المشهور لاقاهم في جهات تل
الحديد .

وقد دام الحرب حتى العصر اذ اصيب العدو بانكسار
شنيع ، فاضطر حمد عامر الى الانسحاب الى المزرعة حيث قضى
ليلته . واشترك في هذه المعارك ايضا زيد بك الاطرش وحمزة بك

اضرارهم عن القرى ، فلبى طلبي . وخرجت مع مفزة خيالة من (الاسكادرون) الذي كان تحت قيادتي ، وطلقت اطوف بين هذه المشائر وابث فيهم روح الكفاح بصورة عليية . فانفقت معي المشايخ ، وقد تخصص لكل واحد منهم راتب ووظيفة يقوم بها ثاني يوم الثورة في حماه . وفي مدة خمسة ايام كانت جميع الاستعدادات تامة ، فلما انفت ساعة العمل ، اعطيت التعليمات المفصلة لجميع الرعاء ، وفي نحو الساعة الثامنة مساء دخلنا حماه . وهاجمنا جميع المخافر وتسلمنا اسلحتها وقبضنا على الدرك والشرطة ثم سرنا الى دار الحكومة حيث فيها كل قوة الدرك وفرقة من الجيش المختلط ، فهاجمناها ايضا ، وبعد معركة دامت حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل استولينا عليها عنوة واحرقناها وقتلنا من فيها من الجنود ثم اخذنا نستعد لهاجمة المواقع العسكرية الحصينة .

وفي الصباح خرج فرسان العدو من التكنات للاتقنا فردنا بخسارة عظيمة بعد معركة دامت نصف ساعة على (جسر السرايا) ثم اننا طوقنا التكنات فبدأت المعركة تشتد والانجاح حليفنا حتى تكبد العدو خسائر فادحة وفقد اكثر من ثلثي جنده واستسلم بعض المحافظين خارج التكنات مع رشاشاتهم ولم يعد في طاقته المحصورين الدفاع .

ثم لا وصلت طيارات العدو اخذت تلقي قنابلها على المدن فاستقطنا منها طيارين . وقبيل الظهر وصلت نجدات قوية تمكنت من اقتاذ المحصورين بعد معارك دامية . وقد ازداد في آخر الامر عدد الاعداء زيادة عظيمة ادت الى امتناع كثيرين من وجوه حماه الذين جنبوا وحافظوا على الحياد عن القيام بوعودهم وعهودهم ولا اصبح الاستيلاء على الاماكن العسكرية الملوثة جنسودا متعلدا ، قررنا الانسحاب الى خارج المدينة لنقوم بالحرركات الثورية مشتركين مع البدو .

الثورة في حماه

نسافر نسيب بك البكري من (طربا) الى جبال انصفا لتتهييج عربانها الفياث وعلى رأسهم خلف النعير .

وحدثت في النغوظة في اول اكتوبر المناوشات التي تم الاتفاق عليها لكن الثورة في حماه تأخرت الى اليوم الرابع منه .
وغني عن البيان ان حركة حماه كانت فريدة في بابها بين جميع الحركات التي حدثت في هذه الثورة من حيث تعيين الوقت واتفاق كلمة الرعاء وتطوع موظف كبير مثل الكابتن فوزي بك القواقجي للعمل .

تقرير القواقجي عن ثورة حماه :

وقد كتب الكابتن فوزي بك القواقجي عن ثورة حماه ما خلاصته :

« تقر نهائيا ان تكون الثورة مساء الاحد الواقع في ٤ تشرين الاول سنة ١٩٢٥ وقت المساء ، فطلبت الى القومندان كوستيليه المستشار الاداري لحماه ان اخرج لتفويض البدو بحجة منع

صدمت اشرعة غاملان المنشورة في جبل الدرور فاقلمت بها عنه .
 وتفصيل ذلك ان الجنرال ساراي على اثر هبوب ثورة حماه
 طلب نصف القوة الموجودة مع غاملان على جناح السرعة . فابى
 هذا وطلب اما الانسحاب كاملا او البقاء كاملا ، لكن الجنرال
 ساراي اصر فاضطر هذا الى الرجوع عن الجبل بقضه وقضيضه .
 ثم ان هذه الثورة ، في حماه ، سببت تجزئة الجيش الفرنسي
 وارغمته على اتخاذ خطة الدفاع بعدما كان مهاجما ومكنت الثوار
 فيما بعد ، في المرح والغوطة من الدخول الى دمشق بذلك الظفر
 الذي كاد يقضي على فرنسا في سورية .



وكانت خسائر العدو لا تحقل عن اربعماية بين قتيل وجريح
 في حين كانت خسارتنا خمسة وثلاثين .

وفي الليل السابع من الشهر انسحبنا الى جهة الشمال ،
 وحملنا عربان الموالى على مهاجمة فرسان الفرنسيين المتحصنين
 في مركز قضاء المعرة وبعد معركة دامت اربع ساعات قهرنا العدو وغنمنا
 منه ٣٥ راسا من الخيل و٢٢ بندقية وغير ذلك .

وقد خسر العدو في هذه المعركة ثلاثة ضباط فرنسيين
 وسبعين جنديا وخسارتنا بدوي واحد .

(انتهى تقرير فوزي بك القلاوقجي)

اخفاقي حركة حماه واسباب ذلك :

ان السبب الجوهرى في فشل ثورة حماه بهذه السرعة هو
 اجسام الزعماء الايمان الذين تأمروا على تنفيذها ، فلما ظهرت
 الى حيز الوجود اختبئوا في بيوتهم ليروا ما يكون من امرها فان
 نجحت فهم المؤسسون لها واصحاب الشان فيها ، وان فشلت
 فهم عنها معزضون .

ولا تخط هذه الحركة من عبر ، فان الاعتماد على البدو كان
 في غير محله ، الا اذا كان الغرض من الاستعانة بهم قدح الزناد لان
 التجارب في هذه الثورة دللتنا بصورة عملية على ان البدو لا
 يصلحون للحروب الدولية التي تتطلب صبرا ، بل هم اصلح ما
 يكون للهبات الموقفة . لذلك قيل في الامثال العامة
 (مثل العرب بالصياح) .

اثر حركة حماه على المناطق الاخرى للشورة :

على ان ذلك لا يعني ابدا ان ثورة حماه لم تات بثمره ، بل على
 العكس ، كانت ثمرتها من اطيب الثمار لانها ما هبت ريحها حتى

المصابة نحو ٢٩ حصاناً وأسرت الضباط جميعاً ، وأسفر الحال عن اندحار الدرك بعد ان تركوا قتلاهم على الحضيض .

وقد كان لهذه المعركة تأثير حسن في النفوس شجع المجاهدين على دخول الشام .

في صميم المعركة :

لم يفضح الاستعمار امر كما فضحه ضرب الشام ، اذ لما صار الضرب على الاوتار الدولية الحساسة ، على الرعايا الاجانب وقنصلياتهم ومدارسهم وكنائسهم ومصالحهم الاقتصادية ، لم يعد بالإمكان اخفاء الشر . وعلى ذلك ف ضرب الشام حسادث في الدرجة الاولى من الخطورة .

وقد ادرك الثوار هذا الامر منذ الايام الاولى للثورة وعرفوا ان الحروب اذا بقيت محصورة في الاطراف استطاعت فرانسه ان تنظاها باهمال شان هذا الجهاد المقدس .

دخول المجاهدين الى دمشق :

لا عجب ان تتواصل الرسائل بين الرعاء في اوائل الثورة لتحقيق هذه الغاية الحرية والسياسية في آن واحد . الا ان ما فشل في افسطس (آب) تحقق في اليوم الثامن عشر من شهر اكتوبر (تشرين الاول) بدخول المجاهدين عاصمة بني امية .

دخلوها وكان عددهم على وجه التقريب كما يلي :

- ٢٠٠ مجاهد من الرج .
- ١٠٠ مجاهد من الفوطة .
- ١٠٠ مجاهد من جبل الدروز .

وعلى رأس الجميع نسيب بك البكري ، ثم انضم اليهم من الاحياء (الدمشقية) اهل الشاغور ، وباب السلام بزعامة كل من

معركة الثمام الكبرى

ارهاصات المعركة :

كانت المصادمات تجري في جوار نهر العاصي وحامل لسواء المجاهدين فيها فوزي بك القاوقيجي ، بينما كانت المعارك تسدور في جوار بردى ، والبارز بين الثوار فيها حسن الخراط ، وقد لعب هذا العصامي اعظم الادوار في حروب الفوطة ودمشق .

حسن الخراط :

فمن هذه المعارك ، وهو ما اطلق عليه الثوار اسم « وقعة الرور الاولى » خرج الى الفوطة بضعة اشخاص معروفين ، منهم ابو عبده ديب الشيخ والشيخ ابو صلاح المرجا ، والشيخ نديم وغيرهم .

فالتحق بهم حسن الخراط بعدما عاد من الجبل ، فالفروا عصاية قوية استمدت طعامها وعتادها من القرى القريبة من دمشق . فارسلت السلطة عليها قوة من الدرك الى قرية (الميحة) بقيادة الرئيس رفيق العظمة ومع عدد من الضباط المحليين ، فاشتبكت هذه القوة في (الميحة) مع الثوار ، فكانت النتيجة ان غنمت

حسن القبة ، بلاؤه واستشهاده :

ومما هو جدير بالذكر ان بعض المجاهدين وعلى رأسهم حسن القبة اخذوا يومئذ خبرا بان الجنرال ساراي قدم لدمشق لزيارة قصر بني العظم في البرورية فقررنا اختطافه ، لذلك دخلوا المدينة من جهة الشافور ، وواصلوا سيرهم في الشوارع حتى بلغوا القصر ، لكن الجنرال كان قد خرج منه على جناح السرعة ، ولم يبق فيه الا بعض الجنود الفرنسيين . فاختدوا يطلقون النار على المجاهدين فتقابلهم هؤلاء ، وجرت ملحمة اشتملت النار في آخرها في القصر .

ومما يسجل بالتurf والنفخ انصراف المجاهدين الى الدفاع عن الانار الموجودة فيه حين كان الجنود المحصورون يطلقون النار على كل من راوه . واخيرا اصابوا حسن القبة نفسه ، فخر صريعا بجانب الباب بعدما اظهر من فنون البسالة ما لا تنساه الابنساء والاحفاد .

نصاري الشام في حماية المجاهدين رغم دسائس الفرنسيين :

وقد حاولت بعض الجهات ان تظهر هذه الثورة الوطنية القومية بمظهر التعصب الديني للمسيح ، وربما ارادت هذه الجهات بترك (باب روما) و (الباب الشرقي) حيث يقطن المسيحيون من غير قوة مدافعة ان تلج التوار بهاجمتها ، لتملأ الدنيا باخبار تعدي المسلمين على النصاري ، لكن سهمها طاش .

وقد قال مراسل (فرانكفورت غازيت) يومئذ : « ان الاحياء المسيحية التي تغطي عنها الفرنسيون في دمشق ، سلمت من النهب بفضل الزعماء المسلمين ، ويجب على فرنسا ان تسلم الان بان سورية اليوم هي غير سورية المعروفة بتعدد منازعاتها الدينية . وان الوطنية السورية حلت محل الطائفية ، وقامت تطالب بحقها المضمون » .

حسن الخراط ومحمود سلام وابي عبده ديب الشيخ وحسن القبة .

وقد بقي المجاهدون في دمشق اربعة ايام متواليات سحقوا في غضونها جميع الجنود المعتصمين في المناريس في الشافور والميدان واما من بقي منهم مبشرا في المدينة وضواحيها مع من انضم اليهم من الموظفين الفرنسيين ونسائهم فقد لجأوا جميعا الى القلعة واحتسوا بالاراجا .

اثر دخول المجاهدين الى دمشق على الفرنسيين :

فقد الجنرال ساراي موازنته واختلط عليه الامر فلم يعد قادرا على فهم الوضعية وتقديرها بالضبط . ثم انه استشار من استشاره من الضباط الطافحين بالخيلاء العسكرية فافقروا جميعا ضرب الشام بالدافع من القلاع .

ضرب دمشق بالدافع :

وفي الوقت المعين فتحت هذه الآلات الجهنمية انوارها وصبت على ائمن حي من الاحياء حمها فلم يعبض اربع وعشرون ساعة الا وقنابل التدمير والتحريق قد اكلت ما يربو على ستماية دار من احسن الدور تقدر قيمة كل واحد منها الوسطية بالفني جنية على اقل تقدير ، ناهيك بما وقع من السلب والنهب بصورة لم يعدها مثل في القرون الحاضرة .

فقد كانوا يكسرون ابواب الحوانيت والمخازن الطافحة بالبضائع النفيسة وينقلون ما فيها ويطلقون البيوت المنطرفة ويحلبون متاعها واوانيتها الثمينة حتى امتلات بيوت (.....) برياش الدماشقة .

التي في جوارها .

وقد كان لهجومهم على دمشق اثر محمود في الجبل اذ شعر (بنو معروف) بأخوة حقيقية تربطهم بسكان القوطة . وان اللعب الذي كان منيخا على الجنوب سيوزع على المناطق الشمالية .

الثوار يغادرون دمشق الى القوطة :

ان ضبط المارك التي حدثت في القوطة ، منذ غادر الثوار دمشق حتى احتلال القرن الجنوبي في جبل الدروز ، هي مما لا تسعه هذه الخلاصة .

وحسبنا القول هنا ان الثورة في الشمال ، ولا سيما في منطقة دمشق لم تلق الرعب في قلب الخصم فقط ، بل دفعت تيار الجيش عن الجبل فاراحته من الحروب نحو سبعة اشهر تمكن الدروز خلالها من جمع شملهم والاشتراك مع جيرانهم في الجهاد القومي . ويحسن بنا ان نشير فيما يلي الى بعض المارك المهمة التي جرت في القوطة وضواحيها في تلك الفترة .

وربما بلغ عدد المارك المهمة جميعها يو مثل الضمسين .

معركة الزور :

حدثت هذه المعركة في السابع عشر من نوفمبر سنة ١٩٢٥ ، وكان عدد المجاهدين اثنين وثمانين فارسا . وقد بلغهم ان الحرب قائمة في الزور بالقرب من قرية المليحة فتقدموا اليها ، وهنا جرت معركة حامية الوطيس جدا .

قال سعيد بك العاص ، البطل الكبير :

انت الطيارة لكشف مواقعنا فخاف الفرسان على خيولهم فربطوها في قرية (البلاط) ، وانا بقيت ومعى فرحسان شرف

وجاء في البرقيات العمومية ، ان المشايخ ان الثوار لم يقوموا بما يؤخذون عليه ، بل ان حسن الخراط ، زار محلات المسيحيين وهذا روعهم قائلا لهم (انكم اخواننا) .

القناصل يشهدون بحسن معاملة المسلمين للنصارى :

وقد شهد التقرير القنصلي المشترك الذي وضعه القناصل في دمشق مثل هذه الشهادة وقرع الفرنسيين على ضربهم البلد من غير انذار وتركهم احياء المسيحيين تحت رحمة الثوار وذكرت كيف قام المسلمون بحماية اخوانهم في الوطن .

الصحافة الاجنبية تستنكر ضرب دمشق بالمدافع :

وتساءلت جريدة الجورنال الفرنسية قائلة :

« هل كان صحيحا ما اذاعته الصحف الانكليزية عن الجنرال ساراي بأنه اهل العمل بقوانين الدول وهي تبليغ القناصل في دمشق قبل اطلاق المدافع على المدينة وانذار النساء والاطفال بمغادرتها وعليه تقرر ان هذا الاهمال قد حمل القناصل هناك على الاحتجاج بواسطة اقدم واحد بينهم . »

المدافع على دمشق واثرها :

وقد استمر اطلاق المدافع من منتصف يوم الاحد الى مساء الثلاثاء ولا يعرف عدد الذين قتلوا تحت الانقاض بالضبط ، وتقدر الخسائر المادية التي خسرتها المدينة بثلاثة ملايين جنية وكان عدد القتلى قليلا ، لكن سيارات الفرنسيين المملوءة بجثث الجنود كانت كثيرة .

ولما رأى الثوار الرعب الذي استولى على النساء والاطفال من مواصلة القنابل على الاحياء وتحطيق الطائرات في المساء وضربها البيوت من غير تعيين ، غادروا المدينة على امل التزول في البساتين

حسن الخراط

لم يكونوا كثيرين ، الذين اشتهروا في هذه الثورة ، اشتهار حسن الخراط ، وهذا بحق ، لان معرفتنا بالرجل واحاطتنا بالاحوال التي اكتنفته دللتنا بأجلى بيان على انه من ارباب القيمة الشخصية . وما ذكرته قط الاالا وقلت لنفسي ، كم رجل كان يظهر في سورية ويكتب له التفوق والبروز لو تعهدته الفرص المناسبة ولم يقضيه منجل النسوية العمومية .

لقد اختلف العلماء من قبل ، فزعم بعضهم ان اصحاب القيم الثمينة لن تحول دون بروضهم الحوائل . وقال اخرون ، تبقى القيمة الشخصية مستترة الى ان توضع في البيئة الصالحة وتمتع بالفرصة المناسبة وتنمو .

وعندي ان سيرة حسن الخراط ومن هذا حقله من المجاهدين العصامين من افراد الطبقة الشعبية العامة ، امثال ابي محي الدين شعبان ، تؤيد هذا القول . اذ لو لا الثورة ما برزت لهم صفات يعتازون بها وانوار يتلاقون باشعتها واظن ان مثل هذا الخبر لا يقدر في الطبقة التي ندعوها عادة (طبقة القضايات) . رايت حسن الخراط لأول مرة في هذه الثورة في قرية (ام ضبيب) من قرى جبل الدروز في اوائل شهر سبتمبر (الاول)

وسليمان بك ويوسف بك واللائم خير الدين الطيار ، ثم لحقنا بضعة رجال من البدو ليس معهم سلاح . وقد امسكنا الطريق الموجود غرب (العبارة) وسرنا في طريق الميعة مسافة ثلاثمائة متر حيث مترسنا وصادمنا العدو حتى قرب القروب اذ نفند عتادنا ، فاضطربنا الى الانسحاب ، وانسحب العدو ايضا . ولكن محمد بك عز الدين لاقاه في جوار طريق جرمنا وضربه ضربا مبرحا حتى ادخله دمشق .

وكانت خسائرنا فرحان بك شرف ، البطل المفوار ، وجريح اسمه ابو علي طربوش .

اما قتلاهم وجرحاهم فقد ملؤا اربع عشرة سيارة بنهبادة عبد الحميد النابلسي احد رجال جيشهم .

واسباب هذه المعركة ، ان الفرنسيين خرجوا لحصار الخراط وعصابته في الزور ، وعدد افراد هذه العصابة نحو تسعين رجلا وقد ابلوا خير البلاء . وظهر حسن الخراط منتهى الشجاعة حتى جرح في كفة . وكذلك ابرق منير الرئيس اقداما عجيبا .

اما البلاغات الرسمية ، فقد قالت عن هذه المعركة : « دامت الحرب في الميعة ست ساعات خسر الثوار فيها مائة وخمسين وخسرنا خمسة اشخاص فقط ! » .

في العمل واخذ جميع السلاح الذي فيه مع العتاد وفرق ذلك كله على اخوانه ، فكان له خير ذخيرة استعملوها اشهرها متواصلة ولقد جرح في كفه في معركة الزور الثانية النسي وقعت في ١٨ تشرين الاول سنة ١٩٢٥ ، وقضى نحيبه غدرا على ايدي اثنين من الثراكية المختبئين وذلك في وقعة (بلدة) في الحادي والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٢٥ .

وما شئت بذكره على هذه الصورة الا لاطهر القوى المستترة في امتنا ، ولا قدم للقراء مثالا واحدا من امثلة كثيرة رايها في هذه الثورة المباركة .

معركة بلدة وبيلا - ٢٩ تشرين ثاني سنة ١٩٢٥ :
من اهم المعارك التي حدثت في القوطة بعد ضرب الشام ، معركة بلدة وبيلا ، فانها الفتى الرعب في قلوب الجيوش المستعمرة وشملت حرارتها وحملت قيادتها على اتخاذ خطة المخافر الثابتة استعدادا للمهاجمات المفجائية المتكررة .

اما خطة المجاهدين ، فكانت طيلة تلك المدة وما بعدها اتخاذ الدفاع امام هجمات العدو من جهة وارسال قوى اخرى لتطويقه من جهة اخرى .

وبهذه الوسيلة كانوا يعزقونه شر معزق ويفرقونه بينه وبين قلوبانه وذخائره ويكرهونه على الانسحاب .

وخلاصة هذه المعركة الباهرة ان نزية بك المؤيد العظيم ذهب بخمسين فارسا لقتل الخائن المعروف سليم المفتي وهو رجل ساقط . وقد قام بتأليف عصاية من المايجورين امثاله لقتال الوطنيين .

ولا وصل نزية بك الى جوار الميدان صسادم الجيوش واستدجرها بالانسحاب الى (بيلا) حيث جاء متعجب بك الاطرش من قرية (الست) ومعه نحو ثمانين فارسا ، فجرت ملحمة عظيمة

سنة ١٩٢٥ فاذا هو رجل ربة في نحو الخمسين من العمر ، بوجه مستطيل وجهه بارزة وعينين شهلاوين يستعلان ذكاء ورأس اصلع وقد خط الشيب شاربيه ورأسه . والخفة الظاهرة كل الظهور في حر كانه ولعل ذلك ناشيء عن تمرنه على ضرب المعسى (الشوح) وهو يعتمد بالعمامة الاغباني ويلبس القنيز وفوقه المعباء . وكان اميا لم يفتش التعليم المدرسي ، وقد صرف شطرا من حياته حارسا في الاسواق وناطورا في البساتين .

ولا شك ان الباعث الاكبر الذي بعته على الالتحاق بالثورة هو الوطنية الصحيحة . وقد حضر معارك متعددة امتاز في جميعها . منها ، معركة الزور الاولى كما قدمنا ، والثانية ، ثم وقعة النيك الكبرى التي سيرد ذكرها ومعركة الشام ، وكان كلف بمهاجمة الشافور وضرب مخفر (الشيخ حسن) واشتهر عنه انه لم يقعد في متراس ولا احتسى بشجرة ، بل كان يحارب الاعداء واقفا على ابعاد قد لا تتجاوز مائة متر .

وقد ذكر لي احد من رآه في وقعة الزور الثانية ، انه كان يصيح في وجه الاعداء وينادي ، لا تفتشوا عني في بيوت الشام بل امام استحكامكم ، انا حسن الخراط .

وقد ظهرت عليه ميزات التنظيم والقيادة بحيث كانت مصابته مترابطة تأتمر بأمره وتنتهي بنواحيه . اشتراكي المبدأ ، لو تناول تفاحة ، لمض منها عضمة واحدة وفرق ما بقي منها على اخوانه . على انه كان بطلاشا بالخونة لا يرحمهم ، وقد علق بعضهم على ابواب دمشق .

وحدث له ان حارب في احد الايام الفرنسيين في «معامل الزجاج» فضر بهم بحيلة حربية ضربة مزقتهم فتمكن من الدخول

على ان هذه الواقعة ستبقى شهيرة بكرة ما اترف فيها من الجرائم والاعتداء على الاعراض وقتل الملاحين الموال من كسل سلاح واحراق اكوام القنب بمن فيها من النساء والاطفال وهدم البيوت على رؤوس اصحابها . وقد شهد معظم هذه الحوادث السيد منير الرئيس وهو مختبىء في احد الحقول التي لم تصلها النيران .

وكان عدد القتلى من هؤلاء الابرياء نساء ورجالا اثنين وعشرين عدا الاطفال ، واما خسائر الجند فبلغت اثنين وستين قتيلًا .

الهدوء في الغوطة :

ومما هو جدير بالتدوين ، ان هذه المعركة وقعت عرضا بالنسبة الى المجاهدين ، فانهم كانوا قادمين لغاية قرية جوبر من الجوش التي احاطت بها في صباح ذلك اليوم ، وهذه القرية والحق يقال ، فعلت الاعاجيب في معارك الغوطة . ولما امتدت وطأة الشتاء وزعت قيادة الجيش الفرنسي المخافر على القرى الابنية : دوما اورثية ، خرابو ، والشبعة ، سكنت العاصفة في الغوطة ولم يبق للحوادث اثر يذكر الا ما يتعلق بقتل المرحوم حسن الخراط اغتيالاً من قبل الشر كس في قرية بلدة في ٢١ ك الاول سنة ١٩٢٥ . وقتل الكولونيل (فرن) في وقعة الشبعة الهيبة ، وقد اخفى الفرنسيون قتله سبعة اشهر .

وكان بطل هذه المعركة الظافرة الشهيد العربي الحر شوكيت بك المائدي .

اسباب الهدوء في الغوطة :

وسبب هذا السكون ، ان محمد عز الدين الحلبي البطل المعروف ومن معه من الدروز الوجوديين في الغوطة من جهة . والقسم الاكبر من مجاهدي الغوطة انفسهم من جهة ثانية ،

بالسلاح الابيض ، وكان سعيد بك العاص وعلي بك الاطرش وعبد القادر انما سكر ومن معه من الرجال ، قد سمعوا اصوات البنادق والمدافع فهربوا لمساعدة اخوانهم المجاهدين .

قال سعيد بك : كان دليلاً ابو عبده سكر ، وقد اشتدت الملحمة حتى اصبحنا نتصارع مع العدو بالفتائل اليدوية فجاء لنجدتنا محمد بك عز الدين بمشاة ودام الحرب من الصباح حتى الساعة السابعة اذ تم انهزام الجيش بقضة وقضيضة .

اما غنائم المجاهدين فاحد عشر رشاشا وعتادا لا يحصى وقتلى العدو وجرحاه ستمائة علاوة على نحو مائة جثة بقيت على اقنية المياه .

وقد بلغ الحال بالمجاهدين ، ان سعيد بك العاص تعقب الاعداء بنفسه حتى القشلة العززية في حي الميدان ، فقتل على بابها ضابطاً من الضباط الفرنسيين المتقدمين .

ولم تتجاوز خسائرنا من قتلى وجرحى ثمانية عشر . وبقيت المدافع الضخمة تطلق قنابلها والطائرات تلقى مقذوفاتها حتى خيم الليل .

معركة حمورة - ١٧ ك الاول سنة ١٩٢٥ :

حملة لواء هذه المعركة السادة نزيه المؤيد وسعيد العاص وابو عبده سكر ومحمود ابو يحيى ومنير الرئيس .

وقد كانت المصادمة وجها لوجه في داخل القرية (حمورة) وظهر فيها هؤلاء الرجال الافذاذ بطولاة نادرة . وكاد السيد منير الرئيس يقضي عليه ، لو لم يشاح ثيابه العسكرية . وقد نفذ عتاد المجاهدين في آخرها ولو لم يتداركهم نزيه بك المؤيد والرحوم محمد علي الدروبي واخوان لهم آخرون ، لفعل الاعداء اكثر مما فعلوا .

الثورة في النسيك

١٤ و ١٥ آذار سنة ١٩٢٦ :

حصلت في النيك قبل هذه المرة العظيمة معارك عديدة في شهر اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٢٥ ، والثانيون فيها هم العصابت الاربع التي تجمعت في تلك الارزاء يومئذ : عصابتة جبل قلمون ، وعصابتة النيك ، وعصابتة عكاشة ، وعصابتة حسن الخراط .

وفي احدى هذه المعارك ، ارسل المدو مائة جندي مسع ست سيارات كبيرة مصفحة ، بقيادة ضباط الدرك ، فصادفهم الجاهدون في البساتين وعددهم لا يتجاوز الخمسة والعشرين واسروا منهم الضابط بهيجا ، وغنموا اربعة رشاشات كيبسرة ورشاشين صغيرين وعددا من سيارات الركوب .

المركة الكبرى :

اما مركة النيك الكبرى فحدثت بعد ذلك ببضعة اشهر ، وتفصيل خبرها ان الرعاء الكبار وعلى راسهم سعيد بك المعاص وفوزي بك القاوقجي قرروا اتخاذ (النيك) مركزا للثورة في جبل قلمون بعدما خمدت فيه النار من جراء الفوضى والمعاملات

غادروا هذه المنطقة الى جبل الدروز وانسحب سعيد بك المعاص ومن معه من الرجال الى النيك وجهات الشمال ، وتبعهم على الاعتقاب فوزي بك القاوقجي ورجاله من الجبل .

ولم يبق في منطقة الشام غير نزيه بك المؤيد ومعه السيد ابو عبده سكر والدرخباني والهايتي وغيرهم ، وقد كان استمرارهم على العمل في هذه المنطقة بعدما غادرها من غادرها آية في الجراة وتحمل الواجب تسطر لهم جميعا ، وعندني ان هذه الصفحة من ادق الصفحات في تاريخ الثورة المباركة ، خصوصا بعدما جاءتنا التقارير المطولة من الاخصائيين طافحة بالشائخ معلومة بالندم ، فقد قال نزيه بك في احدى رسائله :

« صمنا على القيام باعمال فجائية شديدة ، نثقل السلطة اكثر من غيرها فابتدانا بهماجمة الخطوط الحديدية . وفي مدة يومين قطعنا خط درعا ، شام ، بيروت . ومكثنا نحو سبعة ايام على خط بيروت كسرنا في خلالها حملتين فرنسويتين شر كسرة ، ثم بالنظر الى قلة طعامنا وفقد العلوف لخيولنا عدنا الى الفوطه . وهنا ، نظمنا شؤوننا ودعونا الاهلين للجهاد فحملوا السلاح معنا ، فكان نصيب كل قرية من الجندين عددا معيننا من سلاح وعتاد ، وحدث في تلك المدة رجوع ابي عبده ديب الشيخ من الجبل فساعدنا بهذا العمل مساعدا تذكر فتشكر . واخذت جموعنا تزداد زيادة مضطردة الى ان بلغت بضعة الاف ، وهذا مكثنا من تجهيز الحملات الى القلمون لسد اثر اخواننا فيها . »

ولترك الان حديث الفوطه موقتا مدة الشتاء ولنشكر نزيه بك واخوانه على احيائهم هذه المنطقة بعدما كاد القسوط يتسرب الى القلوب من انعاشها ، ولتلق نظرة على حوادث النيك وما اليها من القري .

حذب وصوب فقد امر فوزي بك وسعيد بك الاخوان بالانسحاب فانسحبوا بمعجزة غريبة عملتها ستائر الضباب التي انسدت عليهم في تلك الساعة من السماء .

ومن هناك انسحبوا الى النيك حيث التقوا بالجيش فاصلوه نارا حامية من وراء استحكامات احكموا بناءها على الفن الحديث بحيث يستطيع كل واحد منها ان يدافع ببنائه عن الاستحكامات الاخرى .

وقد ابتدأت المعركة في ضحى اليوم الرابع عشر من مارس (آذار) ولم تنته الا بعد العصر اذ تمكن العدو من احتلال المستشفى الدانماركي غربي البلد .

لكن المجاهدين اعادوا الكرة فهاجموا المستشفى واحتلوه عنوة بعدما اخترقوا صفوف الفرنسيين وهزمهم شر هزيمة . وهكذا استعادوا جميع ما اضاعوه بثلاث هجمات متواليات وريحوا خيلا وسلاحا وعتادا واقرا وخربوا مصفحتين . وكانت الخسائر في صفوفه عظيمة ظهر تأثيرها عند المساء اذ انقلب مدافعا وقد ضعفت ناره وكثر الفراغ فيه .

الا ان مواصلة القتال افقدت المجاهدين العتاد الذي ربحوه فاضطروا الى الانسحاب . ومع ان بعضهم بقي محتلا الروابي المحيطة بالبلدة حتى ١٥ مارس (آذار) الا ان الوضعية تطلبت انسحابه ايضا .

وهكذا نرى العدو الذي كان عازما على الانسحاب نهائيا قد عاد الى احتلال البلدة من جديد بعدما رأى جلاء المجاهدين عنها .

وقد اتفق الرعاء المنيون على ان معركة النيك هذه من اكبر معارك القلمون التي ظهر فيها تفوق الناصر بفضلها واستبساله .

الشاذة التي عومل بها .
وغني عن البيان ان مثل هذا المركز اذا اشتد ساعده تناول حمص وحماء بالتهديد الدائم ، لذلك جهز العدو في حمص حملة كبيرة بقيادة الجنرال (مارتي) الذي اشتهر بين القواد الفرنسيين بالحروب الجبلية ، وقوام هذه الحملة اربعة الاف جندي مسن المشاة والفا جندي من الفرسان وثمانية مدافع ، ومثلها مصفحات واعتماد اخرى كاملة منها سبعون رشاشا .

وكتب الي فوزي بك يقول :

« اما نحن فلم نجد متسعا من الوقت لانتم ترتيباتنا بيد اننا تمكنا من جمع ثمانماية مقاتل من انحاء القلمون وقرزنا ان ندافع عن النيك اولا في جهات (قارة) شمالا ثم في (النيك) نفسها وذلك لاستكشاف قوته ولضربه في مضيق (عيون العلق) ضربة مادية تؤثر في معنوياته ولا توصله الى (النيك) الا منهوك القوى » .
وفي اليوم الحادي عشر من مارس (آذار) دخل المجاهدون المشاة (قارة) والفرسان (دير عطية) لاحاطة جنود العدو من الايسر . وفي اليوم الثاني عشر اعدوا له العدة اللازمة في مضيق (عيون العلق) وقابلوه فكان في الخط الامامي سعيد بك المعاص وفوزي بك القناو قجي ومعهما نحو ١٥ مجاهدا ولكنهم لم يطلقوا ناره من مسن عقالها الا بعد ان استبانوا لهم ملامح العدو واصبحوا منه قباب قوسين او اذنى ، فصمدوا له كالراسيات وتمكنوا من صد تياره ساعتين ونصف الساعة رغم انف المصفحات التي كانت تقذف حمصا مثل البراكين النائرة ، والمدافع التي كانت تفتت الصخر وتحصد الارض ولكن المفروقات بأيدي المجاهدين والقلوب في صدورهم كانت اشد بانسا .

ونظرا لتأخر النجدة وقلة العدد الذي انضم الى رجال الصف الاول وكثرة الاعداء الذين تألبوا على المجاهدين من كل

الشيعة في الكويت

احتلال حاصبيا :

بينما كانت المعارك تدور في الفوطة وفي القلمون ، كان الاقليم شعله نار يضرها السادة :

صباح الحمود ، وزيد الاطرش وزيه المؤيد ، وفضل الله الاطرش وحمزة الدرويش ، وعلي عامر ، واسعد كنج وشكيب وهاب واسد الاطرش ومتعب الاطرش ، والبطل الكبير المرحوم فؤاد سليم والامير حسن الاطرش ، وغيرهم من الابطال الذين لا تتسع هذه الصفحات لذكر اسمائهم ويجوز لنا بالاجمال ان نذكر ان هذه المعارك العظمى ابتدأت في اول نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٢٥ يوم كنت عائدا من جهات الجنوب وانتهت في اواخر يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٢٦ يوم كنت ذاهبا الى جهات الشرق العربي في مهمة سياسية.

سير المعركة :

اخذ المجاهدون من جميع الجهات يتجمعون في القرن الشمالي في اواخر اكتوبر (تشرين اول) ثم ساروا الى جهات الغرب فانشطروا شطرين ، الشطر الاول ، احتل اقليم البلان فانخذ قضية المجال مركزا له وكان بقيادة زيد بك الاطرش .

خسائر المجاهدين :

وكانت خسائر المجاهدين في (عيون العلق) ثمانية عشر قتيلًا اشهرهم فؤاد ارسلان من حمص ، واللازم ابراهيم صدقي افندي من دمشق .

خسائر العدو :

اما خسائر العدو فقد قال سعيد بك العاص بكها : انها في اليوم الاول بلغت ثلاثة ارباع مدفعيته وفي اليوم الثاني زهاء اربعمائة قتيل .

ابطال المعركة :

وابطال المعركة هم سعيد بك العاص وفؤدي بك القواقجي ، ومن الرعاء احمد منلا الكردي ، وابو مصطفى الحرستاني ، وابو شريف شرف ، والقائمقام زكي بك الحلبي ، واللازم خسر الدين الميايدي الطيار ، ومنير افندي الرئيس ، وجميل العلوانسي واخوانهم .

بطولة اهل النيبك :

ومما هو حري بالتدوين ان اهل النيبك حاربوا في اليوم الثاني حربا صلبا اذ انهم كانوا لا يدافعون عن الوطن فقط ، بل عنه وعن الاعراض المهددة ايضا .

التمرد من احتلال الاقليم :

اولا - المحافظة على الاهلين من تعديات الفرنسيين بناء على الدعوة التي حملها الى زعماء الثورة اهل الجدل انفسهم في قرية (كفرالبحا) في اواخر اغسطس (آب) كما تقدم معنا .

ثانيا - استمالة الشر كس ومفاوضة الامير محمود الفاعور للانضمام الى الثورة .

واما الشطر الثاني ، فقد سافر من الجبل الى حاصبيا فاحتلها دون اقل مقاومة حرية لان قائد الحامية الفرنسية علم بقدوم الثوار اليها وشمر بضعف قواته امامهم ، فعرض امرهم على الشيخ حسين فيس كبير الشيوخ في البياضة راجيا منه ان يتوسط في الامور وينجيه هو وحاميته من ايدي الثوار . فلبى حضرة الشيخ طلبه وارسله مع القوة التي كان يقودها الى (النبطية) ففازوا جميعا بأرواحهم ، ودخل الثوار بقيادة حمزة بك الدرويش ونزيه بك الويد العظم واسد بك الاطرش وشكيب بك وهاب وغيرهم من زعماء البلدة بين اناشيد الرجال واغاني النساء.

الثوار في حاصبيا :

بقي الثوار في حاصبيا اياما تتوارد عليهم وجوه قضائي حاصبيا وراشيا واقاموا حفلة ضخمة في قصر الحكومة حضرها جموع غفيرة فخطب فيهم نزيه بك وصبري بك البديوي الباسل خطبا سياسية وحشا الناس على الانضمام الى الثورة وبينما مقاصدها الحقيقية ، وبالفعل ، اخذت اهالي القرى تظهر خضوعها وتحكم انضمامها الى الثائرين يوما فيوما .

وحدث ان وفدا من مسلمي (جديدة مرجعون) ومسيحييها عرض خضوعه وطلب الى القواد ان يحتلوا (الجديدة) حالا لان المدو اخلاها فساد الجاهدون وعددهم بضعة الاف اليها وصادف حمزة بك الدرويش في طريقه سيارة فركبها مع ستة اشخاص من

دروز حاصبيا . وعندما وصل الى مفرق الطريق الموصلة الى قرية كوكبة ، اعترضه وفد من اهالي هذه القرية برئاسة خوريها فدعاه الى تناول الفداء في القرية فلبى حمزة الدرويش الدعوة غير ان اهالي قرية (كوكبة) كانوا منشقين شقين ، منهم قسم موال للسلطة الفرنسية وقد امدته بالسلاح والعتاد ، وسوست له ان يقاوم الثوار . والقسم الثاني كان مواليا للثوار وهو الذي دعاهم الى تناول الطعام .

ولما وصل حمزة الدرويش الى القرية ، قابله القسم المعادي من الاستحكامات بالرصاص ، فخر ثلاثة من رجاله قتل ، فتنادى حمزة باعلى صوته : « يا قوم لا تطلقوا علينا الرصاص ، لاننا ما ايننا هذه البلاد لحاربكم بل لحاربة الفرنسيين المستعمرين واني اقسام لكم بشرف الدروز وشرف هذه الثورة المباركة اننا لا نمسك بسوء واننا نعتبر هؤلاء القتلى فداء عن الوطن ، فكفوا عن الرمي ، وتأكدوا انكم اذا اردتم مقاومتنا ، انكم لخاسرون . »

فلم يلبوا طلبه ، بل داوموا على اطلاق الرصاص على حمزة وعلى الجموع القادمة . فهاجت تلك الجموع وماجت كالبحر الزاخر وهاجمت القرية ، وبأقل من نصف ساعة غدت القرية اثرا بعد عين وقتل من الاهلين عدد عظيم من جملتهم الخوري ، وكان قتله برصاص اهل قريته .

ثم عاد الثوار بغنائمهم الى حاصبيا وبعد بضعة ايام سارت قوة كبيرة بقيادة حمزة الدرويش ونزية العظم قاصدة «الجديدة» ولما وصلت الى مفرق طريق « ابل السقي » التي تبعد عن «الجديدة» نحو نصف الساعة ، اعترضها اهالي القرية ومعظمهم من المسيحيين ودعوا الى تناول الطعام في القرية ، فلبت الدعوة ، وبانت تلك الليلة فيها ، وفي اثناء السهرة قدم احد شيوخ القرية بحمل كتابا مرسلا من (بعلرس كرم) الى زعماء الثوار وكان كله

الى صيدا .

ولم يقتف الثوار اثر المنهزمين لانهم دخلوا حدود لبنان الصغير الذي قرر الثوار عدم التعرض له . وعليه اتفوا بنسف جسر (الخزادنة) وعادوا بعد ذلك الى مقرهم (حاصبيا) .

وقد اشترك في هذه المعركة قسم كبير من اهل (العرقوب) وفريق من عرب الامير النافور .

احتلال راشيا واحراق قلعتها :

ولما عاد الثوار الى (حاصبيا) علموا ان معركة كبيرة وقعت بين دروز (راشيا) وبين حاميتها ، فخرج قسم منهم بقيادة السادة حمزة الدرويش ونزيه المؤيد العظم واسد الاطرش وغيرهم من الزعماء الى راشيا ، فتحصنت الحامية في قلعة (ال شهاب) وتحصن معها معقل مسيحيي القرية . ولما ابصروا جموع الثوار قادمة نحوهم قابلوها بالرصاصة ، فهجمت الجموع واحتلت القرية ، وبقي الجند متحصنين في القلعة ودام الحال على هذا المنوال بضعة ايام واخيرا قرر الثوار مهاجمة القلعة فانقسموا الى اربع فرق واحاطوا بالقلعة من جميع اطرافها ، وعهدوا الى السيد نزيه المؤيد العظم بدخولها فقام بمهمته احسن قيام وتمكن من الوصول الى اسفل السلالم بواسطة خرق جدران الدور الموصلة اليها .

ووضعت السلالم على السور فتسلقها الثوار ودخلوا القلعة عنوة ببطولة نادرة تفوق الوصف . واحرقوا قسما كبيرا منها وقتلوا عددا عظيما من المحاصرين الذين لم يفروا ولم يختبئوا في الاقبية الارضية ، والذين حال الليل دون الوصول اليهم ، وقد استسلم اليهم كثير من المسيحيين فلم يسوهم بسوء بل اطلقوا سراحهم حالا بعدما استولوا على اسلحتهم .

وفي الصباح انت نجدة كبيرة من الجند مجهزة بالمدافع والدبابات والمصفحات ، ثم حقلت الطائرات فألقت على الثوار

شتائم ووعيد وتهديد . وبطرس كرم هذا هو احد اللبنانيين المتفرنسين جلبت له السلطة الفرنسية لرجعون على رأس عصاية من المتعصبين لتكسب الثورة صبغة دينية ، فلم تجر هذه الحملة على الزعماء بل انهم في الحال قرروا عدم التعرض (لجديدة مرجعون) وكتبوا كتابا لطيفا الى بطرس كرم يفهمونه فيه ان الثورة ليست سيفادرون (ابل السقي) ولا يتعرضون للجديدة كيلا تكسب الثورة الصورة الدينية التي يتطلبها الفرنسيون .

وبعد ارسال هذا الكتاب الى بطرس كرم ، عاد الثوار الى حاصبيا فوجدوا زيد الاطرش وسائر الزعماء قد قدموا اليها من الاقليم مع قواتهم ، فقصوا عليهم حقيقة الموقف فوافق الجميع على عدم التعرض (لجديدة مرجعون) واتصل الخبر ببطرس كرم فتوهم ان الثوار يخشون بآسء فتحرك فيه حس الانتقام ، وارسل قوة الى (برغز) وهي مزرعة درزية صغيرة تخص (آل شحي) لكي تحررها ، فكمن لها شكيب وهاب ، ولما وصلت ظليعتها المؤلفة من ستة عشر رجلا الى قرب القرية ، قبض عليهم شكيب وهاب واخذ سلاحهم واطلق سراحهم قائلا لهم : « يا اخواني ، اذهبوا وبلغوا جميع اخواننا المسيحيين اننا لا نريد بهم شرا واننا لا نرغب في محاربتهم ، بل نود مقاتلة الفرنسيين . »

فذهبوا الى اخوانهم وقصوا عليهم الخبر ، فلم يرجعوا عن فيهم بل هاجموا القرية ، فقابلهم شكيب وهاب ومن معه بالرصاصة وفي الحال اتصل الخبر بزعماء الثوار في حاصبيا فامتطوا ظهور خيولهم واقبلوا على (برغز) بسرعة هائلة ، فلما رأهم (بطرس كرم) وقومه ولوا الادبار الى (جديدة مرجعون) وانضموا الى الحامية الفرنسية التي وصلت اليها حديثا ، وتحصنوا في الزور والاستحكامات فتبعهم الثوار ودار بينهم قتال عنيف دام نحو سبع ساعات ، وانتهى بنصر المجاهدين وانخداد المدد وفراره

في الاقليم ، فخر صريعا يتخطط بدمه .

وبعد فترة ابتداء تراجع الثورة في تلك الانحاء .
ان اسم فؤاد سليم هو من الاسماء التي ستوضع في اوائل
اسماء المرشحين لنيل الاولوية في جهاد الميدان من بعد القائد العام .
وهو لا شك مقرون دائما بالفحول امثال حمد البربور وفوزي
القناوحي وفضل الله هنيدي ونزيه المؤيد وصباح الحمود ، وزيد
الاطرش وسعيد العاص ، وشوكت العائدي وحمد عامر وشكيب
وهاب وعبد القادر سكر ، وابي محي الدين شعبان ، وعادل نكد
وتوفيق هولو ونسيب الاطرش وسليمان العقباي وزين مرعي
جعفر ومحمود ابريحي واسعد كنج ومحمد شرف ومحمد عز الدين
الحلبي وسلمان الاطرش والامير حسن الاطرش والامير عز الدين
الجزائري ، وغيرهم من كبار الرجال الذين لا تتسع هذه المقالة
للاحاطة بهم ولذكر اسمائهم .

وحسبنا ان نقول هنا ان العقل الراجح اذا انضمت اليه
الشجاعة النادرة وكان الاخلاص حلقة الوصل بينهما تمثل امامنا
شخص شهيد الوطن ، فؤاد سليم .

مقادير كبيرة من المفردات مما اضطرهم الى ترك البلد والاعتصام
بالجبال .

حينئذ دخل الجنود القرية قتلوا جميع من وجدوهم وفي
مقدمة الجميع ، كان الشيخ نعمان وجميع افراد عائلته .

استشهاد فؤاد بك سليم :

هذه خلاصة مختصرة لمشارك الاقليم الكبرى ذكرتها بصورة
اجمالية ولا كنت عازما في اواخر تلك الايام على زيارة المناطق
الجنوبية لتنفيذ بعض المهام السياسية سمعت في دار الوطني
الكبير والبطل الشهيد المرحوم فضل الله باشا الهندي زعيم قرية
(الجدل) خبرا قضت له المضاجع الا وهو خبر مصرع الجاهد
الممتاز والوطني المفادي ، المرحوم فؤاد سليم .

ان انسى لا انسى قدوم هذا البطل الى الجبل متطوعا في
اواسط شهر سبتمبر (ابول) سنة ١٩٢٥ بعدما اقتحم الاخطار
وخاض المناطق المحظورة عليه المرور فيها ، فكان اول من رايته في
الجبل من القادمين من المناطق الاخرى بعد اخواننا .

قص علي يومئذ كيف استطاع اقتحام صحراء التيه والورود
بفلسطين وشرقي الاردن مع كثرة العيون والارصصاد وحرص
السلطات المتنوعة على منع المتطوعين من الالتحاق بالثورة فشكرت
له مساعيه وحمدت له وطنيته ثم رايته ملازما للقيادة العامة
يتحمل اعباءها ويتحمل وعث السفر وشقاء المشية غير حريص
على التفوق بل جعل نفسه داعية واداة منفذة .

ان هذا الاحتماء وراء شخصية باهرة وشجاعة نادرة وعقل
راجح ، وهو الذي كلف بنشر الرسائل الوطنية البليغة في الاقليم
باسم القيادة العامة وبعبارة : « الدين لله والوطن للجميع . »
وافاء اجله من قنبلة اصابتة عرضا وعفوا في احدى الطرق

منذ اوائل اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٢٥ حتى اواخر نيسان سنة ١٩٢٦ كان في حالة سكون نسبي .

غير ان ذلك لا يعني ان المجاهدين في الجبل اخلدوا الى السكينة طيلة هذه المدة ، بل انهم خاضوا غمار الموضعات السياسية في مؤتمرات عقدوها في قنوات وعتيل وشقة ودامسة عقيب دعوة دو جوفيل السلمية ، واحتلوا اللجاء ليهذروا السكة الحديدية في حوران ويقطعوا على الفرنسيين خط الرجعة .

اثر دعاية دو جوفيل في الجبل :

ومما هو حري بالتدوين ، ان الدعاية الجوفيلية اثرت اثرا ظاهرا في الجبل ، حتى ان بعض الزعماء الكبار انتدبوا الشيخ اسماعيل عز الدين من اهالي (السويداء) ليحمل كتابا الى القومندان (كوستيلير) في درعا وفيه الشروط التي يطلبونها وقد عاد المندوب الى السويداء في اليوم الرابع عشر من يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٢٦ فقال :

« قابلت كوستيلير في درعا وعرضت عليه الرسالة فاجابني لا اسمح ابدا ان يكون هناك في الجبل زعيم . وان هذه الفاسد هي من الدكتور شهبندر وهو رجل (فرماسون) لا دين له . والشروط التي نطلبها هي ان تعيدوا جميع الاسلحة الفرنسية وتؤدوا ثمن الخيل الاميرية التي يمتوها في شسر ق الاردن ، وتعيدوا بناء القلعة وسائر دور الحكومة الى حالها السابق وتضعوا سلاحكم في محل تأمنون عليه وتأثروا خاضعين بعد اخراج الدكتور شهبندر من الجبل ، ولا بأس ان تجتمعوا للمذاكرة ولكن على شرط ان تضعوا على صدر رسالتكم اشارة خضوعكم ثم توقعوها عليها لا بصورة فردية بل بعدد كبير من الرجال ، منعنا للرعاية التي تابها فرانس . وكان احد رجال الدروز الكبار موضوع تقده الخاص ، وفي النهاية قال كوستيلير : « ولا بد من استعلاء جميع

معركة السوريات

في ٢٥ نيسان سنة ١٩٢٦

بعدما فشل غاملان في هجومة على الجبل في سبتمبر (اللول) سنة ١٩٢٥ واضطر الى سحب جنوده الى الشمال عقيب الثورة في حماه ، نشر على الملا ان سيب هذا النشل هو قلة الماء فقال ان الجيش الصغير يعجز عن اقتحام تلك البلاد ، والجيش اللجب يموت فيها من العطش .

ثم اخذ في ذكر الخطط التي ينوي تطبيقها سريعا من احتلال صر فند في الجنوب وبناء القلاع في الغرب الى اخر ما هناك من الكلام .

لكن الواقع هو ان الفرنسيين خافوا مغبنة الحوادث في الشام وحمص وحماه وحلب ، فأرسلوا جنودهم الى تلك الارحاء سدا للدرائع ، خصوصا بعدما بدت البوادر في القوطة ، وهبت العاصفة في حماه .

ثم مرت الاشهر الطوال والجبل خال من الجنود الا على الحدود في بصرى الشام وبصرى الحرير وازرع . ولولا قنابل المدافع من بعض هذه القلاع وزيارة الطائرات المتوالية للقصرى وخصوصا للسويداء حيث التدمير كان فظيما ، اقلنا ان الجبل

مطالب الثورة .

ثم تقرر تأليف لجنة لإدارة الجبل وبحث في قضية حملة الفوطنة بقيادة فوزي بك القاوقجي بحثا مستفيضا .

ويظهر لي ان العامل المؤثر في تصليب الفرنسيين هو (اندريا) وغاملان في الدرجة الاولى .

ثم اننا عقدنا في السوعداء مساء الاثنين الواقع في ١٨ يناير (كانون الثاني) جلسة للتفاضل بين حملة تذهب الى الفوطنة او حملة تذهب الى اللجاء وهران ، فترجحت لدينا هذه باكثرية الاصوات للأسباب التالية :

القرب وخطورة النتائج والسرعة الضرورية والاستغناء عن الرواتب الضرورية لثل حملة الفوطنة ، وقد ذهب المجتمعون الى ان حملة حوران اذا كتب لها النجاح ، تريح الفوطنة وتخفف الوطأة عن سائر المناطق الشمالية .

وبينما كنا نسهر في تنظيم الثورة على هذا النحو كان كوستيلير يتأمر مع ظاهر القنطار وبراھيم الاطرش على اقبالي . واول من كشف لي الفطاء عن ذلك (٠٠٠٠) اذ ان لوالد صهرها ، ابراهيم بك الحاصباني اتصالا مباشرا بالأميرين وقد قصت علي الحديث في اليوم التاسع عشر من يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٢٦ وذكرت لي مقدار المال الوافر المروض لتنفيذ هذه المؤامرة .

وفيما بعد ذكر لي ابو محمد نسيب صفخر ان ابراهيم الاطرش المذكور وعده بضمسمية ليرة ذهب عثمانية اذا هو استطاع ان يسهل دخول داري ليلا وفتح باب حجرتي فاني .

تنظيم العمل في الثورة :

وكان همتنا في تلك الايام منصرفا الى تنظيم مناطق الثورة

المصائب التي تعبت بالامن خارج الجبل ، واني لا اضمن العفو عن احد » .

إفساد خطة كوستيلير :

كان الدروز يوم عودة الشيخ اسماعيل عن الدين في (شقة) للمداولة في الشؤون فرايت الفرصة سانحة لاطلاعهم على نيات الفرنسيين ، فأرسلته اليهم قبل تفرقهم فلقبهم في اليوم الثاني وقص عليهم هذا الحديث اللفظ الخالي من كل ادب وحكمة .

فلغت الحماسة في رؤوسهم ذرى المارق حتى ان فضل الله باشا هنيدي حلف يمينا غموسا ان لا يسمح لاحد من الهندييات الذين هم على اقل اتصال بالفرنسيين بالبقاء في الجبل ومن ثم اخذ المجتمعون قرارا بان يذهب كل فرد من كل بيت معروف في قرية (ذيين) ليحرقوا بيت فارس الاطرش و (للمجيم) ليحرقوا بيت سليمان عبده الاطرش وهما رجلان قد خانا المشيرة وعبشا بالوطن وقد تنفذ القرار هذا فيما بعد ، ثم انهم تخالفوا على الاستمرار في الحرب بصورة جدية .

ثم ان هذه الخطة التي اركبها القوميندان كوستيلير هي الثانية من نوعها ، الا اذا كان هو وحزبه من طفاة العسكريين قاصدين دوام الثورة .

والخطيئة الاولى هي ما مر معنا من امتناع الجنرال ساراي من مقابلة الرعماء .

قرار المجتمعين في الجبل :

وكان من نتائج هذا الخطا الفادح ان تقرر في (شقة) ايضا ان تقدم ربع محاريبها بالتناوب للاستمرار على الثورة وان يشتمل الحريق بيوت غير من ذكرنا امثال نجيب عامر وثركي عامر وعبد الكريم نصر ، وان يكتب الى كوستيلير كتاب يلقي بكلامه ويشمل

(صاد) و (سمح) الموحشتين ، ثم في قرية (طيسيا) الخالية من السكان وجذبا اثار الفرنسيين وعسمهم وكيف كانوا يقطعون السيل على المارة .

هذه كانت احوال الحدود بيننا وبين الاعداء وعلى مثل هذا الخراب كانت القرى المجاورة .

الشركس :

ولقد لقيت في قرى جماعة «الششن» في الجنوب من حسن الوفاة وكرم الضيافة والمطف والتبرؤ من اعمال الشركس النطوعين في خدمة المستعمرين ما يسجل لهم بمداد الفخر .

ان «الششن» والحق يقال ، على جانب من الشعور الحي وقد ذكروا لي ان كثيرا من الشركس في بلاد القفقاس كانوا يخدمون في جيش القيصر الروسي لسحق الحركات الوطنية وهذا ما يتفق مع سيرتهم في الاناضول ايضا يوم تطوعوا في خدمة اليونان الفتيحين لسحق الترك الوطنيين . ولا بد ان هذه النزعات ستحدث الا جازحا في نفوس الشاعرين منهم بدخائل الامور .

حركة مجهم الشمال :

ومن الحوادث المؤلة التي حدثت في غضون هذه الرحلة ان مجهم الشمال ممن يدعون التدين على الطريقة الوهابية هاجم الازرق على ارض تدعى البعاوية صباح سفري من السويداء فاغار على نحو خمسين بيتا من عرب المساعيد رعيان الدروز في حين كانت البلاد من اقصاها الى اقصاها تتفاعل بقرب مجيء التدينية لمساعدة المجاهدين .

وقد احدث عمله هذا تأثيرا سينا تلافاه الاخوان في فلسطين بالكتابة الى المراجع الايجابية .

ومما هو حري بالتدوين ويدل على اشتراك سكان البادية في مذكرات (١٥) - ٢١٣ -

وضع اسس الاتفاق بدلا من الفوضى ومقاومة الخونة مقاومة عنيفة ، بيد انه من دواعي الاسف ان تكون عادات البيوتات والثارات في الجبل مانعة من تنفيذ هذه المساعي وابقاع القصاص الصارم في هؤلاء الاسافل . .

وكان من نتائج هذه المساعي الاتفاق على كتابة عهد امضاها مشايخ عرمان وملح وامتان والهوية وقيصمة والحريسة وابو زريق وشعف دهم وتل اللوز وطليلين ، وفيه يقسمون بان يتخذوا .

١ - الامتناع عن الشر وعلى اتيان الخير .

٢ - على التبرؤ من كل من يرسل العدو او يقابله .

٣ - على تأديب من تثبت عليه الشبهة «بفرشه» اي بسط داره للنهب وهدر دمه .

٤ - على النأخي التام والتعاون اللازم في الداخل والخارج .

٥ - تنفيذ هذا العهد منوط بفتيان الوطن الفيوريين .

وكان الاخوان في السويداء يضعون يومئذ لهؤلاء «الفتيان» قانونا يتمشون عليه .

مقادري للسويداء :

غادرت السويداء في اليوم الحادي والعشرين من يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٢٦ للاجتماع باحد المندوبين السياسيين الوطنيين خارج مناطق الثورة في الجنوب ، فمررت على ام الرمان حيث التقيت باصحاب العهد يوقعونه من مشايخ هذه القرية الحرة ، وكان لا بد من مروي في طريقي الى الجهات على القرى الملاصقة ببحرى الشام حيث العدو متحصن بخيله ورجاله فتقدم الفتيان لحراستنا وعلى رأسهم جاد الله بك البربور فأخذوا يعدون على ظهور الصافنات الجياد ، امام سيارتنا الى ان ادخلونا قريتي

وعلي بك عبيد وجابر بك الصغير وغيرهم لأجل البحث في المدعوة السلمية التي نشرها دو جوفنيل ، فتقرر ارسال جواب مؤلف من ست مواد معروفة ، الا انه كان شديد اللهجة جدا وخاليا من المرونة السياسية المطلوبة ، وفي ختامه طلب الجلاء عن سورية عقيب المجلس التأسيسي بشهرين والامضاء : الشعب الدرزي .

وهذا خطأ فادح ايضا ، اطلع المسيو دو جوفنيل على هذا الجواب فنشر في الصحف بيانا مختصرا اشد منه ذكر فيه : ان لا سلم ولا مفاوضة الا بعد ان يخضع الثوار ويلقوا سلاحهم . وبعد قرار مؤتمر دامة هذا وبيان دو جوفنيل عليه طورا جديدا في تاريخ الثورة السورية ، انقطعت من بعده الوسائل السلمية ، ولم يعد امام سورية للوصول الى حقها المقصوب الا الاستمرار على الحرب . هل كان بالإمكان لو لا قرار دامة يا ترى الوصول بالمفاوضة الى حل سلمي . وهل كان دو جوفنيل صادقا في اظهار ميوله الصلحية ومؤمنا بالبيانات التي نشرتها الصحف عنه يوم كسان قادما الى سورية . وهل ثبت فيما بعد انه كان قبيل تعيين (بونسو) خلفا له من اقرب التوسيعيين الى القضية السورية مودة ، وانه الوحيد الذي اظهر عظما او تظاهرا به ؟

هذه اسئلة ليس من المستطاع الجواب عنها الان بل تترك الى الاجيال القادمة وربما عرف عنها اخواننا في اوربا ومصر اكثر منا .

الزحف على اللجاء :

وفي صباح الجمعة الواقع في السادس والعشرين من شهر فبراير المذكور غادر المجاهدون قرية (دامة) الى لب اللجاء في حوران فاحتلوا من غير مقاومة تقريبا قرية (جبل) وسائر القرى الاخرى وانهزم من امامهم طلال ابن ابي سليمان واحمد الفصين

المعطف على هذه الثورة الا ما كان نافرا في شذوذه ما اجرني عنه (حديثة الخريشة) شيخ القرشان ومثقال باشا الفايز شيخ صخر بتولهما ان الفزوات هذه السنة كانت نادرة جدا بالنسبة الى السنين الماضية ، لان البدو حرموا على انفسهم الفارة على هذه البادية خشية ان يصادموا فيها المجاهدين او يسلبوهم حلالهم .

عقاب الجواسيس :

واتفق لي يوم عودتي الى السويداء من رحلتي الى الجنوب ١٢ فبراير (شباط) مساء ان الدرك قطع يدي الجاسوسين شفيق التراز وصويصي الشنبلي اللذين لعبا اخطر الادوار في الخيانة بعد ثبوت الجرم عليهما . فاذاغ (دوتير) و (هافاس) كمسا اذاغ المسيو دو جوفنيل امام عصبة الامم فيما بعد ، التي انا السدي قطعت اليدين من غير شك ، مع ان التنفيذ جرى في غيبي ، ولو كنت حاضرا لمنتته لان الجاسوسين المذكورين لا يستحقان قطع اليد بل لانهما يستحقان خلع الرتبة .

وقد اخطأ الدرك ومن اشار عليه بهذه الرحمة التي كانت آلة للدعاية في ايدي الفرنسيين .

مؤتمري في « دامة » :

وفي المنتصف الثاني من شباط تم الاتفاق بيننا وبين سلطان باشا على الزحف على اللجاء فاخذت الجموع تحتشد من كل مكان ، وفي مساء الخميس الواقع في الخامس والعشرين من الشهر المذكور عقدنا جلسة تاريخية في اللجاء داخل قرية « دامة » في بيت شبيب بك التنتار حضرها عدد كبير من الزعماء :

سلطان باشا وعبد الفغار والرحوم الامير حمد وصياح بك الحمود وسليمان بك وفضل الله بك من الطرشان ومن العوامرة علي بك وهائل بك والامير عادل ارسلان ، وتوفيق بك هولو حيدر

نخبة الثورة

« لم يتناول الدكتور عبد الرحمن شهبندر في مذكراته المراحل الأخيرة من الثورة السورية (١٩٢٥ - ١٩٢٦) على أننا نرى لتمام هذا الموضوع التاريخي ان نشير الى هذه المراحل بلمحة موجزة يتفه منها القارئ على الظروف القاسية التي عاشها المجاهدون السوريون بعد ان تمكنت قوى الاستعمار الفرنسي من كبح نشاطهم الوطني المسلح والجأتهم الى مغادرة الاراضي السورية ليعيشوا حياة الفسك والبؤس والتشريد في منطقة الاذرق من بلاد الشرق العربي (المملكة الاردنية الهاشمية حالياً) .

خاتمة المطاف :

احتل الفرنسيون السويداء على اثر معركة ضارية مع المجاهدين من السوريين وبني معروف يوم ٢٥ نيسان سنة ١٩٢٦ استمرت طوال النهار والليل اشتركت فيها الدبابات على الارض والطائرات في السماء ، واضطر المجاهدون الى الانسحاب الشرق ، فنزل سلطان باشا الاطرش واخوانه على مكان يقال له «عين النخبة» كما نزل الدكتور عبد الرحمن شهبندر واخوانه بقرية «سالة» .

وغيرهما من الشيوخ الذين ابتاعتهم الدولة المستعمرة بالمال ، والدراهم البخسة .

ومن ذلك اليوم اصبح اللجاء في قبضة الثوار الى نحو المنتصف من شهر نيسان اذ استعد الجنرال (اندريا) للرحف على السويداء .

وغير نكر ان الفرنسيين اهتموا اشد الاهتمام لسقوط اللجاء بيد المجاهدين وعرفوا ان اتصالهم بحوران لاسيما بقلعة بصرى الشام ودربا اصبح مهددا لان قرية خيب الواقعة على السكة الحديدية الحورانية لم تبعد عن «صور اللجاء» غير ساعتين .

بيد ان العربان في اللجاء ، الا القليلين منهم ، وقفوا انفسهم في خدمة الفرنسيين فكانوا عقبة في سبيل الثورة كودا ، ولا انكر ابدا الخطا الذي ارتكبه بعض المجاهدين بقتلهم اخا طلال المذكور مما ادى الى حرب بحوران بين العربان وبين المجاهدين ، سمعنا طلقات نيرانه في قرية «صور» ومن المؤسف كثيرا ان يقع على مهاجري الاقليم ثار هذا القتل .

فقد رأيتهم في قرية «لبين» وهي من قرى اللجاء في مساء الجمعة الواقع في ٩ من شهر نيسان (ابريل) بحالة تفتت الاكباد وذلك بعدما اكتمحت ديارهم الجيوش المستعمرة ومن ورائهم شرادم المأجورين والمتمصين .

الملاحق

مذكرة الشعب^٣ بندر^٤ الى وزارة الخارجية الفرنسية

وفي رسالة عقدت عدة اجتماعات بين الزعيمين الاطرش وشهبندر وافق الرجلان الكبيران على الاتصال بالرحوم الملك فيصل الاول وتسليمه مذكرة بمطالب البلاد لعرضها على المراجع المختصة في اوروبا وقد تم الاجتماع فعلا بين الزعماء السوريين والملك العربي وعقد الجميع جلسة بالقرب من القياصة على طريق بغداد الى الجنوب من القرية المذكورة شهدها بالاضافة الى الدكتور شهبندر والملك فيصل كل من سلامة بك الاطرش والامير حسن الاطرش وعلي بك المصطفى الاطرش ونزيه بك المؤيد المعظم وعلي ذوقان بك الاطرش وكذلك رستم بك حيدر وتوفيق بك السويدي وتحسين بك قدري .

وفي اول اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٢٦ غادر الدكتور شهبندر جيل الدورولاخر مرة وبرفقته سلطان باشا الاطرش ونسيب بك البكري فتعشوا خلصة في بيت شيخ «العانات» وهي قرية على مرمى الرصاص من معسكر الفرنسيين في تل الخضر .

وفي اخر الليل واصلوا سيرهم الى الازرق فبلغوه صبيحة اليوم التالي وكان يوم الاثنين ١٤ (كتوبر) تشرين الاول سنة ١٩٢٦ .

الناشر

* * *

وفي ختام هذه المذكرات فإننا نسجل المذكرة الصاخبة
التي كتبها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الى الحكومة الفرنسية
بباريس .

وقد تضمنت نصوصها شرحا ضافيا للعوامل المباشرة التي
ادت الى اثاره الخواطر وازدياد النقمة الشعبية ثم اندلاع نيران
الثورة الوطنية التي انطلقت شرارتها الاولى من معقل جبل الدروز
ثم ما لبثت ان عم لهيبها المقدس اكر البلاد السورية واستمرت
نيرانها متأججة في الجبال والوديان والسهول اكثر من سنتين
دون فتور ولا انقطاع . والتهمت آلافا من الازواح البرية التي
قدمها الشعب السوري المجاهد قربانا مقدسا على مذبح الحرية
والكرامة والاستقلال . وكانت معاركها الضارية صفحة وضاعة
مشرقة من صفحات النهضة العربية في كفاحها ضد الاستعمار
الفرنسي الفاشم في الشرق .

الناشر

نص المذكرة التي قدمها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر
الى وزارة الخارجية الفرنسية يسط فيها اسباب
الثورة السورية واغراضها .

انشراف بان ايسط لسعادتك اسباب الثورة التي نشبت

عمله الجنائي هذا .

٦ - اعتقل المدعو حسين صديق ١٥ يوما لانه لم يذهب لاستقبال الكابيتين كارييه ، وفرضت غرامة على القرية قدرها ٢٥ جنيهها ذهيبا لانها لم تستقبله استقبالا فضا . وقد فرضت مثل هذه الغرامة على قرية عرمان للسبب نفسه .

٧ - اعتقل فهد بك الاطرش قائمقام صلخد وضرب ضربا مبرحا دون تحقيق بناء على وشاية بسيطة من احد الجواسيس .

٨ - فرضت غرامة على سكان السويداء قدرها عشر جنيهات لضيقا قطع اللبوتان (موريل) .

فهذه الحوادث وامثالها والافتئات على حقوق البلاد ، كل ذلك حمل الاهلين على الثورة ، ويخطيء من يعتقد ان الوطنيين وحدهم هم الذين اثاروا حركة الاحتجاج هذه .

فان المعتدين انضموا اليهم . وقد الف وفد وذهب لبث شكواه وتقديم عريضة تتضمن رأي الجبل ومطالبة .

ورفض الجنرال قبول هذا الوفد ، رفضا فيه كل معاني الاحتقار والتهديد ، فزاد بعمله هذا غير المنتظر هياج الافكار الناشئة عن ادارة الكابيتين كارييه ، ولم تقتصر السلطة على الاحتقار والتهديد ، بل جردت على الجبل الهاديء المسالم حتى تلك الساعة قوة قوامها بضع مئات من الجند بقيادة القومندان (توما مارتان) الذي اسديت اليه نصائح كثيرة بالمدول عن سياسة الشدة ومعالجة المشكلة باللطف واللين ، ولكنه لم يرد ان يستمع شيئا . وقد استهل عمله باعتقال عدد من الرعاء تمكن من اعتقالهم لقرتهم منة وارسلهم الى المنفى ثم وجه قسما من قوته للقبض على زعماء آخرين ، وكان ذلك فائحة الثورة ، اذ لم يبق احد امينا على حياته او على ممتلكاته .

اخرا في جبل الدروز والنتائج المنتظرة منها والحالة الحاضرة في سائر أنحاء سورية :

بعد وفاة سليم باشا الاطرش سنة ١٩٢٣ عين المشدوب السامي الفرنسي الكابيتين كارييه حاكما على الجبل خلافا للاتفاق البرم مع الدروز ، وهذا الموظف الذي اشتهر بسوء السيرة في حياته الخاصة والعامة ، واعتمد على فريق من الموظفين الذين فسدت اخلاقهم . نهج في الجبل سياسة الارهاب والتنكيل فبدلا من ان يدير شؤون البلاد عمد الى دس الدسائس والتفريق بين ابناء البلاد .

واليكم مقتطفات من وثيقة طويلة قدمت رسميا الى الجنرال ساراي في ٦ يونيو (حزيران) سنة ١٩٢٥ عن اعمال الكابيتين كارييه :

١ - كان عدد من رجال الجندومة المسلحين بالعصي مخصصين لاهانة الناس وضربهم تنفيذا لرغائب الكابيتين كارييه ورجال حاشيته بدلا من ان يقوموا بالواجبات المفروضة عليهم .

٢ - اعتقل حامد قرقوط من اعيان قرية ذيبين مدة خمسة اشهر من دون سبب ولا محاكمة ، وكان يهان ويضرب في الصباح والمساء لاقل وشاية من احد الجواسيس .

٣ - جلد المدعو حسين كابول من قرية (رعية اللحف) حتى مرق لحمه لانه اهل ان يحتي الكبورال «ديوشيل» في اثناء مروره على الطريق العام .

٤ - اعتقل المدعو وهبة المشعوش وضرب ضربا مبرحا في السويداء لانه رفض ان يؤجر منزله .

٥ - اطلق الكبورال (ديوشيل) عدة طلقات من مسدسه على محمد بك الحطبي مدير العدلية العام ، ولم ينل اقل عقاب على

ليدرك حقيقة الازمة الاقتصادية والمالية التي عانتها البلاد بين سنتي ١٩٢٠ و ١٩٢٥ ، فان الثروة العامة نقصت نقصا عظيما بينما كانت الضرائب تزداد على نسبة اعظم .

وقد انضمت الغاية المنشودة حينئذ ، وهي اقناع البرلمان والحكومة في فرنسا واقناع العالم كله بان سورية اخذت ثثري وان الدليل على ثروتها كثرة الضرائب المفروضة عليها .

واذا صرفنا النظر عن الحالة السياسية ، ونظرنا الى الحالة الاقتصادية لم نرها احسن منها لان المفوض السامي ظل مصدرا لجميع انواع السلطات ، من تشريعية وتنفيذية وقضائية . ولم يكن للمجالس التعميلية التي منحوها البلاد سنة ١٩٢٣ اقل سلطة . وقد اصبحت الحكومة المحلية شبحا يمثل المفوض السامي اكثر مما يمثل البلاد .

واشتد الاستياء ، واصبح عاما فقامت البلاد غير مرة تحتج على هذه الحالة التي كانت تسير عليها الى الفوضى التي هي فيها الان . وقد افهم ولاية الامور ان طريق الحل الوحيد ، هو تأميم سيادة سورية بانتخاب مجلس تأسيسي ينظم دستور البلاد ويضع اساس علاقاتها الودية مع المحافظة على حقوق سورية ومصالح فرنسة في وقت واحد ، على ان يكون هذا الانتخاب حرا .

لكن هذه الرغائب لم ترق الموظفين الذين تعودوا ارضاء شهواتهم من دون مراقبة ولا مسؤولية . فان بعض كبار الموظفين الفرنسيين وجدوا في البلاد خذما مخلصين ، قالوا معهم شركة لاستغلال السكان على حساب فرنسا وسورية استغلالا يجنون كل فائدته لانفسهم ، وقد صادفت هذه الشركة نجاحا عجيبا في جميع مشروعاتها الخاصة ، وهكذا اذن تتحققون ، ان قسم بتحقيق دقيق ، ان كثيرين من هؤلاء الموظفين جمعوا ثروات طائلة وتركوا في البلاد آثارا من مساوئهم وفضائهم لا يمكن

ولكن القوة هذه ، ايدت في الكفر يوم ٢٢ يوليو (تموز) سنة ١٩٢٥ قبل ان تحقق اميتها . ولم تشأ السلطة ان تعد هذا العمل اذارا كافيا ، بل واصلت معامراتها التي انتهت بكبسة المرعة في ٢ اغسطس (آب) سنة ١٩٢٥ و ٣ منه ، على الرغم من النصائح التي اسديت الى ولاية الامور ، وكانت نتيجة هذه السياسة ابادة بضعه الاف من الجنود الفرنسيين الساكنين . ولا تزال القوات الفرنسية تصادف الصعوبات عينها حتى يومنا هذا .

ولا تزال الثورة التي نشبت في جبل الدروز تتسع نطاقا حتى اوشكت ان تعم سورية كلها . وهذه نتيجة لازمة لسياسة الضغط والارهاق التي وضع اساسها الجنرال غورو ، وسار عليها خلفاؤه من بعده .

اما قواعد هذه السياسة فهي :

- ١ - جمع كل انواع السلطة في يد المفوض السامي .
- ٢ - خنق كل الافكار الحرة .
- ٣ - استغلال البلاد واهلها من غير ابقاء على شيء .

وقد اعتزلت العناصر الوطنية المنورة العمل ردحا من الزمن ، متوقعة فشل هذه السياسة من جهة وانتهاج طريق اخرى تكفل للبلاد حقوقها وتحقق الامل التي اعربت عنها بلسان الجماعات التي فوضتها من جهة اخرى .

على انه لم يطرأ أي تعديل جوهري ، مع ان النتائج جاءت سيئة جدا . وكانت البلاد التي بدأت تنتعش بعد الحرب قد وقعت في ازمة اقتصادية ومالية لا مثيل لها ، فلم تفعل السلطة شيئا لتخفيف هذه الازمة بل وجهت كل مساعيها لاستغلال دافعي الضرائب بفرض رسوم وضرائب جديدة ، وحسب القارئ ان يلقي نظرة اجمالية على احوال التجارة والصناعة والوراثة

بلا سبب الى جزيرة ارواد حيث عوملوا اسوأ معاملة وتمكن آخرون من الفرار قبل فوات الاوان .

وضاعف هذا العمل الفجائي غير المقول الصعوبات القائمة في البلاد ، وكانت اذارا بالجلاء . وكانت السلطة بالتجاهل الى مثل هذه الاعمال القاسية غير المشروعة قد اهابت سخط الاهالي الناقمين ، واقنعت اكرية الوطنيين السوريين بان الوسائل السلمية المشروعة لا تؤدي في حال ما الى تحقيق آمال شعب من الشعوب ، وان دعاة الوسائل السلمية يكونون دائما ضحايا القوانين التي يريدون احترامها .

وهكذا اخذت بؤرة الاضطراب تتسع بالتدريج اذ لا يعلم احد ماذا يحدث في الهند اذا لم تبذل المساعي لمعالجة المشكلة بالحكمة والعدل .

وارى من واجبي ان اقول قبل ان اختم هذا الكتاب :

ان فرنسة لن تحافظ على نفوذها في هذه البقعة من بقاع الشرق بقوة السلاح ، وانما تستطيع ان تفعل ذلك بانتهاجها سياسة المسالمة واعترافها بحقوق سورية المشروعة . واستطيع ان اؤكد لكم ان اكرية الشعب السوري على استعداد للتفاهم مع فرنسة على قاعدة سيادة سورية القومية مع المحافظة على مصالح الفرنسيين .

وتفضلوا في الختام ، بقبول فائق احترامي

الدكتور شهبندر

نصديقتها .

وان الكاتبين كارييه وحمدي الجليل الذي بقي مديرا للبوليس اربع سنوات ونصف السنة هما في سورية من اكبر الشواهد على ذلك .

ولا تحقق الوطنيون السوريون ان الحالة تسير من سيء الى أسوأ ، قرروا تأليف حزب باسم «حزب الشعب» فأفترقت السلطة قصارى جهدها لمنعهم من ذلك ، ولم يحصلوا ، الا بعد جهد جهيد ، على ترخيص الحكومة لهم بالاجتماع في شهر مايو (ايار) سنة ١٩٢٥ .

والتفت اكرية سكان البلاد حول هذا الحزب ، كما ثبت للمسيو «اوغست برونه» في اثناء قيامه بالهمة التي انطت به في سورية في شهر يوليو (تموز) سنة ١٩٢٥ .

وقد سار هذا الحزب على الطريق المشروعة لتحقيق الاماني الوطنية وحاول ان يقنع الجنرال ساراي وكبار الموظفين الفرنسيين بان الوطنيين السوريين ليسوا اعداء لفرنسة ولكنهم يريدون خدمة بلادهم بتأمين حريتها وحقوقها المفضومة واقامة نظام وطيدها على قاعدة الاماني الوطنية لا المنازعات الطائفية التي لا تزال تسير بها حتى الان الى الخراب والدمار .

وحاولت الحكومة المحلية ومن رائها كبار الموظفين في المفوضية السامية ، غير مرة ، ان يخفوا معارضة «حزب الشعب» لاسباب خاصة .

ولا نشبت الثورة الدورية للاسباب التي بسطتها آنفا ، تمكنت السلطة من انتهاز الفرصة للانتقام من حزب ثالث لتحقيق برنامجهم بالوسائل المشروعة .

وقد قبض على كثيرين من اعضاء «حزب الشعب» وابعدوا

٥	تعريف	٥
٧	اقسام الكتاب	٧
	القسم الاول : مذكرات الدكتور عيسد الرحمن	
٩	الشهيد في السجن عام ١٩٢٢	٩
١١	مقدمة	١١
١٥	كرابن في سورية	١٥
٧٤	الشهيد في سجن القلعة	٧٤
١١٦	الحاكمه و أسرارها	١١٦
١٢٠	يوم المحاكمة	١٢٠
١٣١	السجن في قلعة بيت الدين	١٣١
١٤٧	القسم الثاني : مذكرات الشهيد عن الثورة السورية	١٤٧
١٤٩	تمهيد	١٤٩
١٥٥	إبتداء الثورة	١٥٥
١٥٨	إعلانات الثورة	١٥٨
١٨٠	الثورة في حماه	١٨٠
١٨٤	معركة الشام الكبرى	١٨٤
١٩١	حسن الخراط	١٩١
١٩٧	الثورة في النسيك	١٩٧
٢٠١	الثورة في الإقليم	٢٠١
٢٠٨	معركة السويداء	٢٠٨
٢١٧	نهاية الثورة	٢١٧
٢١٩	الملحق :	٢١٩
٢٢١	نص مذكرات الشهيد الى وزارة الخارجية الفرنسية	٢٢١